أقباس من

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- بشارات الكتب المقدسة بنبي الإسلام.
- دلائل النبوة في القرآن والسنة.

علاء الدين المدرس

دار الرقيم للنشر والتوزيع/ بغداد
الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جماعة الإعجاز العلمي في بغداد

يشير الأستاذ محمد أحمد الراشد إلى جماعة الإعجاز العلمي في بغداد، التي انطلقت للعمل الدعوي والتبشير بأهمية الإعجاز العلمي بفروعه المختلفة في أواخر القرن الماضي، في كتابه الرصين الذي يحمل رقم (٧) في سلسلة إحياء فقه الدعوة.. الموسوم (منهجية التربية الدعوية)، والتي كان من أبرز أعضائها: الدكتور أنيس مالك الراوي والدكتور محمد جميل الحبال والاستاذ رعد عبد عون والدكتور عبد الحميد العبيدي والدكتور خالد العبيدي والدكتور محسن عبد الحميد والدكتور وميضٍ العمري والدكتور عمر عبد الستار والدكتور أحمد عدنان والدكتور صبحي الراوي.. فضلاً عن العبد الفقير مؤلف الكتاب..

والتي كان مركز نشاطها معهد الشرق وجمعية الشبان المسلمين وبعض الفضائيات العربية المعروفة والجامعات والمنتديات العلمية والأدبية والدواوين والمنابر في بغداد وباقي مدن العراق الأخرى..

يقول الأستاذ الداعية والمفكر الإسلامي المعروف الشيخ الراشد:

زرت حدائق (وزلي) في ضواحي لندن مرتين، فرأيت عشرات ألوف أنواع النبات، من فواكه وورود وحشائش، وجملة ما فيها أكثر من مائتين وعشرين ألف شكل من النبات، تنطق بتسبيح الله تعالى خالق الأنواع ومصور الجمال، ويمكنك أن تركب الباص الريفي الأخضر إليها من عند ركن المتكلمين في الهايد بارك.

وما زال التلفزيون يعرض لنا في برنامج عالم البحار، عجائب الأسماك ومخلوقات الماء ولا تنفد العجائب.

ومفردات الإعجاز القرآني وإعجاز بعض أقوال النبي ﷺ كثيرة، وفيها ما يحير الألباب، وكلام زغلول النجار ومحسن صالح وعبد المجيد الزنداني، وأضرابهم فيه كلام رصين مؤيد بالبرهان، ويقود علاء الدين المدرس اليوم ببغداد جناحاً إعجازياً آخر..

فهذا كله من منهج تربيتنا الدعوية، لكن ليس الإنصات لهذ ه العلوم، وإنما المطالعة المستوعبة لكتب كثيرة، قدح زناد البداية فيها الدكتور أحمد زكي في كتاب (مع الله في السماء)، مع مشاهدة عشرات أفلام فيديو، خاصة تلك التي صدرت عن مراكز الإعجاز، وفيديو محاضرات الإعجاز، ووسائل إيضاح علم الذرة والفيزياء، مما أنتج الغرب، مع مقتبسات مما تعرضه قنوات ديسكفري والجغرافية[١]...

---

[١] من كتاب: منهجية التربية الدعوية/ محمد أحمد الراشد، ص ١٢٨، ط ٣. بغداد ٢٠٠٣م/ الناشر دار المحراب/ فان كوفر/ كندا..

م/ توصية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى اله وصحبه أجمعين.. وبعد

أكتب هذه السطور عن الأخ الداعية المهندس علاء الدين المدرس والذي ركز اهتمامه بكتاب الله سبحانه، على الرغم من أن معظم الجيل الحالي الذي جاء بعد جيلنا، يفرط في وقته ويقضي ساعاته الطوال في اللهو الفارغ، وغير ذلك من مشاغل الحياة الدنيا. فأن الدنيا الحلوة الجميلة المغرية لم تأخذ منه شيئا حيث أنصهر في كتاب الله ينهل منه ما يفيضه الله عليه من قبسات نورانية، وهو يغوص في كتاب الله وآياته العلمية يستخرج منها اللآلئ والعبر، فأخرج لنا خلال السنين الماضية كتب عديدة في مجال الإعجاز العلمي والتاريخ والتراث وغيرها من المواضيع القرآنية.

ولا أريد أن أزكّي على الله أحداً، ولكني أرى من باب الإنصاف والوفاء لمن يخدم القرآن، أن نكتب عنه شيئاً بما هو عليه حقيقة، فقد عرفته . من خلال العمل في ميدان الإعجاز العلمي والدعوي . أخاً طيباً صادقاً مرهف الحس وجداني المشاعر، يبحث عن الحقائق العلمية في كتاب الله تعالى، يتحرى الدقة، ولا يخلط مع كتاب الله شيئاً مما دخل فيه بعض المغالين وبعض المتسرعين في ربط الآيات القرآنية العلمية بالعلم المعاصر، حيث أن بعضهم أخذ يلوي آيات القرآن الكريم حتى تتماشى مع ما يكتشفه العلم الحديث، دون الاستناد إلى الأصول والضوابط اللغوية والعلمية. وإن الأخ علاء الدين المدرس هو أحد الداعين إلى تأصيل الإعجاز العلمي والالتزام بالأصول والضوابط التي يحددها علماء التفسير واللغة العربية.

وللشهادة الصادقة أقول، إني أرشح كتاب المدرس الجديد الموسوم (أقباس من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) للنشر، لما فيه من منفعة عالية للشباب الباحث في ميدان إعجاز القرآن وعلومه.

ولا شك إن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دخل عالمنا اليوم من أوسع أبوابه، بعد أن تسابق العلماء بكشوفاتهم التي أذهلت الجميع.

حيث إن القران الكريم هو معمار متكامل رائع من الحروف والكلمات والجمل والآيات والسور، وإنه كلام الله المعجز الذي لا تنقضي عجائبه، وهو .

بفضل الله ونعمته . يعطي كل جيل من الأجيال حصته من العلم، ويخاطب جميع العقول في مختلف مستوياتهم في كل زمان ومكان، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.. قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾**[2].

وأخيراً . و ليس آخراً . أوصي الشباب المسلم المؤمن، أن يبادر إلى كتب الأخ الداعية الأستاذ علاء الدين المدرس لاقتنائها، لما فيها من صفاء ودقة وشفافية وسهولة فهم، سواء في مجال الإعجاز العلمي أو مجال التاريخ والتراث، بما يخدم منهج الوعي الإسلامي وتوحيد الأمة ومعالجة عللها وأمراضها المزمنة، وفي فهم واستشراف مستقبلها أو آثارها التي تركتها للنظر والفهم والتذكرة.

قال تعالى: **﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق..﴾**[3].

قال تعالى: **﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين.﴾** [4].

كتب الله ذلك في ميزان حسناته.. وأثابه عن هذا الجهد المبارك خير الثواب.

الدكتور أنيس مالك الراوي

رئيس جماعة الإعجاز العلمي

في

معهد الشرق وجمعية الشبان المسلمين/ بغداد

٣/ ٨/ ٢٠٠١م

---

[2] سورة فصلت/ ٥٣.

[3] سورة العنكبوت/ ٢٠.

[4] سورة الأنعام/ ١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم

حتى يتبين لهم أنه الحق.

أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.

سورة فصلت/ ٥٣

المقدمة

لكل عصر لغة خاصة به، ويبدو أن لغة عصرنا الحاضر هي لغة العلم المادي والاكتشافات العلمية والتكنولوجية، والتطور الهائل الذي شهده العصر الحديث في ميادين الفيزياء والكيمياء والبايولوجيا والتقنيات المختلفة في عالم الحاسبات والاتصالات والانترنت وغيرها، مما أبهر العقول بقدرة الإنسان غير المحدودة التي وهبها الله له وعلمه ما لم يعلم. ومن هنا تأتي أهمية موضوع الإعجاز العلمي ودوره الدعوي والإيماني في عصر ساد فيه أثر العلوم المعاصرة في ميادين الطب والفلك والآثار والتكنولوجيا والحاسبات والأتمتة الحديثة. والقرآن الكريم –كما نعلم– ليس كتاب علم أو طب أو فلك أو غيرها من العلوم والمعارف التي طورها الإنسان عبر تاريخه الطويل، بل هو كتاب نور وهداية ودستور للحياة، ليحكمها بمنهج الله سبحانه، ولكن المتأمل فيه والمتدبر لآياته سيجد فيه إشارات علمية غير قليلة، وتلميحات واضحة الدلالة حول العلوم المشار إليها آنفاً، وذلك لأن القران الكريم – بكل بساطة– هو كتاب الله المقروء، والكون هو كتابه المنظور، ولا بد أن يتطابق كونه المنظور مع كونه المقروء، دون أي تعارض أو تباين، بالنسبة للمؤمنين بالخالق الواحد بديع السماوات والأرض.

إن هذا الكتاب يتكلم عن الإعجاز العلمي في القران الكريم والسنة النبوية، من خلال خمسة محاور رئيسية تدور حول، مختارات من الإعجاز العلمي في القران والسنة، في المواضيع الطبية والفلكية والطبيعية الأخرى، وبشارات الكتب المقدسة السابقة بظهور نبي الإسلام، مما يسلط الضوء على تفرد القرآن الكريم بالهيمنة والتفوق المطلق على الكتب السماوية الأخرى، بما أصابها من تحريف وتزوير وأخطاء دخلتها، بسبب تدخل يد النساخ وتحريفها للكلم عن مواضعه، كما أقر بتلك الحقيقة العلماء والباحثين، سواء المسلمين أو علماء اللاهوت والتوراة أنفسهم، وهذا ما سيجده القارئ واضحاً ومسطوراً في ثنايا الكتاب، في العديد من البشارات التي وردت في التوراة والإنجيل رغم التحريف الذي لحق بهما. كما يتضمن الكتاب سياحة في دلائل النبوة في القرآن والسنة، والملامح المعجزة في شخصية نبي الإسلام وأثر النبوة والوحي فيها، بما لا يقبل الجدل في صدق نبوته وإعجاز الكتاب المنزل على صدره، وإعجاز كلامه حديثه الشريف، وهي تعرب عن مختلف الحقائق والمعارف

الكونية والطبية والغيبية والتشريعية، بنظم وعجزٍ وكلام محكم، بعد أن أعطاه الله قدرة التعبير والنصح والهداية وجوامع الكلم إيجازاً وفصاحة وعلم دقيق منقطع النظير. وهكذا سيجد القارئ تلك المحاور الاعجازية الرئيسية منثورة في الكتاب، بنسق جديد وثوب معاصر وأمثلة حديثة، في ضوء منهج الإعجاز العلمي وضوابطه وأصوله المعروفة. ويعرج الكتاب على محور التعصب الأوربي تجاه الشرق والعالم العربي، بعد أن أصبح اتهام الإسلام بالتخلف واللاعلمية واللاموضوعية وتبني العنف والإرهاب من أبجديات الثقافة المعادية للإسلام واتهامه بكل الصفات المذمومة، والتي لا تتفق مع العلم والحق في شيء، ليكون هذا المحور أحد الأدلة على أن تهمة التعصب والتطرف التي وصم بها الإسلام، ما هي إلا صفة ملاصقة لتاريخ خصومه ومتهميه، لا سيما في أوربا والغرب عموما. وأخيراً ومسك الختام يحاول المؤلف أن يجعل القارئ الكريم يعيش لحظات هانئة مع تأملاته في رحاب الحج والعمرة، وآثار تراث الأنبياء الخالد، ومعرجاً على مهد الرسالة –بعجالة– تتسق مع الفقرات السابقة التي تحدثت عن قصص الأنبياء والإعجاز الآثاري، مقارنة بينها وبين ما ورد في التوراة حول تراث الأنبياء، ومحتكماً إلى العلم الحديث للوقوف على الأخطاء التاريخية واللغوية التي وقع فيها النص التوراتي. إن الإعجاز الآثاري يعد أحد محاور الإعجاز الرئيسية في إثبات ربانية النص القرآني، لاسيما تلك الآثار الخالدة التي نلمسها ونجدها شاخصة في المشرق العربي مهد الأنبياء وتراثهم. ويتحدث هذا المحور عن موطن الرسالة وجغرافية الأنبياء وتراثهم ومساجدهم المأثورة، لاسيما المساجد التي أشار إليها النبي ﷺ في حديث شد الرحال، وهي المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة والمسجد الأقصى في بيت المقدس، وغيرها من مواضيع الإعجاز العلمي المهمة. وهي مواضيع علمية إيمانية شيقة مطروحة بأسلوب معاصر مبسط، وفق منهج تأصيل الإعجاز العلمي وأسلمة العلوم، وضوابطه الشرعية. والكتاب يعد آخر حلقة في سلسلة كتب المؤلف حول موضوع الإعجاز العلمي التي جاوزت عشرة عناوين، والتي ابتدأت بكتاب الظاهرة القرآنية والعقل ثم النبوة والإعجاز في القران والسنة ثم تراث الأنبياء بين العلم والقران والتوراة والوصايا الخالدة في القرآن.

نسأل الله أن يوفقنا لخدمة دينه الحنيف، وأن يكون هذا الكتاب ثمرة طيبة في ميدان الإعجاز العلمي، والنص القرآني وصلته بالعلوم المعاصرة.

الفصل الأول

الإعجاز العلمي

في القرآن والسنة

القران والعلم الحديث

قال تعالى: ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾[٥]

نزل القران في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا القليل النادر، وكان الناس في جهل وفقر للمعرفة وتفكير خرافي عام يطغي عليه السحر والشعوذة والأساطير وكانوا يرون أن مياه الأمطار تقذفها السماء من بحارها السحرية، وأن الأرض مستوية لا نهاية لحدودها، وأن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء، أو أنها قناديل معلقة في الفضاء وكان الهنود قديماً يعتقدون بأن الأرض محمولة على أحد قرني البقرة الأم أو قرني ثور كبير، وحين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى أخر يحدث زلزال على الأرض وكان اليونان والأوربيون عموماً يعتقدون أن سبب الأمراض والأوبئة هو نزول الأرواح الشريرة وكان السحر والكهانة والشعوذة غالباً على الدين الحق في معظم بقاع العالم الحديث. وهكذا نجد أن التقدم العلمي قد بدأ يزدهر منذ فجر الإسلام وولادة عصر النور وحضارة القران في العصور الإسلامية ثم أخيراً عصر النهضة الأوربية الحديثة، وتقدم العلم رويدا رويداً إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان فكشف عن أسرار كثيرة، واليوم لا نجد جزءاً من معلوماتنا عن أجزاء الجسم وشعب العلم المختلفة إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلياً، وثبت بطلان عقائد ونظريات العصر القديم.

وذلك يدل على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كلياً. لأن الإنسان عادة يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره، ويسرد ما هو موجود في زمنه سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور، ولذلك لا تجد كتاباً مضى عليه حيناً من الدهر، إلا وهو مملوء بالأخطاء من سائر نواحيه، نظراً إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

ولكن مسألة القران الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية فهو حق صادق في كل ما قاله، كما كان في القرون الغابرة ولم يطرأ على ما قاله أي تغيير رغم مضي قرون وعصور طويلة وهذا في نفسه دليل على أن منبعه ذات علمية تحيط بالأزل والأبد علماً، وتعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقة، وهو الله

---

[٥] سورة طه/١١٤.

ﷺ الذي لا يخضع علمه لحواجز الزمان والمكان والأحوال، ولو كان هذا الكلام صادراً عن بشر محدودي النظر والعلم لكان الزمان أبطله منذ عصور عديدة، كما يحدث لكل كلام بشري في مستقبله..

إن المحور الحقيقي لرسالة القران هي السعادة الأخروية فهو بذلك لا يدخل في دائرة أي من علومنا وفنوننا الحديثة ولكن حيث أن القران يخاطب الإنسان في حقيقة الأمر فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان وتلك مسألة دقيقة وخطيرة، إذ أن المرء حين يكون جاهلاً أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة ولو إجمالاً فلا بد أن يكبو في حديثه، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق.

ولكن من المدهش حقاً كما أكده الكتاب الغربيون قبل المسلمون أن القرآن لا يحتوي كلمة ما اثبت العلم فيما بعد، إنها من صنع رجل لا علم له بذلك الموضوع. حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى، وهذا يوضح صراحة أنه كلام عالم الغيب والشهادة، ممن هو على معرفة تامة بكل شيء على حين لم يكن أحد يعلم شيء.

ومما سيأتي في حلقات الإعجاز العلمي القادمة سنرى أمثلة عديدة تدل صراحة على أن القران الكريم يحيط بالحقائق التي لم تعرف إلا في عصرنا هذا، وفي فروع العلم كافة، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مباشرة وغير مقصودة لذاتها أحياناً. وهذا النوع من الآيات ذات الإشارة إلى الإعجاز العلمي جعل المفسرين الأقدمين أحياناً يبقون متحيرين أمام المعاني التي لم يكن باستطاعتهم فهمها إلا في عصرنا الحديث. كما في الأرض والشمس والجبال وانكسار ضوء الشمس ومراحل النمو الجنيني وتفسير العلقة والمضغة على سبيل المثال لا الحصر مما جعلهم يبتعدون عن الصواب والتفسير الصحيح أما الآن فقد تهيأت أجواء وفرص علمية مناسبة لمعرفة أن ما في القران من علوم وأخبار تتوافق مع معطيات العلم الحديث وحقائقه الثابتة وفي نفس الوقت خالية من الأساطير التي كانت منتشرة في عصر تنزيله، وذاك هو باختصار ما يعرف اليوم بالأعجاز العلمي.

ولقد كتب الكثير من الكتاب المعاصرين في هذا الموضوع خلال العقود الأخيرة، بحيث أصبحنا بفضل تلك الجهود أمام موسوعة ضخمة حول هذا الموضوع، ومن الطبيعي أن نرى أن من بين هؤلاء الكتاب من أجاد وأبدع ومن تطرف أو تعسف في التفسير تحت مختلف الدوافع ولذلك ينبغي الأخذ بنظر

الاعتبار النقاط والملاحظات التالية قبل الولوج في هذا النوع من الإعجاز القرآني بغية تجنب الأخطاء التي وقع بها من قد سلف، أو الأحكام المتطرفة بين رافض له دون مبرر وبين مسهب فيه بغير ضابط أو أساس من اللغة والعلم والمنطق، فجعل البعض هذا السلاح الذي لا يرد لإثبات وإظهار المعجزة القرآنية سلاحاً مضاداً، يمكـ ن أن يستخدمه الأعداء للتوهين من أهمية هذا اللون من ألوان الإعجاز وإلغاء دوره، بسبب بعض التفسيرات المتعسفة والمتطرفة والظنية للآيات القرآنية ذات الطابع الحسي، ويمكن تلخيص هذه الملاحظات في ما يأتي:-

١. أن القران هو دستور الإسلام، وكتاب الله المعجز، الكتاب الذي تحدى به الله ﷻ الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. أو أن يأتوا بعشر سور بل سورة من مثله، فبهت العرب جميعاً وهم أهل البلاغة والفصاحة، أمام بلاغته المعجزة.

٢. انه الكتاب الخالد إلى يوم القيامة: **﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم ﴾**[٦] الذي تعهد الله بحفظه من عبث العابثين: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[٧] . وهو الكتاب الذي فيه ذكرنا أي شرفنا وعزنا:

﴿ ولقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعلقون ﴾[٨]

أن القران الكريم لم ينزل على قلب الرحمة المهداة ﷺ ليكون كتاباً في الطب أو الفلك أو العلوم الطبيعية أو غيرها من العلوم، ولكنه أنزل كتاب هداية ونور ورحمة ليخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم به سبل السلام والصراط المستقيم. قال تعالى: **﴿الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾**[٩] .

---

[٦] سورة فصلت/ ٤٢.

[٧] سورة الحجر/ ٩.

[٨] سورة الأنبياء/١٠.

[٩] سورة إبراهيم/١.

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم.﴾ [10].

أن القران نزل خاتماً للكتب السماوية مصدقاً لما قبله ومهيمناً عليه ونزل على خاتم الأنبياء ليكون خاتم الشرائع: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب مهيمناً عليه﴾**[11]. فدين الله واحد، ورسالته واحدة إلى الناس، وهي رسالة التوحيد والعبودية لله، والقران هو النسخة الأصلية والصحيحة المنزهة عن التحريف والمهيمنة على الكتب السماوية السابقة، التي نالها التبديل والتغيير والتحريف لأنها أوكلت إلى الناس لحفظها، فقصر في حفظها والمحافظة عليها من البشر فيما مضى فجاء القران ليمثل الرسالة الخالدة إلى يوم الدين.

٣. وأمة القران العاملة به، تكون شاهدة على الناس ويكون الرسول شاهداً عليها: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[12].

٤. أما الخطاب القرآني فقد تميز بملامح عديدة أهمها:

أ- أنه خطاب الله الخالق لعباده في كل مكان وفي كل زمان.

ب- أنه خطاب موجه أصلاً إلى العربي والبدوي البسيط في الجزيرة العربية فهو يتحدث بمفردات سهلة يمكن للبدوي البسيط فهمهما واستيعابها ويؤهله للإيمان بالرسالة وحملها إلى العالم من حولها.

جـ- أنه يتحدث إلى الإنسان على الأرض باعتبارها المحيط الحيوي لنشاطه وخلافته ورسالته، مشيراً إلى دوره وتكريمه وتسخيرها له، باعتبارها الأرض المسخرة والمعدة له ولكل ما يحتاجه في مسيرته الطويلة.

د- أنه خطاب الله العليم الحكيم الخالق البارئ البديع البصير السميع إلى البشر بكل صنوفهم، عامة وعلماء وحكماء وحكام وأغنياء وفقراء، وبساط، مختصين وغير مختصين، ويفهمه الجميع دون لبس، وهو يخاطب عقولهم وأرواحهم ونفوسهم وفطرتهم، خطاب الحكيم اللطيف الخبير، فيدرك الجميع

---

[10] سورة المائدة/ ١٥-١٦.

[11] سورة المائدة/ ٤٨.

[12] سورة البقرة/ ١٤٣.

ما يرمي إليه فتستجيب بعض النفوس وتنفر أخرى، نفور الهائجة من المصيدة: ﴿ كأنهم حمر مستنفرة، فرّت من قسورة ﴾[13].

والخلاصة من ذلك، أن القران كتاب هداية، ومجاله النفس الإنسانية والحياة البشرية، وأن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم طاقاته، ومن بينها طاقته العقلية.

فإذا ما تحدث القران عن آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، فإن ذلك لا يجعله كتاباً حاوياً لجميع ا لعلوم، كما أدعى البعض من الحريصين على الإسلام، وإذا ما ورد في القران بعض التصريحات أو التلميحات العلمية، فذلك لا يجعله كتاباً في علم الفلك أو الطب أو غيرهما كما يحاول بعض المتحمسين أن يسهبوا في متابعة ذلك، أو كما يحاول بعض الحاقدين أن يلتمسوا فيه مخالفته لتلك العلوم البشرية.

لذلك فإن من الأسس الصحيحة التي ينبغي مراعاتها في التفسير العلمي هي عدم التكلف المخل في تأويل الآيات الكريمة، وعدم تعليق الحقائق القرآنية النهائية (القاطعة والمطلقة) بفروض العقل البشري ونظرياته، وذلك لأن الحقائق العلمية لا يمكن أن تتقاطع مع الحقائق القرآنية بخلاف الفرضيات والنظريات التي من سماتها البارزة أنها ظنية، وعرضةً للتغير تبعاً للتطور العلمي وتكامل المعرفة البشرية.

إن محاولات التأويل المتكلف دون التحصن بضوابط اللغة والعلم ومحاولة تعليق المفهوم القرآني الواضح بالفروض والنظريات العلمية الظنية، تنطوي على معان عديدة منها الهزيمة الداخلية أمام العلم المادي الحديث فتخيل البعض أن العلم هو المهيمن والقران تابع له، وهم يحاولون تثبيت القران بالعلم، في حين أن القران هو كتاب الله المقروء والكون كتاب الله المنظور، وأن التعارض بينهما محال لأنهما يعبران في النهاية عن حقيقة واحدة، والقران فوق ذلك كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقائقه، والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس. كما أن ذلك المنهج يعبر عن سوء فهم لطبيعة القران، ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان.. حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه

---

[13] سورة المدثر/ ٥٠– ٥١.

ويعرف بعض أسراره ويستخدم نواميسه في خلافته، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليستلم المعلومات المادية جاهزة.

ومع ذلك يجب أن لا ننسى في خضم نقد التكلف في التأويل غير الدقيق، أن في القران الكريم الكثير من الآيات العلمية التي سبقت العلم بأربعة عشر قرناً من الزمان، كما سنلمس لاحقاً إنشاء الله- مما زاد المؤمنين إيماناً ويقيناً وخشوعاً وتدبراً للقران. ودفع كذلك أناساً من غير المسلمين إلى اعتناق الإسلام أمثال:

ليو بولد فايس (الهولندي) وروجيه غارودي وموريس بوكاي (الفرنسيان) واللورد هدلي (الإنكليزي) وغيرهم كثير، وذلك مصداق للآية الكريمة:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[١٤].

---

[١٤] سورة فصلت/ ٥٣.

التقويم الشمسي والتقويم القمري

لقد أعتاد العرب خاصة والساميون عامة منذ القدم على اعتماد التقويم القمري في تحديد أيامهم وأشهرهم وفصولهم خلال السنة القمرية والتي تتمثل بدوران القمر حول الأرض اثنتا عشر مرة أو مراقبة منازل القمر شهرياً منذ ميلاده هلالاً ثم تربيعاً ثم بدراً ثم تربيعاً ثانياً وأخيراً يدخل في مرحلة المحاق قبل اختفائه ليولد من جديد، وتستغرق هذه المراحل في الشهر القمري بين ٢٩-٣٠ يوماً والذي يؤكد أن بقية الأقوام السامية ومن بينهم يهود المدينة أنهم كانوا يستخدمون التقويم القمري، وأن اليهود كانوا يصومون يوم العاشر من محرم لأنه ذكرى نجاة موسى عليه السلام وقومه من فرعون وجنوده وفيها انشقاق البحر وعبور موسى وهلاك فرعون وجنوده، كما هو مذكور في القران والتوراة، أما في أثار وأدبيات ومدونات باقي الأقوام السامية كالبابليين والآشوريين والفينيقيين والكنعانيين والسبأيين والحميريين وغيرهم من الشعوب القديمة، فقد كانوا يستعملون النظام القمري وكانوا يضيفون شهر كل فترة زمنية قد تحدد بربع قرن أو أقل من ذلك تقدم علم الفلك عند تلك الشعوب أما أشهر التقويم القمري فهي المحرم -صفر- ربيع الأول- ربيع الثاني-جمادي الأولى- جمادي الآخرة - رجب- شعبان- رمضان- شوال- ذي القعدة - ذي الحجة.

ويبدو من أسماء هذه الأشهر العربية القمرية، أنها كانت في القديم ثابتة لا تدور مع مواسم وفصول السنة، ومما يؤيد هذا التفسير معاني بعض الأشهر، فرمضان يعني الرمضاء وشدة الحر مشيراً إلى فصل الصيف، وكذلك ربيع الأول والثاني تشير إلى فصل الربيع، وكذلك بالنسبة لجمادي الأولى والثانية تشير إلى الانجماد في الشتاء، ورغم حدوث تغيير في مواقعها وفي عدد أيامها أيضاً، وهذا الاستنساخ يحتاج إلى البحث والتقصي للتأكد منه، وحينما جاء الإسلام أقر هذا التقويم وأتخذه الرسول الكريم ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده تقويماً إسلامياً، جعله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبتدأ بالهجرة النبوية المباركة فكانت سنة الهجرة أول سنيه والشهر المحرم أول شهور السنة الهجرية، وهكذا سار المسلمون على ذلك التقويم الإسلامي في تحديد المناسبات والأعياد، وفي القران الكريم إشارة في سورة الكهف -كما سنذكره أدناه- إلى جواز استخدام التقويم الشمسي، مع إعطاء الأولوية والأفضلية للتقويم القمري باعتباره تقويماً إسلامياً شرعياً معتمدا.

أما التقويم الشمسي ويسمى أيضاً التقويم الميلادي المسيحي فليس له علاقة

بمراقبة الأجرام أو الأقمار أو النجوم الفلكية وإنما هو حساب نظري للمدة التي تدور فيها الأرض حول الشمس أو حساب عودة أي يوم من السنة إلى بدايته مرة أخرى وعدد أيام السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً مع إضافة يوم السنة الكبيسة كل أربع سنوات وذلك لضمان ثبات التقويم الشمسي بالنسبة إلى الفصول الأربعة وأشهر التقويم الشمسي الاثنا عشر هي: كانون الثاني-شباط-آذار-نيسان-مايس-حزيران-تموز-آب- أيلول-تشرين أول-تشرين الثاني- كانون أول.

وعدد أيام الأشهر بين ٣٠-٣١ يوماً عدا شهر شباط الذي يكون ٢٨ يوماً ويضاف له يوم آخر في السنة الكبيسة.

وربما نجد البعض ينتقد التقويم القمري ومنهجه في حساب الزمن باعتباره قديم بالغ القدم وغير عملي ولا علمي (حسب ظنهم) بالمقارنة مع المنهج المتبع الآن عالمياً والذي يعتمد على دوران الأرض حول الشمس والذي يعرف حالياً بتقويم جوليان السنوي ولرد هذا النقد أو الفهم الخاص نورد الملاحظات الآتية:

١. توجه القران منذ أربعة عشر شهراً تقريباً إلى سكان شبه الجزيرة العربية الذي كانوا يستخدمون الحساب القمري للزمن. إذن فقد كان من المناسب مخاطبتهم بالخطاب الوحيد الذي كانوا يستطيعون فهمه، وإلا تبلبلت عادتهم في اتخاذ الإشارات المكانية والزمانية، فقد كانت عادة فعالة تماماً، فمن المعروف أن سكان الصحراء خبيرون بتمرس السماء، وفي الاستدلال بالنجوم وتحديد الزمن على حسب مراحل القمر وقد كانت كل هذه المفردات هي أبسط الوسائل وأكثرها فاعلية بالنسبة لهم.

٢. لقد أختار الله ﷻ الإنسان على هذه الأرض عدد الشهور، أثنا عشر وأختار منها أربعة حرم وفق التقويم القمري رجب، ذي القعدة، ذي الحجة محرم، وهذه هي أشهر السلام وتحريم القتل والدم والظلم والاعتداء منذ عهد إبراهيم عليه السلام وأخذها عنهم العرب الحنفاء من نبيهم إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وأخذها عنهم بقية، ويعبر القران الكريم عن ذلك وعن أهمية التقويم القمري وأن هذا النظام في عدة الشهور قد جعلها الله ﷻ أحد أسس النظام الكوني والأرضي الذي تكون الأرض محط أنظار العناية الإلهية لاستقبال الإنسان وخلافته على الأرض قال

تعالى: ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم﴾[15].

3. أن من المعروف بأن التقويم الشمسي يحتاج إلى تصحيح كل أربع سنوات وهو مما يعرف بالسنوات الكبيسة، أما في التقويم القمري فهو لا يحتاج إلى تصحيح إلا كل ١٩ سنة حيث يتم التصحيح مرة واحدة.
4. أن التقويم القمري واضح لمن يريد مراقبته، وبذلك فهو يشد الإنسان إلى الكون ونظامه ومراحل القمر في السماء في حين أن التقويم الشمسي ليس فيه شيء من ذلك، فهو حساب رياضي يتابع ذهنياً فحسب باستثناء المتخصصين في مجال الفلك.
5. أن دوران المناسبات والأعياد الدينية وعدم ثباتها مع مرور السنين ودورانها على كافة الفصول يضفي عليها طابع الحركة وعدم الجمود وينسجم مع الفطرة وميول النفس الإنسانية.
6. هنالك إشارة في القران الكريم وهي مع ما بها من أعجازٍ وتعبير عن العلم الإلهي اللامحدود تشير إلى العلاقة الفلكية بين التقويم القمري والشمسي وبشكل ظل مبهماً في وقت نزول الآية، من عصر النبوة حيث أنه عندما سأل اليهود عن فترة نوم أهل الكهف أجاب القرآن الكريم: ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾[16] فتحير اليهود من هذه التسعة الزائدة حيث أن المثبت عندهم هو ٣٠٠ سنة فقط، فلما أنكروا هذه التسعة الزائدة وسألوا عنها، أجابهم القرآن: ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا﴾ [17] وأغلق الجدل وقتها فيما بين المسلمين واليهود، ونحن نعلم الآن بحساب الفرق بين التقويمين أن ثلاثة مائة سنة شمسية تعادل بالضبط ٣٠٩ سنة قمرية، ويمكن أن يستنتج هذه الإشارة القرآنية البليغة والمعجزة، أنه في حالات الضرورة يمكن استخدام التقويم الشمسي ولا سيما مع من يستخدم ذلك التقويم كاليهود والنصارى وغيرهم، مع العلم بأن التقويم الإسلامي الموجب الإتباع والتطبيق شرعاً.

---

[15] سورة التوبة/ ٣٦.

[16] سورة الكهف/ ٢٥.

[17] سورة الكهف/ ٢٦

٧. يتصف التقويم القمري الهجري بأنه تقويم واحد لم يختلف المسلمون على بدايته أو نهايته أو أشهره الحرم وغير الحرم أو كيفية مراقبة مطالعه ومخارجه وتحديد عدد أيام أشهره وفق الأصول الشرعية ويثبتون شهادتهم أمام القاضي باعتبار أن تحديد بداية الشهر القمري مسألة شرعية وليست فلكية فحسب في حين أن الأشهر الشمسية ثابتة وجامدة لا تحتاج إلى جهد أو متابعة أو شهادة أو غيرها، كما تعددت التقاويم الشمسية باختلاف المذاهب والأديان والملل، فهناك التقويم الميلادي الغربي، وهناك تقويم الكنيسة الشرقية وهناك التقويم الشمسي المجوسي وهكذا.

ويعلم ما في الأرحام

قال تعالى: **﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾**[١٨].

مما شاع عند كثير من الناس أن هناك مغيبات أستأثر الله ﷻ بعلمها، ولا يعلمها غيره، في حين استطاع العلم التطبيقي الحديث معرفة بعضها بل والتحكم بها قبل حدوثها بتوجيهها باتجاه محدد معين، كالتحكم بنوعٍ الجنين.. ذكر أم أنثى، وذلك قبل اختلاط النطف في الأرحام، وقام بخلطها صناعياً بما يؤدي إلى أحد الاتجاهين، كما استطاع العلم التطبيقي الحديث إنزال المطر الصناعي.. فتوهم البعض بأن هناك تناقض بين هذه النصوص والعلم بسبب التعارض الظاهري بين الآية أعلاه وما استطاع العلم الحديث القيام به من تسخير وكشف للقوى الكامنة في الطبيعة سواء في الآفاق أو الأنفس، فإنكار النص كفر، وإنكار الواقع الثابت يقيناً مكابرة وتخلف، لذلك قامت الحاجة إلى تفسير معاصر وعلمي وإلى التوفيق الذي يوضح التوافق الحق رغم ما يظهر من تعارض ظاهري وقد قال الغزالي ومن بعده الألوسي في هذه الموضوع، ما مختصره:

نحن مع الظواهر حتى يقوم الدليل القطعي على خلافها، وحينئذ نميل إلى التأويل وبابه الواسع، وإنما جاز تأويل النص (ظاهر المعنى) لأن الجمود على اعتقاد لمعنى المتبادر منه، ورفض ما يدل عليه الدليل العقلي القاطع، يقتضي هدم

---

[١٨] سورة لقمان/ ٣٤.

الأصل وهو (العقل) الذي ثبتت به رسالة الرسول ص المتكلم بتلك النصوص الشرعية. إذ لولا العقل لما وصلنا إلى الاستدلال على صدق دعوة الرسالة، فإذا هدم الأصل هدم الفرع لا محالة، وهكذا الحكم في كل نص (ظاهر المعنى) ناقضه الدليل العقلي القاطع. أما فيما يخص النظريات والفروض العلمية التي هي غير قطعية – كما نعلم– فإنه إذا كان الدليل الذي قام على ما يناقض ظاهر المعنى دليلاً (غير قطعي) فلا يسوغ تأويل النص وصرفه إلى معنى أخر. وكما هو معلوم أن هناك من النصوص ما هو (متعين المعنى) وقطعي الدلالة، فإن هذا النوع من نصوص القران لا يقبل التأويل وقد أستند العلماء في كل ذلك على إحدى أبرز خصائص التصور الإسلامي وهي أنه ليس هناك من القران والسنة الصحيحة ما يناقض العقل ونتاج العلمي الدقيق، فجاز لذلك في الشريعة الإسلامية، تأويل النص (ظاهر المعنى) وعدم جواز تأويل النص (متعين المعنى) وسنرى أن علم ما في الأرحام ظاهر المعنى ويمكن صرفه إلى عدة وجوه يقبلها العقل والعلم والدين.

ماذا يقول السلف الصالح من المفسرين في تفسير الآية..

جاء، في تفسير الخازن: ﴿ **ويعلم ما في الأرحام** ﴾[١٩] أذكر أم أنثى، أحمر أم أسود تام الخلقة أم ناقص..

وجاء في تفسير النسفي: ﴿ **ويعلم ما في الأرحام** ﴾ ذكر أم أنثى تام أم ناقص؟ وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال..

وقال ابن كثير في تفسيره: وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه.. ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أم أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء من خلقه.

هذه نماذج من أقوال السلف الصالح، فمن أين جاء الذين قالوا إن هذا العلم هو مما أستأثر به الله تعالى؟ وإن من أدعى بأنه يستطيع تشخيص جنس الجنين قبل ولادته فقد كفر؟..

وإذا رجعنا إلى تفسير الآية بما يفسرها من الآيات القرآنية الأخرى ثم الأحاديث النبوية الصحيحة ثم أقوال الصحابة والسلف الصالح، نقرأ قوله تعالى: ﴿الله

---

[١٩] سورة لقمان/ ٣٤.

يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام، وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[٢٠].

إننا نفهم من هذه الآية ما يأتي:-

١. أن علم الأرحام عالم شامل لكل أنثى من البشر والمخلوقات الأخرى.. وأن هذا العلم بهذا الشمول لا يمكن أن يحيط به أحد إلا الله تعالى.. فهو -إذن- في شموليته علم إلهي أستأثر به الله تعالى لنفسه.

٢. إن علم ما في الأرحام لا يتعلق بالجنس فقط ولكن بكل الصفات الخلقية كالكون والجمال والطول والقصر والذكاء، والمواصفات الجينية الكثيرة، وكذلك كل الأقدار التي ستكون من شقاء أو سعادة أو حوادث أو مستقبل وهذا ما تعنيه كلمة (ما) في الآيتين السابقتين **﴿ويعلم ما في الأرحام﴾** و **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾** وقوله تعالى في تقدير صفات وأقدار الجنين **﴿من نطفة خلقه فقدره﴾**[٢١]. وإن استخدام (ما) لغير العاقل يدل على تلك المعاني بخلاف كلمة من التي تستخدم للعاقل فتفسير علم الأرحام الإلهي لا ينصرف إلى معرفة ذات الجنين من ذكورةٍ أو أنوثة وإنما ينصرف بشموله إلى جميع الصفات والأقدار التي ستكون واقعاً بعد ولادته بإذن الله تعالى وعلمه.

   كما يؤكد الرسول ﷺ ذلك المعنى بقوله: أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد[٢٢].

   فشمولية (ما) هذه لا يمكن أن يحيط بها أحد غير الله تعالى، وهي من العلم الذي أستأثر به الله تعالى لنفسه.

٣. حتى فيما يخص الذكورة والأنوثة تلك الصفة التي تتبادر للذهن أول وهلة عند المرور على هذه الآيات الكريمة فإنه من المستحيل على أحد من خلق الله أن يعلم في كل لحظة أجناس كل أجنة المخلوقات والأحياء عموماً..

---

[٢٠] سورة الرعد/ ٨.

[٢١] سورة عبس/ ١٩.

[٢٢] رواه البخاري ومسلم.

وهكذا فإن مسالة الذكورة والأنوثة بشموليتها هذه علم أستأثر به الله تعالى لنفسه، وهو علم البديع المصور الخالق لما أبدع وصور وخلق من خلق جديد في كونه الفسيح، فسبحان الله الخلاق العظيم..

قال تعالى: **﴿لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً . أنه عليم قدير﴾** [٢٣].

٤. ويشير مقطع الآية **﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾** إلى أن علم ما في الأرحام لا يقتصر فقط على الذكورة والأنوثة، بل هو أشمل وأوسع بكثير وأن كل عمل الرحم الحامل وغير الحامل أيضاً يندرج تحت هذه الآية الكريمة.. وأنه علم مستحيل على البشر وغاية ما نستطيع أن نعلمه أن الرحم يغيض ويزداد، ولكن ماذا يغيض وماذا يزداد في كل لحظة، فهذا هو العلم المتعذر معرفته مهما تطور العلم والطب.

غاية معرفتنا العلمية أننا ندرس آثار هذه التبادلات على الجنين (أي ما يطرح من الجنين أو يزداد عبر المشيمة داخل الرحم) فندرك بما آتانا الله من علم، إن هذا الجنين بخير وإن ذلك الجنين بحالة خطرة، لأن عملية الغيض والازدياد هذه قد حصل لها ما يعيقها في سياق الحمل فمرض لنقص أوكسجينه أو نقص غذائه أو ما سوى ذلك.. أما علم كمية ما يصل إلى الجنين وما يصدر عنه في كل لحظة وتعميم هذا العالم على كل أرحام المخلوقات فهو ما أستأثر به الله تعالى لنفسه.

٥. إن الله تعالى يشير بأعجاز إلى كل ما يجري في هذه الأرحام محسوب بدقة، وذلك بقوله تعالى: **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** [٢٤]وقد أصبح واضح بعد هذا التقدم العلمي ومعرفة بعض ما يجري داخل الأرحام أن أحداً لا يستطيع القيام بهذه الحسابات المعقدة والدقيقة لأي رحم من الأرحام.. فكيف بكل الأرحام.. والله وحده يستطيع ذلك لأنه خالق الرحم والجنين وما حوله.

---

[٢٣] سورة الشورى/ ٤٩-٥٠.

[٢٤] سورة الرعد/ ٨.

٦. أما قوله تعالى ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[٢٥] فيوحي لنا أن علم ما في الأرحام ليس محظوراً على البشرية وأنه لا مانع إطلاقاً من متابعة التطور العلمي حتى النهاية، فبعد أن أخبرنا الله تعالى بأن علمه ﷻ متعلق بكل أنثى من بشر وغيرهم، وبأن علمه ﷻ يتعلق بما تغيض الأرحام وما تزداد وهو ما يحيط بكل ما يجري في الأرحام من عمليات بايولوجية وكيمياوية وتحولات في الأنسجة والأعضاء، ذكر الله ﷻ أن كل شيء عنده بمقدار أي بحسبان وقدر وليس هكذا جزافاً ولا صدفة ولا فوضى بل وفق أسس جينية وراثية ومخططات محسوبة لها علاقة بالنسل والأجيال التي جاء منها ذلك الجنين سواء أكان إنسان أو حيوان ثم قال تعالى في نهاية الآية: ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾.

فقد أشار الله تعالى إلى الغيب والشهادة في سياق الكلام عن الأرحام وعلم ما في الأرحام، ليقول لنا أن هذا العلم وإن كان من العلوم الغيبية الخمسة في سورة لقمان/ آية ٣٤ والمشار إليها في البداية، فإن بعضاً منه متاح للبشر في عالم الشهادة، ليقوموا برعاية الحوامل ومخاضاتهم على الوجه الأسلم والأيسر، كجزء من تسخير العلم والطب لخدمة الإنسان، والحفاظ على نسله ليقوم بدوره في خلافة الأرض، وقد وردت الآثار على أن الله تعالى ييسر لبعض عباده ما يشاء من هذا العلم كما ذكر ابن كثير وغيره في تفسير هذه الآية الكريمة.

إن الإسلام يدعو المسلم إلى أن يفرح بالنظرية الجديدة أو الاكتشاف الجديد الذي يتحقق في الطب وغيره من فروع العلم المختلفة، لأننا على يقين أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم أو بين الكون المقروء (أي القران) وبين الكون المنظور لأن الحقائق في كليهما من الله الخالق، وإن هذا التعارض الظاهري يظهر في عقولنا أحياناً حين نعجز عن فهم النص أو في جعل الاحتمال والنظرية حقيقة مطلقة نحال أن نفسر النص على ضوئها.

إن الإنسان لا يلبث أن يكتشف إننا في أي اكتشاف علمي قد أضفنا أكثر بكثير لما نجهل فإن العلم قد دأب وهو يفتح باب في العلم وإذا به يفتح عشرة أبواب من المجاهيل والأسرار سواء في مجال الفلك وعالمه الواسع أو الذرة وعالمها الصغير أو الخلية في الأحياء وعالمه السحري المرصع بالأسرار والمجاهيل. إن عالمي الغيب والشهادة في الأرحام كغيره في العوالم الأخرى، كالليل والنهار، كلما لحق

---

[٢٥] سورة الرعد/ ٩.

النهار بالليل لحق بالنهار، وكلما زادت معلوماتنا ازدادت مجهولاتنا ولن يستطيع الإنسان مهما تطور أن يحضر علم الأرحام كله، من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ولن يزيد يوماً ما عن الإمساك بالمفتاح، وذلك لسبب بسيط هو أننا بشر وإننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً.

أما العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي هو على كل شيء قدير، والذي يحفظ عنده أسرار العلوم الكونية ويعطي منها ما يشاء من عباده حين يشاء فإنه جل وشأنه يتعالى ويتكبر على عباده وخاصة علمائهم حيث يصف نفسه ﷻ بأنه الكبير المتعال.

أنه تعالى يخاطب بها عباده جميعاً ولا سيما العلماء: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[٢٦] الذين يتوصلون بأسلوبهم العلمي إلى معرفة إن ما عند الله من العلم الذي جهلوه لا ينضب ولا ينتهي، العلماء الذين مهما كبروا في العلم والمعرفة يظلون صغاراً ولا يملكوا إلا أن يقولوا: **﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾**[٢٧] وثمة كلمة أخيرة يمكن أن نقولها إلى المسلمين عموماً لا سيما المشتغلين بالعلم والدعوة هي: إن الإسلام والعلم لا يمكن أن يختلفا أبداً، فإذا تراءى لأحد أي تباين ظاهر بينهما، فيجب أولاً أن نمحص القناعة التي جاء بها العلم الحديث، ثم لنمحص معلوماتنا بدقة عن دين الله، فسنجد حينئذ الوفاق التام الذي لا يمكن أن ينفصم، وهل تحصل هذه الاكتشافات العلمية إلا بأذن الله تعالى وتقديره..؟. قال تعالى: **﴿شهد الله أن لا الله إلا هو والملائكة وألوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾** [٢٨].

وقال: **﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾**[٢٩].

---

[٢٦] سورة فاطر / ٢٨.

[٢٧] سورة البقرة/ ٣٢.

[٢٨] سورة آل عمران/ ١٨.

[٢٩] سورة سبأ/ ٦.

الطب النبوي

قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [٣٠].

وقال: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[٣١] لقد قام الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه المعروف (الطب النبوي) بجمع الأحاديث النبوية التي تهتم بالصحة الوقائية والعلاجية وقد ذكر في هذا الكتاب المئات من الأحاديث الطبية الصحيحة وجعلها في متناول الإنسان المسلم. كما قام الكثير من العلماء والكتاب الأقدمين والمعاصرين في الكتابة في هذا الموضوع ومتابعة النصائح النبوية الطبية، ومقارنتها مع المعارف الحديثة فوجدوا فيها التطابق والتوافق مع الأصول الطبية والضوابط الصحية، سواء في مجال الوقاية أم العلاج، وقد وجدنا من خلال الإطلاع على هذه المجاميع والأزاهير النبوية ما يدعو إلى الأركان الصحية التالية:-

- التأكيد على النظافة وأهميتها الصحية وجعلها رديفة الإيمان.
- الحث على التداوي والأخذ بالأسباب كما في قوله ﷺ: أن الله جعل لكل داء دواء، علمه من علمه وجهله من جهله، إلا السأم، (أي الموت) فتداووا ولا تداووا بحرام.
- التأكيد على مبدأ الوقاية خير من العلاج.
- ذم السحر والشعوذة والاستعانة بالجان والتنجيم كما في قوله ﷺ: كذب المنجمون ولو صدقوا.
- السماح بالرقية بالقران بقراء كلام الله على المريض بنية الدعاء دون تحديد للشخص الراقي وهيئة محددة لذلك، وإنما يستطيع أي مسلم عنده شيء من الصلاح والتقوى أن يرقي المريض ويقرأ ما تيسر له من القران للمريض.
- ذكر بعض الأطعمة المفيدة صحياً وعلاجياً كالعسل والحبة السوداء والثوم والبصل وغيرها.

ونذكر أدناه بعض الأحاديث والنصوص النبوية في موضوع الطب النبوي، وهي في حقيقتها لا تلغي دور الطبيب بل على العكس تؤكد دوره وأهميته في تشخيص الأمراض وعلاجها وتوجيه المريض لطرق العلاج الصحيحة وفق الإرشادات العلمية.

---

[٣٠] سورة الأنبياء/ ١٠٧.

[٣١] سورة النجم/ ٤-٥.

قال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [٣٢].

الأحاديث النبوية في الطب الوقائي

الأحاديث الواردة في النظافة والحث عليها كثيرة، ومنها:

قال رسول الله ﷺ: النظافة من الإيمان.

وقال: تنظفوا فإن الإسلام نظيف، وإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف وقال: إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل. وقال: حق الله على كل مسلم أن يغتسل في سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده.

وقوله ﷺ: إذا أستيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الأكل حتى يغسلها، فإنه لا يدري أين باتت يده. وقوله ﷺ: من أحب أن يكثر الله خير بيته فليتوضأ إذا حضر غذاؤه وإذا رفع.

وهذه الأحاديث واضحة المعنى في أهمية النظافة والتنظيف بالماء ودور كل ذلك في الصحة الوقائية للفرد والمجتمع المسلم.

وقاية الموارد

قال رسول الله ﷺ: لا تبولوا في الماء الراكد ثم تتوضؤا فيه.

وقال: اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، والظل، وقارعة الطريق.[٣٣]

ويدعو النبي ﷺ الناس إلى حفظ الماء والأكل من التلوث والتعرض للجو، وذلك بأن يحفظ الماء في أوانيه والأكل في أوعيته وهي أهم موارد الإنسان حيث يقول: خمروا الآنية وأوكثوا الأسقية. فلقد دعا ﷺ بهذا الحديث إلى تغطية أواني الأكل.. وإلى ربط فم قربة الماء، وذلك حرصاً على نظافتها، وعملاً على سلامتها، وبعداً بها من أي تلوث قد يصيبها لو تركت الأواني مكشوفة والأسقية مفتوحة وهذا ما وصل إليه وأكده علم الطب الوقائي أخيراً.

وقال أيضاً توكيداً لنفس هذا التوجيه النبوي الصحي:

---

[٣٢] سورة الحشر/ ٨

[٣٣] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم.

غطوا الإناء وأوكئوا السقاء فإنه في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء لم يغط ولا سقاء لم يول إلا وقع فيه ذلك الوباء.

أما غسل الإناء لا سيما الذي ولغ الكلب فيه، فيقول عنه ﷺ: إذا ولغ الكلب في أناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب.

وعدد السبعة المذكور هو لتحقيق تكرار الغسل مرات عديدة، وليس العدد مقصود لذاته تحديداً والله أعلم أما التراب فهو أقرب المواد المنظفة للإنسان وأيسرها وهي بلا مقابل، وذلك حتى لا يتأخر أي إنسان في غسل إنائه إذا ولغ فيه الكلب انتظارا لتوافر المنظف أو ما يشابهه.

ولا شك أن العلم الحديث قد أوضح أن لعاب الكلب يحمل من الميكروبات والجراثيم كميات لا تخطر على بال، ولعل ذلك يرجع إلى دوام شم الكلب لكل ما يعترضه على الأرض من طعام أو أشياء أخرى، لا سيما القمامة والفضلات بأشكالها وكذلك لدوام فتح فمه، وإخراج لسانه، فهو لا يغلق فمه أبداً مما يعرضه أكثر للميكروبات.. أما أخطر من ذلك كله فهو مرض الكلب، الذي ينقله الكلب للإنسان وهو أخطر الأمراض وأكثرها فتكاً بمن تصيبه وينتقل مرض الكلب عن طريق اللعاب سواء بواسطة العض أو بدونه، ولذلك فإن الوقاية من هذا المرض وغيره من الأمراض التي تنتقل عن طريق لعاب الكلب يمكن أن يتم بغسل كل ما يلعقه أو يقترب منه لعابه، غسلاً جيداً وهذا لا يتأتى إلا بتكرار الغسل، وباستعمال مطهر، وأرخصه وأكثره توافراً هو التراب، كما أن هناك رأي علمي يقول أيضاً أن هناك أنواع من الأتربة لها خاصية التغلب على بعض الميكروبات منها ميكروب داء الكلب، وذلك بتوليد مضادات حيوية تفتك بهذه الميكروبات كالبنسلين وأمثاله منها تراب المقابر.

الذباب ودوره في نقل الأمراض إلى الإنسان

أن الذباب هو ناقل جيد ووسط مهم في نقل العديد من الأمراض إلى الإنسان وهذا الشيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع، فهو ناقل جراثيم من النوع الممتاز، وهو ما لم يكن معروفاً قبل قرنين فقط وليس قبل أربعة عشر قرناً. حيث كان الناس يتصورون أن الأمراض تنتقل بواسطة الجن والأرواح الشريرة وتعتمد على ظاهرة السحر والشعوذة والكهنة والتنجيم الذي كان شائعاً في أوربا خلال العصور الوسطى، بينما حرم الإسلام تلك الأساليب ودعا إلى التداوي واستخدام الطب والأعشاب والأدوية المؤثرة على المرض والمعالجة له، كما يقول النبي ﷺ:

أن الله جعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بحرام.

ولذلك فإن الكشف عن دور الذباب في نقل الأمراض يعد من معجزات النبي ﷺ ويعطي تصور دقيق عن التوجيهات النبوية والطب النبوي الذي نحن بصدده.

قال رسول الله ﷺ: إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء[٣٤].

وقد حاول البعض جهلاً أو عمداً التشكيك في هذا الحديث، رغم أنه من الأحاديث الصحيحة المشهورة المعتمدة في كتب الحديث.

والحديث إضافة إلى أشارته إلى دور الذباب في العدوى وأنه ناقل للجراثيم من النوع الممتاز وهي حقيقة علمية وطبية أضحت معروفة لدينا اليوم، فإنه يشير إلى حقيقة علمية ثانية لا تقل أهمية عن الأولى، وهي أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم، وهي ما تسمى طبياً الآن المضادات الحيوية المعروفة والتي انتشرت خلال النصف الثاني من هذا القرن. فإشارة الحديث إلى الجراثيم وإلى مضاداتها الحيوية هي من المعجزات النبوية العلمية والطبية، التي ينبغي أن نقف أمامها بكل تواضع أعجاباً وإجلالاً لهذا الدين ونبيه الكريم الذي لا ينطق عن الهوى، وإنما يستمد علمه من الوحي الصادق ومن الغيب الذي أكرمه الله تعالى به.

أما الآلية التي يذكرها الحديث في غمس الذباب في السائل ثم طرحه، والتي استشكلها البعض جهلاً وعناداً أمام الاستسلام لهذا النبي العظيم وتوجيهاته الرشيدة،

---

[٣٤] رواه البخاري وأحمد وأبو داود.

فهو ما سنحاول أن نفصله لينجو من ينجو ويهلك من هلك عن بينة، وتطمئن النفس والفطرة إلى عظمة الإسلام وحكمته في كل تشريعاته وإرشاداته..

وهذا موجز لتحقيق كتبه الدكتور عز الدين جوالة حول هذا الموضوع ننقل منه ما يهمنا هنا:-

يقول الدكتور جوالة:

١. إن من المعروف أن بعض الحشرات والأحياء المؤذية يكون في سمها نفع ودواء كما في سم الحية والعقرب وغيرها، فقد يجتمع الضدان في حيوان واحد كما في النحل مثلاً، فلا عجب أنه يوجد في الذباب جراثيم خطرة ومضادات لهذه الجراثيم والميكروبات.

٢. إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأساً على عقب، فالبنسلين ومشتقاته أستخرج من العفن، والستربتومايسين من تراب المقابر.. الخ وحشرة الذباب ليست أكثر قذارة من هذه المواد المستقذرة فليس هناك ما يمنع أن يكون في الذباب طفيلي أو جرثوم يخرج منها أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذي تحمله؟.

وبعد هذا الكلام للدكتور عز الدين يستمر في تحقيقه حول الموضوع فينقل تحقيقاً للطبيبين محمود كمال ومحمد عبد المنعم في إثبات الحقائق العلمية التي وردت في الحديث الشريف، فيذكر نقلاً عنهما:- يقولان: في سنة ١٨٩١ وجد العالم (بريفلد) الألماني من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس فطر (أميتوزا) وهو يعيش في جسم الذبابة على الدوام، ويقضي حياته في الطبقة الدهنية في بطن الذبابة، بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة، ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة. ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلي لهذا الفطر، وفي هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية فيزداد الضغط الداخلي للخلية من جراء ذلك، حتى إذا وصل الضغط إلى قوة معينة لا يحتملها جدار الخلية انفجرت الخلية وانطلقت البذور إلى خارجها بقوة دفع شديدة، تدفع البذور إلى مسافة ٢ سم خارج الخلية على هيئة رشاش مصحوب بالسائل الخلوي فإذا أمعنا النظر في ذبابة ميتة متروكة على الزجاج نشاهد مجالاً من بذور هذا الفطر حول الذبابة المذكورة.

وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة لتؤكد ما ذهب إليه (بريفلد) ومبينة

خصائص عجيبة لهذا الفطر الذي يعيش في بطن الذبابة، ومن تلك الخصائص:-

١. في سنة ١٩٤٥ أعلن أستاذ علم الفطريات (لابخرون) إن هذا الفطر الذي يعيش دوماً في بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة (أي أنزيم) قوية تحلل وتذيب بعض أجزاء الحشرة الحاملة للميكروبات.

٢. وفي سنة ١٩٤٨ تمكن عدد من العلماء وهم (بريان وكوريتس وهيمونغ وجيفري وماكجوان) من بريطانيا من عزل مادة دوائية (مضاد حيوي) أسموها (كولتيزين) وقد عزلوها عن فطريات تنتمي إلى نفس فصيلة الفطريات التي تعيش في الذبابة وتؤثر في جراثيم جرام السالبة (كالتيفوئيد والديزنتريا).

٣. وفي سنة ١٩٤٩ تمكن العالمان الإنكليزيان (كرمس وفارمر) وعلماء آخرون من سويسرا هم (جرمان وروث وبلاتز وانلنجر) من عزل مادة مضادة للحيوية أيضاً أسموها (ايتابتين) عزلوها من فطر ينتمي إلى فصيلة الفطر الذي يعيش في الذباب ووجدوا لها فعالية شديدة وتؤثر بقوة على جراثيم جرام موجب وسالب وعلى بعض مكروبات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا.

والخلاصة التي نستدل بها مما سبق ذكره:-

١. يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة وما شابه ذلك فيحمل معه كثيراً من الجراثيم المرضية الخطيرة. ومما يجعلها وسط ناقل للأمراض.

٢. فإذا سقط الذباب في إناء للطعام أو الشراب وحملت الذبابة وألقيت خارج الطعام دون غمس، بقيت هذه الجراثيم في مكان سقوط الذباب، فإذا تناولها شخص وهو لا يعلم (بالطبع) دخلت الجراثيم إليه، فإذا وجدت أسباباً مساعدة تكاثرت ثم أحدثت المرض، فلا يشعر الإنسان إلا وهو فريسة للحمى طريحاً للفراش.

٣. أما إذا غمست الذبابة كلها ونحن نتكلم هنا فيما إذا كانت كمية الطعام كبيرة أو غالية الثمن لوليمة كبرى أو كان دواءاً ضروري لمريض أو أي طعام أو شراب يرجح المعني أو صاحبه تناوله على إتلافه، أما إذا كان طعام بسيط أو كمية محدودة من الماء المتوفر فهنا يكون الإتلاف أولى حسب قاعدة النظافة من الإيمان، وهكذا ينبغي أن نرجح في أمور الدين والدنيا أخف الضررين وأكبر المصلحتين في أي قضية فيها مقارنة واختيار -فإذا غمست الذبابة كلها، أحدثت

هذه الحركة ضغطاً داخل الخلية الفطرية الموجودة في جسم الذبابة، حسب قاعدة توازن التركيز داخل وخارج الخلية، فيزداد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدي إلى انفجار وخروج الأنزيمات الحاملة للجراثيم والمضادات الحيوية والقاتلة للميكروبات المرضية، فتقع على الجراثيم التي تنقلها الذبابة الملوثة وتبيدها ويصبح الطعام، خالياً من الجراثيم المرضية.

وهكذا يكشف العلماء النقاب عن تفسير هذا الحديث الشريف الذي أكد على حقيقتين علميتين لم تعرف إلا في العصر الحديث بعد التقدم العلمي والاكتشافات الحديثة لعالم الميكروبات والمضادات الحيوية الموجودة في جسم الذبابة وآلية القضاء عليها، فأكد العلم الحديث التوجيه النبوي بضرورة غمس الذبابة في السائل والطعام ليخرج من بطنها الدواء الذي يكافح ما تحمله من داء إذا ما أراد الإنسان تناول ذلك الغذاء أو الدواء.

قال تعالى: **﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾**[٣٥].

أنتم أعلم بأمور دنياكم

لقد فرق النبي الكريم والرحمة المهداة بين أقواله وأفعاله باعتباره نبي مرسل من الله سبحانه لا ينطق عن الهوى، وإنما وراءه الوحي الذي يعصمه من الخطأ، وبين كلامه كبشر له خبرات وقناعات شخصية ومزاج ورغبات قد تختلف بين إنسان وأخر فيما يخص أمور الدنيا والخبرات العامة التي لا تتعلق بتشريع أو توجيه نبوي. فرغم العلم النبوي وأثر الوحي والنبوة في توجيه أحاديثه ﷺ إلا أنه ترك للخبرة والتجربة البشرية الأفضلية حتى على آراءه وخبراته الشخصية فيما يخص أمور الحياة الدنيا الخاصة، حيث أن هناك الكثير من الأمور التي لا بد للتخصص والخبرة والتجربة البشرية أن يكون لها الرأي الأول، والتي قد تفوق خبرة النبي نفسه باعتباره بشر له من الخبرات البشرية بحسب الحياة التي كان يحياها والزمن الذي عاش فيه، والوسط الذي تأثر به فيما يخص أمور الحياة العامة كالزراعة والصناعة وغير ذلك.

---

[٣٥] سورة الحج/ ٧٣.

إن حادث تأبير النخل (تلقيحه) يلقي الضوء ويوضح هذا الأمر المهم الذي يجب أن يستقر في ضمير المسلم للتمييز بين السنة النبوية المرادفة للقران وجزءاً من الوحي، وبين الخبرات الشخصية والرغبات والعادات التي كان يفضلها النبي ﷺ كإنسان أو يتصورها كفرد عاش في ذلك الزمان والمكان.

وفي ذلك يقول ﷺ: إذا أمرتم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر. [٣٦]

كما نقل الأمام السرخسي في أصوله قول النبي ﷺ: إذا أتيتكم بشيء من أمر دينكم فأعملوا به، وإذا أتيتكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمور دنياكم.

وأصل قصة تأبير النخل هي: ورد في صحيح مسلم جـ/٤ تحت عنوان (باب وجوب امتثال ما قاله ﷺ مشرعاً دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي: عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟

فقالوا يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح.

فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني شيئاً.

قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فأني إنما ظننت ظناً: فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إن حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله ﷻ.

وفي رواية أخرى عن السيدة عائشة وعن ثابت وأنس رضي الله عنهم أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال: لو لم يفعلوا لصلح.. قال فخرج شيصاً فمر بهم فقال: ما لنخلكم؟ فقالوا: قلت كذا وكذا.

قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم.

وهكذا نرى أن هذه الأحاديث النبوية توضح الفرق بين الوحي الإلهي في القران والسنة وبين خبرة النبي ﷺ الشخصية، ومن البديهي نسبة الأحاديث العلمية والطبية والتنبؤية إلى الوحي لأنها مرتبطة بحقائق لا يعلمها إلا الله وبالعقيدة والقناعة المطلقة بصحتها، كما أنها مرتبطة بمستقبل الإنسان وصحته والتطابق المعجز بينها وبين العلم المبني على التجربة والبراهين والأبحاث العلمية الدقيقة، وهي في ذلك شأنها شأن القران الكريم وأعجازه العلمي فهي من ذات المصدر الإلهي.

---

[٣٦] رواه مسلم.

أنزل القران بشرط ثبوت صحة سندها إلى النبي ﷺ كما أن النبي ﷺ يذكرها لأصحابه على سبيل الجزم والأخبار وليس الظن كما في حالة خبراته الشخصية غير المرتبطة بالوحي.

الخسوف والكسوف

وفي حالة الكسوف الذي حدث في عصر الرسالة مثال آخر يوضح التمايز بين كلامه ﷺ كجزء من الوحي، وبين علمه الشخصي وخبرته من جهة أخرى، ورفضه مجارات الأفكار والعقائد السائدة في عصره والخرافات والأساطير التي كان الناس يتصورها عن الحوادث الكونية وربطها بالناس على الأرض كما في حادثة الكسوف.

ففي اليوم الذي مات فيه إبراهيم بن النبي من السيدة مارية القبطية، وهو طفل صغير لا يتجاوز بضع سنين، حدث كسوف في الشمس فظن الناس أن الشمس كسفت لموت إبراهيم، وبلغ ذلك النبي ﷺ فجمع الناس في المسجد النبوي وصعد المنبر وقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ﷻ لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فأفزعوا إلى الصلاة[٣٧].

فالمسألة هنا إذن مسألة عقيدة وليست مسألة دنيوية عامة لكي يقول للناس: أنتم أعلم بأمور دينكم فليس للظن هنا مكان، ولكن يجب أن توضح التصورات والعقائد حول الشمس والقمر كآيتان لله لا دخل لهما بحياة الناس وموتهم، وإنما على المسلم حينما يرى الخسوف أو الكسوف أن يفزع إلى الصلاة والدعاء والتأمل واستشعار عظمة الخالق وبديع صنعه كما حدث في أيلول الماضي حينما كسفت الشمس كسوفاً كلياً في مدينة الموصل في العراق وفي أماكن أخرى من العالم فهب المسلمون للصلاة وعبادة الواحد الأحد خالق الشمس والقمر رب العالمين.

وقد كان بوسع النبي ﷺ أن يتساهل في ذلك ولا يرد الخبر ولا ينقض تفسير الناس للكسوف وربطه بموت إبراهيم ابن النبي ﷺ وفقيده العزيز فيكون نوع من التكريم للنبي ولأبنه وكان ذلك سيبقى دهراً طويلاً دون أن يكتشف خطأه بدل نقد الفكرة من أساسها وبهذه الشدة والوضوح لولا أن ذلك الذي فعله النبي ﷺ هو ما يستدعيه الوحي وأمانة النبوة التي لا تعرف الكذب أبداً. وما يحتمه الإسلام من

[٣٧] رواه البخاري ومسلم.

ضرورة تصحيح أي خلل أو انحراف في العقائد وفي فهم الظواهر الكونية وفق ما أرسله الله ﷻ من تعاليم وعقائد في كتابه الكريم وهدي نبيه الأمين الذي أرسله رحمة للعالمين.

قال تعالى: **﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾** [٣٨].

الإسلام وتقديس الأرقام

إن غير المسلمين يتفاءلون ويتشاءمون ويقدسون أعداداً وأرقاماً معينة، وقد جعلوا في عقائدهم جزءاً خاصاً بالأرقام يستجلون به مغاليق الغيب.

أما في الإسلام فليس الأمر كذلك وقد وردت أعداداً كثيرة في القران لمجرد أنها أعداد لا لقدسية خاصة تحملها كما لم يخصص القران الكريم ولا السنة النبوية الشريفة عدداً معيناً بذاته يحمل أسراراً خاصة. وكذا الأمر بالنسبة للحروف، فهي الأخرى لا تحمل دلالات غير دلالاتها اللفظية واللغوية أما ما وراء ذلك فليس من الإسلام في شيء، والموضوع الذي أثاره د. رشاد خليفة حول أهمية الرقم ١٩ في القرآن الكريم وتكراره في عدد من الكلمات والحروف ضمن بحثه الذي نشرته مجلة آخر ساعة قبل أكثر من عشرين عاماً وأحدثت ضجة حوله، موضوع خاطئ من أساسه لأن الأساس الذي بنا عليه هذا الرجل بحثه هو حروف البسملة التي ظن أنها (١٩) حرفاً بينما هي في الواقع واحد وعشرون حرفاً.

وإذا كان الأساس خطأ فمعنى ذلك أن الموضوع كله خطأ ومع ذلك كان بحث د. رشاد خليفة مليء بالمغالطات والكذب والتدجيل والاستنتاجات الخاطئة كما سنرى.

وكمقدمة لهذا الموضوع ينبغي أن نضع أمامنا تلك الحقائق:-

- اليهود يتفاءلون بالرقم (٧).
- والنصارى يتشاءمون من العدد (١٣).
- والبابيون والبهائيون يقدسون الرقم (١٩).
- والمانويون والمجوس يقدسون الرقم (٦).

---

[٣٨] سورة آل عمران/ ١٦٤

- وليس في الإسلام تقديس للأعداد والأرقام.
- وإن البسملة تحتوي على (٢١) حرفاً لا (١٩).
- وإن الإسلام يعتمد على العقائد الراسخة ويحترم العقل البشري ولا يشجع الخرافة والشعوذة بشتى أنواعها ولا يعتمد التضليل العلمي في نشر مبادئه وعقائده ورسالته الإلهية الخالدة لبني البشر.

لقد نشرت مجلة أخر ساعة المصرية في عددها المرقم ٢١٤٩ في ١٩٧٥/١٢/٣١ تحقيقاً حول العدد (١٩) للمدعو د. رشاد خليفة عنوانه: في أمريكا يفسرون القرآن بالعقول الإلكترونية، ادعت فيه وجود أسرار لهذا الرقم العجيب ذات علاقة بتفسير القران.

في الإسلام قلنا أنه ليس فيه تقديس للأرقام وليس فيه رقم معين له ميزة معينة أو قدسية خاصة يوقف عندها فمن أين جاء خليفة بهذا اللغو؟

في القران أعداد كثيرة وردت على سبيل العدد لا أكثر ولا اقل، فالله تعالى خلق السموات وجعلها سبعاً والأرض كذلك في ستة أيام وجعل للنار سبعة أبواب وللجنة ثمانية، وعدد حملة العرش ثمانية والطواف حول الكعبة سبعة أشواط وكذا السعي بين الصفا والمروة والتروية يوم الثامن من ذي الحجة والوقوف بعرفة يوم التاسع منه، والسنة أثنتا عشر شهراً في كتاب الله والشهر ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون يوماً، والأسبوع سبعة أيام، والصلوات خمس في اليوم، وهي بين ركعتين وثلاث وأربع، ومجموعهما سبعة عشرة ركعة، والزبانية الموكلون على جهنم (١٩) ﴿عليها تسعة عشر﴾ [٣٩] وردت أعداد المائة والألف وكسور العدد من النصف والثلث والربع والسدس والثمن في القران الخ.. ولم يشر القران إلى سر معين في عدد معين كما لم يشر في السنة الصحيحة إلى ذلك، ولم يرد في كتب الفقه وغيرها من الكتب العلمية الإسلامية المعتمدة ما يشير إلى ذلك.

وما يقال عن الأرقام والأعداد يقال عن الحروف أيضاً فمن أين جاءت هذه الأباطيل والخرافات وكيف دخلت في الفكر والتراث الإسلامي؟.

إسرائيليات اليهود، ما يزال التخريب الذي يزاوله اليهود تجاه التراث الإسلامي باقياً حتى الآن، وهو ما يعرف باسم الإسرائيليات فقد حاولوا عن هذا الطريق إدخال

---

[٣٩] سورة المدثر/ ٣٠.

الكثير من آرائهم الباطلة في العقيدة الإسلامية وتفسير القران والسيرة والتاريخ والحديث وغيرها من العلوم.

وتقديس الأرقام أحد مكونات الدين اليهودي، فقد ورد تقديس الرقم (٧) في التوراة لذلك فهم يتفاءلون به، وليس اليهود وحدهم ينفردون بهذا التقديس بل يشاركهم فيه السومريون والبابليون بينما تؤكده الديانة المانوية (المجوسية) على الرقم (٦)[٤٠].

وقد أورد الأستاذ محمود شيت خطاب أمثلة حول تقديس اليهود لهذا الرقم (٧) وتفاؤلهم به، من ذلك مثلاً وعد بلفور المشؤوم كان سنة ١٩١٧ وإعلان قيام إسرائيل كان سنة ١٩٤٧ وهزيمة حزيران والعدوان الإسرائيلي سنة ١٩٦٧[٤١]. وعن اليهود أخذ المسلمون حساب الجمل أو حساب أبي جاد.

أما النصارى فإنهم يتشاءمون من العدد (١٣) وسبب تشاؤمهم من هذا العدد راجع إلى كونه رقم يهوذا الأسخريوطي المنافق الذي وشى بالسيد المسيح، وكان ثالث عشر الحواريين الذين حضروا العشاء الرباني الأخير (المائدة التي أنزلت من السماء بناء على سؤال المسيح وحوارييه لربهم).

أما في الإسلام فإن فكرة تقديس بعض الأرقام دخلت عن طريق: الفلسفة والفاطميين واليهود (الإسرائيليات):

أما الفلسفة فلأنها مستوردة من اليونان، وقد ذكر ابن خلدون أن الحساب الذي يسمونه (النيم) مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب. وهو قائم على حساب الحروف وأعدادها[٤٢] وقد شرح ابن خلدون هذا الموضوع الذي يعتمد المنظور الخرافي الفلسفي والذي يحاول استكناه الغيب عن طريق التنجيم أو الرمل أو الأعداد أو الحروف، ولكنه سخر منها واعتبرها من المغالط التي تجعل وتوضع بشكل مرتب لتكون كالمصايد لأهل العقول المستضعفة، وهي لا تختلف كثيراً عن فكرة الأبراج وعلاقتها بأرقام وحروف معينة كتاريخ الميلاد وأسم الأم وغير ذلك من الخرافات الفنطازية التي تستميل من يستمع إليها.

---

[٤٠] انظر: اليزيدية/ صديق الدملوجي.

[٤١] انظر مجلة لواء الإسلام المصرية، والوعي الإسلامي الكويتية ١٩٦٨-١٩٧٠.

([٤٢]) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤.

ومع موقف ابن خلدون المتشدد من هذا الموضوع لم ينجو من نسبة كتاب بأكمله إليه، فيه فصل عن أسرار الأرقام والحروف وهو يخالف مذهبه المشار إليه في مقدمته، مما يؤكد تزويره واختراعه من قبل بعض خصومه ونسبته إليه زورا.

أما ابن سينا فإنه يذكر أن الحروف الهجائية كلها تتضمن أغراضاً خاصة وله تفسير في معاني الحروف الهجائية التي في فواتح السور القرآنية[٤٣]، وتقوم هذه الفكرة على إعطاء الحروف الأبجدية أرقاماً بين الواحد إلى الألف.

ومن الأمور التي أعتمدها الفلاسفة المتأثرين بأرسطو في أسرار الأرقام والحروف وما أورده في كتاب (عجائب الخواص) وهو شكل مربع فيه تسع مربعات فيها رقوم مخصوصة يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر وهو يعطي النتيجة نفسها إذا جمع طولاً وعرضاً وزعم هؤلاء أنه يساعد الحامل على الوضع بسهولة. وقد حاول الغزالي أن يرد على الفلاسفة في كتابه (المنقذ من الضلال) بأسلوبهم نفسه، فذكر ذلك الشكل الهندسي وقال: فيا ليت شعري من يصدق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين والظهر بأربع والمغرب بثلاث هي لخواص غير معلومة بنظر الحكمة[٤٤]، وقد ظن البعض خطأً أن الغزالي يؤمن بالأرقام وأسرارها بناء على ما جاء في كتابه أعلاه، وهو غير صحيح.

ومن الفلاسفة وأهل الكلام الذين اعتمدوا على هذا الباب جماعة (أخوان الصفا)، وفي ذلك يقول أحمد أمين: وغلا أخوان الصفا فزعموا أن للحروف أسراراً دالة على معان وأن هذه الحروف يمكن أن يفهم منها ميعاد ظهور المهدي، واستدلوا على الآية: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. وادعوا أن الله تجلى بعلمه على من يشاء من عباده. وقد نسب إلى الفيلسوف الكندي رسالة تتضمن دلالة الحروف وأسرار الأعداد، وقد ذكر أخوان الصفا (وهم من فلاسفة الغلاة والقرامطة والإسماعيلية كما يعتقد) أن ظهور المهدي يتوقف على حركات النجوم وقراناتها، مقلدين في ذلك اليهود في قولهم: إن موعد ظهور المسيح يتبع القيمة العددية لكلمتي (هستير استير) وقد شاع بين الباطنية وغيرهم ارتباط حركات الأرض وإحداث الكون بحركات النجوم، حتى أنه لا يحدث حدث بالأرض إلا بقراءات في نجوم السماء،

---

(٤٣) الفكر الإسلامي/ محمد حمزة/ فقرة المسائل الفيروزية/ لابن سينا/ ص١٨٣.

(٤٤) المنقذ من الضلال/ الامام الغزالي/ ص ٦٦.

ووضعوا في ذلك علماً سموه (علم البازرجة) فما يحدث للإنسان من سعادة وشقاء وغنى وفقر مرجعه إلى حركات النجوم والقرانات.

ولإخوان الصفا في عدد السبعة هيام وأوهام كما يقول الدكتور أحمد أمين[٤٥].

أما الفاطميون فقد أحاطوا فكرة ظهور المهدي بقدرته على الأخبار بالغيب والتنبؤ بالأحداث وإن ذلك جاء من كتاب (الجفر) الذي تركه الإمام علي، وزعموا أنه علم أسره النبي ﷺ إلى علي وأمره بتدوينه، فكتبه الإمام حروفاً متفرقة، وهو يحيط بكل شيء وفيه تفسير باطن كلمات القرآن وظاهر عباراتها كما يرتبط الجفر بعلوم الكيمياء وحساب الجمل وهو معادلة حروف أبجدية بأعداد حسابية ويطلق على العلوم الغيبية والحوادث المستقبلية وأشتق من كلمة الجفر (الذي هو لغة جلد الماعز). أسم الشفرة.

نظرة تحليلية لفكرة تقديس الأرقام

يقول الدكتور أحمد أمين في كتابه المهدي والمهدية عن موضوع أسرار الأرقام والحروف ما يلي: وعلى هذه العقائد (أي أسرار الأرقام والحروف) ظهر في البيئة الفارسية شاب متحمس أسمه (ميزرا، علي أحمد الشيرازي) ولد سنة ١٨٢٠ .. وأعلن أنه المهدي المنتظر.. ولم يكن يؤمن بشعائر الإسلام كلها وتفاصيلها، ويرى أنها مرهقة، وأنها فوق طاقة البشر في الوقت الحاضر.. وقد أضاف مؤسس البابية هذا أيضاً، تعاليم تتعلق بالحروف والأعداد، وجعل للحروف جملاً لها دلالتها الرمزية، وكان مما قدسه وأمر أتباعه بتقديسه العدد (١٩) وأستند في ذلك ما جاء في القران الكريم: (عليها تسعة عشر) وأستند على هذا العدد في تنبؤاته وأفكاره.

وأدعى الميزرا على أحمد الشيرازي، أنه ولد في التاسع من الشهر، لهذا كانت السنة البهائية (وهم الذين ورثوا فرقة البابية) تسعة عشر شهراً، والشهر تسعة عشر يوماً ومجموع ذلك كله ٣٦١ يوماً، والبهائية مثل البابية يؤمنون أيضاً بتقديس الرقم (٧) وقد أيدت الوقائع والأحداث والوثائق السرية التاريخية صلتهم بالدول الاستعمارية وبالصهيونية، فقد تسابق الإنكليز والفرنسيين وقياصرة روسيا في دعم الميزرا علي الباب ومحاولة إنقاذه من الإعدام قبل تنفيذه، ثم بعد ظهور البهائية انضمت الحركة اليهودية الصهيونية في فلسطين في دعم حركة البهاء وأبنه وخليفته من بعده عباس

---

[٤٥] انظر: المهدي والمهدوية/ لأحمد أمين/ ص٢٠ ، ص ٣٢.

بن البهاء، وجعلت البهائية قبلتها في عكها متجه إلى قبر مؤسسها البهاء وأبنه من بعده، وتقوم إسرائيل اليوم بدعم الحركة البهائية بالمال والدعاية والخطط والبرامج على مستوى العالم الإسلامي وأوربا وأمريكا وغيرها وتنسق معها لنشر مبدأ وحدة الأديان الهدام ومحاولة نسخ رسالة الإسلام برسالة جديدة هي خليط بين عقائد ومفاهيم الديانات الثلاث وبلباس بهائي إباحي معاصر، ويحاول البهائيون جمع التوراة والإنجيل والقران في كتاب واحد يمثل العهد القديم والجديد الحالي مع القران الكريم: ولكن هذه المحاولات المشبوهة لم تلق من المسلمين إلا الاحتقار والرفض والتصدي الواعي مما أدى بتلك العلاقة المشبوهة بين البهائية والصهيونية أن تخنس بعد كل نشاط محموم للتآمر على الإسلام وأهله.

ولعل من أكثر من قاوم البهائية وحاربها باعتبارها فرقة منحرفة غالية خارجة عن الدين هم الشيعة ثم أهل السنة، وغالباً ما كان يتعاون الشيعة والسنة لفضح تآمرهم وزيفهم ودسهم في التراث والعقائد والأفكار، ومن ذلك شبهة تقديس الأرقام والحروف وبالذات الرقم (١٩) الذي هو موضوع هذا البحث.

ويشترك مع البهائية واليهود في تقديس الرقم (٧) بعض الطوائف والفرق المنتشرة في زوايا العالم الإسلامي، من الغلاة والأقليات الدينية في الشرق، التي تؤمن بالخرافة والهرطقة والأساطير الدينية منهجاً ومسلكاً، للترويج والإقناع بين معتنقيها، وتدعيماً للعقائد القديمة المتجمدة والمتخلفة، التي عفا عليها الزمن، محاولين من منهج التقديس والتعصب والتقليد الأعمى، المحافظة على وجودهم الديني بين الأكثرية المنفتحة والمتحررة من العقد الدينية والأفكار الأسطورية، التي تنشأ عادة في الظلام والخفاء والتقوقع والانكفاء على الذات.

أما أثر الإسرائيليات في التراث الإسلامي فيما يخص موضوع تقديس الأرقام والحروف، فهو واضح في كتب التراث، والإسرائيليات هي القصص والأخبار التي دسها أهل الكتاب في التراث الإسلامي، فيما يخص تراث الأنبياء، وعقائد أهل الكتاب وأخبارهم، وقد امتلأت بها كتب التفسير والسير والرقائق والمواعظ وقد ورد في تفسير الطبري كما ورد في سيرة ابن هشام حديث حي بن أخطب اليهودي في المدينة مع النبي ﷺ عن سورة البقرة ففسر حيي بن أخطب الأحرف (ألم) بأن الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعين سنة، أفندخل في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟..

ثم يسأل النبي عن سور أخرى، ويحسب الحروف بحساب الجمل أو ما يسمونه (حساب أبي جاد) أي الأبجدية ويضيفها إلى عمر الإسلام في الأرض وهذه القصة واضحة الوضع والصناعة، وتهدف إلى الإيحاء إلى المسلمين بأن الإسلام سينتهي من الأرض بعد عدد من السنين طالت أو قصرت، وإذا سرت هذه النزعة في مشاعر المسلمين فستموت في نفوسهم روح المقاومة، معتقدين أن هذا قدر الله الذي لا يرد يستسلمون للأمر الواقع وكما نجد اليوم أصداء هذه الأفكار من تحديد عمر أمة الإسلام وتحديد عمر وجود إسرائيل بسنة ٢٠٢٣ أو غيرها من الأساطير التي يحاول اليهود بثها بين المسلمين وربما بأقلام عربية أو إسلامية.

وقد قال ابن حجر عن هذا الحديث هذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر والتنجيم، وليس ذلك ببعيد، فأنه لا أصل له في الشريعة، وفي الحديث الشريف الذي يذم التنجيم والتحدث عن الغيب والمستقبل: كذب المنجمون وأن صدقوا.

كلما رفض الحديث الذي حدد فيه حي بن أخطب اليهودي عمر الإسلام بالحساب الأبجدي للحروف، العلامة المؤرخ ابن كثير، قائلاً في تفسيره: وأما من زعم أنها (أي فواتح السور من الحروف) دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره.

وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته، وهو ما رواه ابن إسحاق صاحب المغازي (ويعني به حديث اليهودي حيي المتقدم ذكره)

وفي ختام هذه الجولة وهذا الاستعراض يظهر بوضوح أن موضوع الأرقام والحروف وأسرارهما وما فيها من أخبار الغيب أو الاختصاص بقدسية خاصة، لا أصل له في الإسلام، وإنما هو دخيل على التراث الإسلامي.

وإذا كان هناك باب خاص عن الحروف والأرقام، فإنما هو من خصائص الأدب والشعر، فقد جعل بعض الشعراء والأدباء للحروف الأبجدية أرقاماً لغرض التاريخ واصطلحوا على أن حروف الهجاء العربية (٢٨) حرفاً كما اصطلحوا على إعطاء كل حرف رقماً خاصاً بحيث يصل عدد هذه الحروف الثمانية والعشرين إلى الألف، فإذا أراد شاعر أن يؤرخ حادثة من الحوادث أورد بيتاً أو شطر بيت يكون مجموع حروفه بالأرقام هو التاريخ بالسنين ليسهل حفظه أما غير ذلك من تنبؤ

بالغيب أو إيجاد صلة بين رقم وقضية أخرى غير التاريخ الشعري فهو لغو وعبث ينزه عنه الإسلام.

أما محاولة الدكتور رشاد خليفة البائسة فهي غير جديرة بالنظر والمتابعة لما أكتنفها من تكلف وزيف وكذب وتلاعب بالأعداد، أثبتها العلماء المختصين بعد أن قام هذا الرجل بنشر ادعاءاته الهزيلة، إن الخطر في بحث رشاد خليفة ليس في الضعف القاتل في التدليل على نوع جديد من الإعجاز للقرآن الكريم وهو الإعجاز العددي إن صح أن نطلق عليه، وإنما في جعل المسلم يؤمن بالقران على حرف، وعلى أساسٍ رخو، حتى إذا أنهار ذلك الأساس أنهار إيمان المسلم بكتابه المقدس، فضلاً عن الدعاية والتطبيل للعقيدة البهائية وتقديسها للرقم (١٩) وأن القران الكريم يؤيد العقائد البهائية من خلال عمليات التكرار والقسمة المزعومة على الرقم (١٩) ويمكن أن نضيف أن مثل هذه الأفكار والبحوث القلقة قد تثير الفتن والخلافات وتثير الجدل بين المسلمين حين يستطيع أن يوجدوا بين المسلمين من يؤيد ذلك التوجه أو ما يعارضه في حين أن المسلم في غنى عن هذا الهراء وهذه الموجة البهائية الجديدة التي قد تتبعها موجات وأفكار عديدة ما دام التنسيق قائم بين هؤلاء اليهود وبقية أعداء الإسلام.

وللإنصاف نقول أن استخدام هذا الرجل للعقل الإلكتروني أو الكمبيوتر ليس فيه خطأ بل لقد أصبح الآن استخدام الحاسبة في علوم القران والسنة شائعاً وأساسياً بين المسلمين وأصبحت الحاسبة اليوم ومنها الانترنيت من العوامل المساعدة والمهمة لنشر رسالة الإسلام وحضارة القرآن إلى العالم أجمع، ولكن الذي أثار الضجة في حينها حول هذه النتائج هو تلاعب المسئول عن إعطاء المعلومات للحاسبة، وإعطائها معلومات خاطئة ثم ساق هذا التزوير في موكب صاخب وفرقعة قويةٍ استهد فت إثارة الحماسة الدينية لدى القراء، بل بعض الكتاب المخلصين أيضاً، بحيث أغمضوا عيونهم عن سلبيات الموضوع ولم يحاولوا التفتيش عن صحة المعلومات وعن علامات الاستفهام التي فرضت نفسها على الموضوع بأكمله، وقد قام الأستاذ إدريس الكلاك يساعده السيد فيصل وفيق/ كلية العلوم في جامعة الموصل، بمتابعة وتدقيق النتائج التي نشرها رشاد خليفة فوجدا أن أغلب الأعداد التي أعطاها كانت خاطئة ومخالفة لما هي عليه في العقل الإلكتروني.

أن المعجزة القرآنية أصبحت من أبرز معالم القران الكريم وهناك عدة مجالات في مواضيع الإعجاز سواء البلاغي أو التنبؤي أو العلمي أو التشريعي وغيره بل

حتى الإعجاز العددي نفسه ضمن أصول وضوابط لغوية ومنطقية وعلمية صحيحة، يمكن أن يستعين بها الباحث لإثبات المعجزة القرآنية وليس بالدجل والشعوذة والتلاعب والزيف الذي أقحم دعاة تقديس الرقم (١٩) أنفسهم به بدعوى خدمة القران وإظهار آياته الجلية، التي يظهرها الله دائماً بجهد المخلصين والمجاهدين من دعاة الإسلام، قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾** [٤٦].

الأعجاز العددي في القران

لم يكن بحث الدكتور رشاد خليفة حول تقديس الرقم (١٩) جزءاً من الإعجاز العددي للقران الكريم، فهو محاولة للدعاية للعقائد البهائية والتشكيك بالإسلام ورسالته، وجعل القران أداة لدعم المذهب البهائي المشبوه، ورغم أن هذا البحث قد ظهر قبل ربع قرن في أمريكا وشرقي مصر ولبنان وغيرها، وخدع خلال هذه الفترة عدد من القراء والكتاب وبسبب الجهود التي بذلت لنشره والتبشير به وإضفاء العلمية عليه، وربطه بآلة العصر الفائقة السرعة والدقة، والمحببة للقلوب والنفوس في عصرها الذهبي ألا وهي الحاسبة الإلكترونية، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً حيث أنكشف الزيف والكذب والتلاعب بالمعلومات والنتائج والأعداد لإصناع نتيجة مزيفة تخدم فكرة تقديس الأرقام التي ليس من الإسلام في شيء. وبعد أن تم فضح هذه الأكذوبة وهذه الفتنة الفكرية، بحيث أصبح أمر تقديس العدد (١٩) في خبر كان، ولا يوجد بيننا من يشك في زيفه إلا جاهل أو مدسوس، يبقى سؤال حول هذا الموضوع وهو هل هناك شيء فيما يخص الظاهرة القرآنية يمكن أن نسميه الإعجاز العددي في القرآن، يضاف إلى أبواب الإعجاز الأخرى، أن الجواب ببساطة هو الإيجاب إذ يمكن لدراسة علمية متأنية هادفة متجردة أن تكشف صوراً مشرقة من الإعجاز العددي في القران الكريم، ذلك لأن هذا الكتاب العزيز الذي هو أصح الكتب المقدسة على الإطلاق قد أنزله الله ﷻ على قلب محمد ﷺ بسوره وآياته وكلماته وحروفه وتم جمعه وتدوينه بكل دقة وأمانة تدويناً متواتراً تضافر الصحابة على خدمته والعناية به

[٤٦] سورة فصلت/ ٥٣.

حتى أصبح الكتاب الوحيد في العالم الذي يوجد منه مئات الملايين من النسخ لا تختلف أي نسخة منه عن غيرها.

ولهذا فأن أية دراسة لنصوصه وكلماته وحروفه وأرقامه وأعداده لا بد أن تستخلص لنا نتائج مهمة في مجال التنافس والتناظر والإبداع والجمال والتصوير الفني والحس الموسيقي لكلمات الله المعجزة، ومن ذلك يمكن أن ينشأ الإعجاز العددي للقرآن.

وفي هذا المجال وأهمية العدد في القران جعلت أحد أصحابي من طلبة الدراسات العليا في الآداب أن يكتب رسالته البحثية لنيل درجة الماجستير، موضوعها وعنوانها (العدد في القران الكريم) وقد حاول هذا الباحث أبراز الإعجاز العددي أسلوبه ومنهجه في التعامل مع العدد، كما أشار كل من مصطفى صادق الرافعي في كتابه (أعجاز القران) وسيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القران) إلى موضوع العدد والحرف واللفظ والكلمة والعبارة القرآنية وعلاقتها بالأعجاز البلاغي والمعجزة القرآنية عموماً. كما أشار آخرون إلى ذلك ولكنهم لم يوفقوا تماماً لأنهم خلطوا بين موضوع الإعجاز العددي ومفهومه العلمي والموضوعي الدقيق حسب ما تحدده نتائج البحث العلمي الصحيح وبين غلو البهائية ومن وراءهم من اليهود وأصحاب المصالح وطلاب الشهرة، والمبهورين باستخدام العقل الإلكتروني والحاسوب في معالجة النصوص والوقوف على المكرر من الكلمات والحروف وربطها بالأرقام والأعداد المقدسة عند الملل الأخرى مع شيء من التلاعب والافتعال لإبهار القارئ بنتائج منسقة وغير متوقعة بدعوى خدمة الدين وإثبات الإعجاز القرآني ولكن وفق أسس واهية ومزيفة لأغراض عديدة ومشبوهة. ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود في كتابه (حوار مع صديق ملحد) و(من أسرار القرآن) ولقد حاول مصطفى محمود متابعاً رشاد خليفة، أن يميز بين الحروف العربية في القران فكان يسمي الحروف التي في فواتح بعض السور الحروف النورانية، لكنه مثل رشاد خليفة لم يشر إلى بقية الحروف تسمى الحروف الظلمانية.

ونحن مع د. مصطفى محمود في متابعة عجائب القران التي لا تنقضي والتي لا نراها تصرف القارئ عن تدبر معاني القرآن الكريم، ولكن الذي لا نوافقه فيه ولا نرضى عليه هو أسلوب التضليل والكذب في موضوع يخص أقدس مقدسات المسلمين وهو القران لأن ظهور الحقيقة فيما بعد يؤدي إلى عكس النتيجة فيكون سبباً من البعد عن القرآن والإيمان برسالة الإسلام على أن مصطفى محمود حينما

أومأ إلى التفوق العددي في الحروف النورانية كان يعلم وربما لا يعلم أن الأقدمين قد نوهوا عنها فقد ذكر الزركشي كما ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها (الإعجاز البياني للقران) حول هذا الموضوع فقال: وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له. فحق لكل سورة ألا يناسبها غير الواردة فيها فلو وضع (ق) في موضع (ن) لم يكن لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله ورسوله وسورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر: القرآن، الخلق، وتكرار القول، وكذلك سورة (ن والقلم) فان فواصلها كلها على هذا الوزن مع ما تضمنت من الألفاظ النونية.

وممن ماثل مصطفى محمود في متابعة رشاد خليفة حول علاقة القران بتقديس الأرقام ومحاولة وضع القواعد لذلك ولم يصبوا الهدف الأستاذ علي نصوح الطاهر، الذي نحا هذا المنحى أيضاً، وهي طريقة حساب الأحرف والكلمات عددياً للربط بينها وبين رقم أو عدد ما ولكن محاولته كما تذكر بنت الشاطئ لم تسلم له بعد الجهد المضني.

وبالنسبة للأحرف التي ذكرها الله سبحانه في فواتح السور، والتي حاول الكثير من العلماء والكتاب والباحثين الوقوف على تفسير محدد لها سواء تفسير عددي حسابي كما حاول المذكورين أعلاه دونما نتيجة صحيحة أو تفسير أشاري كما حاول المتصوفة والفلاسفة والمتكلمين قديماً وحاول بعضهم أن يستخرج منها أسم الله الأعظم، وحاول آخرين إدخال الموضوع في مجال السحر والشعوذة بعد الاستعانة بتراث الإسرائيليات وغيرها من التراث الخرافي الأسطوري التي ما أنزل الله بها من سلطان ولا أيدتها النصوص الصحيحة سواء عن طريق الوحي (القرآن والسنة) أو التراث الصادق للسلف الصالح من أهل البيت والصحابة ومن على منهجهم وخطاهم من التابعين والأئمة المجتهدين، وغيرها من الآراء والتفاسير الظنية والحدسية، وقد يكون في عدم الاهتداء إلى رأي ثابت فيها هو الانتصار للرأي القائل بأن هذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.. كما هو رأي أغلب المفسرين قديماً وحديثاً.

أما الدكتور عبد الرزاق نوفل في كتابه (الإعجاز العددي للقران) والدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه (التعبير القرآني) فقد أثريا موضوع المعجزة القرآنية عموماً والأعجاز العددي بشكل خاص بمادة مهمة ومفيدة حين اعتمدا في ذلك على مصادر الأقدمين والمصادر الموثوقة والصحيحة، فيما عدا إشارة الدكتور فاضل

السامرائي إلى موضوع علاقة الرقم (١٩) بفواتح السور وتقديس هذا الرقم الذي يقدسه البهائيون وحاول رشاد خليفة أن يقدم لهم دعاية مجانية أو ربما غير مجانية في كتابه السيئ الصيت والذي أثبت الباحثين خطأ جوهره، وشيوع الكذب والتلاعب المتعمد في الأعداد والنتائج التي أرادها المؤلف مسبقاً، فضلاً عن أن محوره الأساس يعتمد على فرضية أن عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) مكونة من (١٩) حرفاً بينما الواقع أن عدد حروفها هو (٢١) حرف، والكتاب عنوانه (معجزة القرآن الكريم) للدكتور رشاد خليفة/ نشر دار العلم للملايين/ بيروت ١٩٨٣م.

أما ما عدا ذلك فقد قدم الدكتور فاضل زبدة رائعة عن الإعجاز العددي في القران مستنداً على سابقه الدكتور فاضل عبد الرزاق نوفل في كتابه (الأعجاز العددي للقرآن) فضلاً عن مصادر قديمة وعديدة أخرى، كالكشاف للزمخشري/ وملاك التأول/ للغرناطي والبرهان/ للزركشي والبيان والتبيين/ للجاحظ ونحاول أن نوجز بعض ما ذكر:

أن التعبير القرآني تعبير فني مقصود كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله. ومما يدلل على ذلك الإحصاءات التي يمكن أن تراها حين تعالج النص القرآني بالكمبيوتر كما هو شائع اليوم، فيظهر لك بوضوح أن القران الكريم قد حسب لكل حرف فيه حسابه، وأنه لا يمكن أن يزاد فيه أو يحذف منه حرف واحد فضلاً عن الكلمة.

ولقد أنتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف فإن الكلمات القافية قد ترددت في سورة (ق) كثيراً والكلمات الصادية ترددت في سورة (ص) كثيراً وهكذا[٤٧]، وجاء في ملاك التأويل للغرناطي في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة:

إن هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها[٤٨] ، وأستند القدماء أيضاً إلى الإحصاء عند البحث عن سبب بدء سورة (لقمان) بـ (الم) وسورة يونس بـ (الر) بسبب كثرة الميم في كلمات السورة الأولى وكثر الراء في الثانية. كما جاء في ملاك التأويل وغيره وذكر بعض العلماء لطيفة

---

[٤٧] انظر: البرهان/ للزركشي ١٦٩/١.

[٤٨] ملاك التأويل ٣٠/١، ٤٨٣/١، ٥٢٨/٢.

أخرى حول هذه الأحرف في فواتح السور، وهي أن عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفاً أي بمقدار نصف حروف المعجم (تقريباً) ترددت في تسع وعشرين سورة بما يماثل عدد حروف المعجم بتميز الهمزة عن الألف وفي هذه الحروف نصف المهموسة ونصف المهجورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ونصف المستعلية ونصف المنخفضة ونصف المقلقلة .. فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته[٤٩].

لقد تبين للعلماء والباحثين في الإعجاز العددي والإحصائي أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق.

قال تعالى:

﴿ولقد صرفنا في هذا القران من كل مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾ [٥٠].

لقد تبين لهؤلاء الباحثين:

أن (الدنيا) تكررت في القران الكريم بقدر (الآخرة) فقد تكرر كل منها ١١٥ مرة.

وإن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكرر كل منها ٨٨ مرة.

وإن (الموت) ومشتقاته (ميت، مات، ..) تكرر بقدر الحياة فقد تكرر كل منها ١٤٥ مرة. وهل الموت إلا للأحياء؟

وإن (الصيف) والحر تكررا بقدر لفظ الشتاء والبرد فقد تكرر كل منهما خمس مرات.

وأن لفظ السيئات ومشتقاتها قد تكررت بقدر لفظ (الصالحات) ومشتقاتها فقد تكرر كل منهما، ١٦٧ مرة .

وإن لفظ (الناس) تكرر بعد لفظ (الرسل) فقد تكرر كل منها (٢٤١)مرة. وهل الرسل إلا للناس؟

وأن لفظ (الكفر) تكرر بقدر لفظ (الإيمان) فقد تكرر كل منها ١٧ مرة. وتكرر لفظ (كفراً) بقدر لفظ (إيماناً) بقدر (٨) مرات[٥١].

وأنه تكرر لفظ إبليس بقدر لفظ (الاستعاذة) بقدر (١١) مرة.

---

[٤٩] انظر: البرهان ١٦٩/١.

[٥٠] سورة الحجر/ ٨٩.

[٥١] انظر في ذلك الإعجاز العددي للقرآن ١٥/١، ٢١، ٣٥، ٥٨، ٧٠، ١٢٤، ١٨٠.

وأن ذكر الكافرين تكرر بنفس عدد النار، وهل النار إلا للكافرين؟

وإن ذكر (الحرب) تكرر بعدد الأسرى، وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب ؟

وإن لفظ قالوا تكرر (٣٣٢) مرة وهو بقدر تكرار كلمة (قل) الذي هو أمر من الله إلى خلقه فسبحان من قال (قل) (٣٣٢) مرة فكان، القول (٣٣٢) مرة.

وأن لفظ (الشهر) تكرر ١٢ مرة بعدد شهور السنة.

وأن لفظ (اليوم) تكرر ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة. وأن لفظ الأيام تكرر (٣٠) مرة بعدد أيام الشهر(٥٢).

ومن يدري ماذا سيجد بعد في دراسات القرآن الكريم وماذا سيرى الناس من عجائبه فإن القران كما قال رسول الله ﷺ لا تنقضي عجائبه قال تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ ٥٣.

وقال النبي ﷺ: أن هذا القران مأدبة الله فأقبلوا مأدبته ما استطعتم.

أن هذا القران حبل الله والنور المبين والشفاء النافع: عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن أتبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد أتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات(٥٤).

وقال الوليد بن المغيرة وهو على كفره في القران بعد أن سمعه والله أن لقوله حلاوة وأن عليه لطلاوة وأنه ليعلو وما يعلى عليه(٥٥).

وهكذا نجد أن الإعجاز العددي للقران هو أحد الأوجه العديدة للمعجزة القرآنية وهو أعجاز لا يزال أمامه الباب مفتوحاً مقارنة مع أنواع الإعجاز الأخرى، بعيداً عن لوثة تقديس الأرقام التي حاول الغلاة والبهائيون وأعداء الإسلام دسها ضمن مواضيع الإعجاز القرآني بغية تشويهها والتشكيك بها من جهة، والدعوة إلى مذاهب وتيارات لا تمت إلى الإسلام وعلوم القران بصلة، ولكن ذلك النهج الخاطئ قد ولد حالة معاكسة حيث دفع الباحثين والعلماء للعمل الدؤوب والتدقيق العميق لخدمة القران وتعضيد أي طرح أو فكرة لها صلة بمواضيع الإعجاز وزاد من جهدهم لاستقصاء عجائب القران ودلائل النبوة، ومتابعة معالم المعجزة القرآنية في كل صورها، فتتوج

---

(٥٢) الإعجاز العددي/ د. عبد الرزاق نوفل ١٥/٢٠، ٤٩.

٥٣ سورة الحجر/ ٨٨.

(٥٤) رواه أصحاب السنن.

(٥٥) انظر تفسير ابن كثير ٤٤٣/٤، سيرة ابن هشام، ١٧٥/١.

عملهم بترصين الإعجاز البلاغي الذي اشتهر به القران وإظهار درر الإعجاز العلميٍ الحديث في كافة فروع العلم ومنها الفلك والطب والتشريع والتاريخ والآثار فضلا عن الإعجاز العددي الذي هو أحد ٍ ثمار وفروع الإعجاز البلاغي والفني للقران وقد تضمن هذا الجهد المبارك مزيداً من استخدام الوسائل المعاصرة لتنبيه صرح الإعجاز المعاصر وأبرزها استخدام الحاسبات والمعاجم، وأجهزة الفحص سواء الفلكية أو الدقيقة (المجهر الإلكتروني). فاضحين في نفس الوقت التزييف والتآمر على الإعجاز القرآني سواء في مسألة تقديس الأرقام المشار إليها، أو مسألة الشعر الجاهلي التي آثار فتنة التشكيك بصحته المستشرقون في مطلع هذا القرن للوصول إلى هدف التشكيك في الإعجاز البلاغي للقران الذي كان الشعر الجاهلي يعد ابرز ركائزه، والمقياس الأمثل لبلاغة القران باعتبار الشعر الجاهلي أبلغ كلام عربي وصلنا من تراث العرب في عصر الرسالة وما قبله إذ كان العرب حينذاك في قمة الفصاحة والبلاغة، فإذا نجحوا في التشكيك بهذا التراث الأصيل أمكن التشكيك ببلاغة القران المعجزة، لكنهم فشلوا في ذلك كما فشلوا في غيره، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفصل الثاني

بشارات الكتب المقدسة

بظهور نبي الإسلام

قال تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾** [٥٦].

في هذه الآية المباركة والآيات التي تليها في سورة المائدة يتمثل الحق في صدوره من جهة الإلوهية، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع، وفرض القوانين للبشر، ويتمثل الحق في محتوياته، وفي كل ما يعرض له من شؤون العقيدة والشريعة، وفي كل ما يقصه من خبر، وما يحمله من توجيهه **﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾** فهو الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن، والمرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس، ونظام حياتهم.

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة، أو كان هذا الاختلاف بين المسلين أنفسهم، والمرجع الذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياة كله هو هذا الكتاب، ولا قيمة لأراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند أليه من هذا المرجع الأخير. لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين، ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء منه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم أخر، ولا شي من شريعته إلى شريعة أخرى، وقد علم الله حين رضيه للناس أنه يسع الناس جميعاً، وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً، أنه يحقق الخير للناس جميعاً، وأنه يسع حياة الناس جميعاً، إلى يوم الدين...

أما الهيمنة القرآنية، وهينة القرآن على الكتب السماوية التي سبقته فيمكن تتبعها في محاور كثيرة، سواء في صحته المطلقة وتواتر تدوينه وخلوه من التحريف، واختصاصه بالحفظ من ذلك، وأعجازه البلاغي والعلمي والتاريخي والحسي (النبوات) والتشريعي، ومهيمناً عليه أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب، قال الزمخشري: أي رقيباً على سائر الكتب، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات[٥٧]، وفي ابن

---

[٥٦] سورة المائدة/ ٤٨.

[٥٧] الكشاف ١/٤٩٧.

كثير: اسم المهيمن يتضمن ذلك، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما لم ينزل في غيره[٥٨].

وليس أدل على هيمنة القرآن الكريم على الكتب المقدسة الأخرى من أنه دستور المسلين ولا يوجد له نظير وشبيه في الكتب الأخرى، وأن المصحف الذي لدى المسلمين هو واحد لم يتغير ولم يتبدل منذ أن نزل على صدر محمد ﷺ حتى اليوم، ولا توجد نسخة في العالم الإسلامي والعلم أجمع لا تشابه النسخ الأخرى، بينما تعددت نسخ التوراة بين العبرية والسريانية واليونانية (السبعينية) وتعددت النصوص والروايات في النسخة الواحدة فهناك الرواية الإيلوهيمية والرواية اليهوية والرواية الكهنوتية وغيرها، أما الأناجيل فالقانونية منها التي اتفق عليها بعد القرن الرابع الميلادي هي أربعة: إنجيل لوقا ومتي ويوحنا ومرقس، مع مئات أخرى لم يعترف بها وأهملت بسبب عدم تبني الكنيسة لها عبر التاريخ، وحتى هذه الكتب تعدل وتبدل وتحدث كل فترة من الزمن لمعالجة التناقضات والتعارضات، وحسب ما تراه الفرق والطوائف التي تدين بها. وأما القرآن الكريم فأنه رغم تنحي المسلمون عن موقع الصدارة بين الأمم وانحطاطهم في القرون الأخيرة، مازال كتابهم هو الزاد والمنهل لدعاة المبادئ والأخلاق والحضارة والتطور في كافة الميادين الحضارية والعلمية والاجتماعية، وتراث حضارة القرآن سواء في بغداد ومصر والأندلس هو التراث الثر الذي يقبل عليه أصحاب المبادئ والمنشدون لتحرير البشر من طغيان أقرانهم واستضعافهم واسترقاقهم، مستلهمين قول أحد تلامذة القرآن وهدي نبي الإسلام، وهو الصحابي والخليفة عمر ﷺ وهو يقول: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

كما نجد من معالم الهيمنة القرآنية على الكتب المقدسة، هيمنة قصص القرآن وشمولها وتوافقها مع معطيات العلم الحديث بدرجة مذهلة مقارنة مع الأخطاء العلمية والتاريخية التي نجدها في التوراة والأناجيل الموجودة حالياً. ورغم ذلك التحريف نجد من ملامح الهيمنة القرآنية تلك البشارات العظيمة برسالة الإسلام ونبيه وظهوره وانتصاره مصدقاً لقوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي

---

[٥٨] مختصر ابن كثير ٥٢٤/١.

كانت عليهم﴾ [٥٩].. وقال تعالى: **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل أني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي أسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾** [٦٠]. وقال: **﴿الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم﴾** [٦١].

والدارس للنصوص التاريخية التي تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثنائها يلاحظ أن الناس الذين كانت لديهم صله بكتاب سماوي، كان واضحاً في أذهانهم أنه سيبعث نبي، وكانوا يترقبون ظهوره وأن بعضاً من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبي وهو الرحمة المهداة محمد ﷺ.

فمن ذلك قصه سلمان الفارسي ﷺ المشهورة كما تذكرها كتب السيرة وتنقّله من عالم إلى عالم في النصرانية، إذ كان سلمان من أبناء الكهنة المجوس عبدة النار، فهجر دين قومه وهرب من فارس إلى شمال العراق (الموصل) ثم تركيا ثم دخل أرض الشام (دمشق)، فكان يبقى في خدمة راهب حتى إذا مات أوصاه قبل موته أن يذهب إلى راهب أخر وهكذا، حتى دله أخرهم على الترقب لنبي كاد أن يبعث من أرض العرب وأعطاه دلائل نبوته وكان ذلك سبب مجيئه إلى أرض العرب وسكناه المدينة المنورة. ومن ذلك قصة هرقل مع أبي سفيان في بلاد الشام حين كان قائداً للشرك في مكة ضد دعوة المصطفى ﷺ فسأل هرقل وهو الحاكم الرومي في بلاد الشام أبا سفيان عن النبي ﷺ وصفاته، فقال هرقل في أخر اللقاء: وقد كنت أعلم أنه خارج نبي ولم أكن أعلم أنه منكم[٦٢].

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ عن أبيها وعمها اليهوديين، فقالت: سمعت عمي أبا ياس يقول لأبي (حيي بن أخطب) أهو هو؟ أي المبشر به في التوراة، قال نعم والله، قال: أتثبته وتعرفه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسكَ منه؟ قال: عداوته ما بقيتُ أبداً.

---

[٥٩] سورة الأعراف/ ١٥٦.

[٦٠] سورة الصف/ ٦.

[٦١] سورة الأنعام/ ٢٠.

[٦٢] رواه البخاري.

ومن ذلك قصة إسلام عبد الله بن سلام (الذي كان كاهن يهودي) حيث يروي ابن إسحاق قصة إسلامه، وكان حبراً عالماً، حيث أستقبل النبي في هجرته من مكة إلى المدينة، وكبر لله فرحاً حين رآه وهو في رأس نخلة كان يعمل فيها، فنهرته عمته خالدة بنت الحارث، وقالت: والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت، قال أبن سلام: أي هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به، فقالت: فذاك إذاً ؟ قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

ومن ذلك قصة النجاشي ملك الحبشة وموقفه من الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة، وقوله لجعفر بن أبي طالب أمير مهاجري الحبشة بعد نقاش وعرض، عندما أوفدت قريش عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص لإخراجهم: أشهد أنه رسول الله، وأنه المبشر به عيسى في الإنجيل. وقد أشتهر حديث اليهود للأوس والخزرج عن خروج نبي وكان ذلك من جملة العوامل التي جعلت هذا الاستعداد الكبير للأوس والخزرج للأيمان بدعوة الرسول ﷺ ورسالته بعد أن هجره قومه وحاربوه.

أما البشارات الموجودة في التوراة والإنجيل عن النبي محمد ﷺ-رغم التحريف الذي أصاب الكتب المقدسة- فهي كثيرة وقد استخرجها العلماء من هذه الكتب، وليس هذا مجال أستعرضها، ولكن يمكن أن نشير إلى بعض منها.

ومن ذلك ما جاء في العهد القديم: أن النبي محمدا هو المقصود في سفر التثنية -إصحاح ٣٣: جاء الرب من سيناء وأشرف لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه شريعة لهم.و جاء في النص العبري ما ترجمته : أنه الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران، وجاء مع عشرة آلاف قديس، وخرج من يمينه نار شريعة لهم. والمعلوم عند الجميع أن فاران هي مكة، والشواهد القديمة تشير إلى وجود فاران في مكة، وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيفوس: أن فاران بلد عند العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيله، ونقل مولانا عبد الحق فديارتي في كتابه القيّم (محمدٌ في أسفار الدينية والعالمية) عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٥١: أن إسماعيل سكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر. كما أن سفر العدد

في العهد القديم يفرق بوضوح بين أرض سيناء وأرض فاران، إذ جاء فيه إن بني إسرائيل ارتجلوا من برية سيناء، فحلّت السحابة في برية فاران. و لم يحدث قط أن نبياً سار بقيادة عشرة آلاف قديس (صحابي) غير النبي محمد ﷺ، كما لم يحدث أن نبي قط جاء بشريعة متكاملة بعد موسى عليه السلام غير محمد ﷺ، وفي ذلك تقول التوراة عن موسى عليه السلام: أن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من أخواتكم أبناء إبراهيم. وهذا يصدق على النبي العربي صاحب الشريعة ولا يصدق على نبي من أبناء إبراهيم تقدمه من الزمن[٦٣].

(٦٣) مطلع النور/ العقاد.

بشارات الكتب المقدسة بنبي الإسلام

إن القرآن الكريم يذكر بوضوحٍ في العديد من سوره وآياته إن الكتب السماوية السابقة قد بشرت بمحمد ﷺ فإذا علمنا بأخبار القرآن بذلَك وبأيَمان الكثير من أهل الكتاب في عصر الرسالة بنبوة محمدﷺ ورسالته، كقصةِ سلمان الفارسي وإسلام عبد الله بن سلام وإسلام ملك الحبشة النجاشيَ وموقفه المساند للمهاجرين من السابقين من الصحابة في العصر المكي، فما على الباحث إلا أن يبحث في الكتب المقدسة –رغم تعرضها للحذف والتحريف والتبديل والإضافة– وسيجد الكثير من هذه الإشارات والبشارات بظهور المصطفى ﷺ وانتصار دينه ودولته على باقي الأديان والدول. وسيرى أن الأخبار الواقعة بحق محمدﷺ موجودة وكثيرة إلى حد الآن.

ونحاول أن ننقل في هذا الباب عن الكتب المعتبرة عندهم بعض البشارات الواضحة مستثنين بعض البشارات ذات الدلالات المكررة والبشارات الثانوية وهي كثيرة طلباً للاختصار:

بشارات العهد القديم بنبي الإسلام

البشارة الأولى

جاء قي سفر التكوين/ إصحاح ٢١:

(نادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها :ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو: قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة، وكان الله مع الغلام وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوسى وسكن في برية (فاران) وأخذت له أمه زوجةً من أرض مصر).

والغلام المذكور هو إسماعيل كما جاء في سفر التكوين/ ١٦.

(فولدت هاجر لإبرام أبناً، ودعا إبرام أسم أبنه الذي ولدته هاجر إسماعيل) وإبرام هو إبراهيم في سفر التكوين/ ١٧.

(فلا يدعى اسمك بعد (إبرام) بل يكون اسمك (إبراهيم))، وإسماعيل هو أبو العرب العدنانيين وهو جد النبي محمد ﷺ ، فسمى النص أعلاه أمة محمد عظيمة.

وجاء في سفر التكوين / ١٧:

(وأما إسماعيل فقد سمعت لكَ منه وأنا أباركه وأكثره كثيراً جداً). وفي النص العبراني يختم النص بكلمة (بمادماد)، ويفسر أبن القيم الكلمة (بمادماد) (بمحمدٍ) أي (أكثره بمحمد) فأن الباء تمنع ما ذكره المترجمون من أن المعنى (بجداً جداً) فأنه لا يقال: وأكثره بجداً جداً، بخلاف أعظمه بمحمد وإن (مادماد) هي أقرب كلمة إلى أسم (محمد) ﷺ.

البشارة الثانية

جاء في سفر التثنية/ إصحاح ١٨:

(أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلكَ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيهِ به، ويكون إن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكَلم به باسمي أنا أطالبه، وأما النبي الذي يطغي فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصيه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم إلهة أخرى فيموت ذلك النبي).

في هذا النبي أمارات توضح هذا النبي المبشر به وهو محمد ﷺ منها:

أ- قوله ((أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم)) ولم يقل منهم أي ليس من بني إسرائَيل وأخوتهم هم بنو إسماعيل أو العرب، قال تعالى:

﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ [٦٤] ولم يقل من أخوتهم فدل على أن المقصود أن النبي الذي يقيمه الله من وسط بني إسماعيل، وهو محمد ﷺ، وهو أوسط العرب نسباً.. أي أحسنهم، كما قال المغيرة بن شعبة للمقوقس حاكم مصر حين سأله: كيف نسبه في قومهِ؟ قال: هو أوسطهم نسباً!

ب- قوله (مثلكَ) أي صاحب شريعة مثل موسى، ولم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موَسى كما جاء في سفر التثنية / ٣٤.

جـ- قوله ((أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)) أي يكون أمياً يقرأ كتاب الله في فمه لا من الصحف التي تنزل عليه ألواحاً، كما أنزل التوراة على موسى، فأنها نزلت مكتوبة في الألواح [الخروج/٣١]. وقال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيءٍ﴾ [٦٥].

---

[٦٤] سورة آل عمران/ ١٦٤.

[٦٥] سورة الأعراف/ ١٤٥.

وهو مصداق قوله تعالى:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونهِ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [٦٦].

د- وقوله: (الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم باسمي أنا أطالبه) وهذه علامة من علامات صدق رسول الله ﷺ فقد أنتقم الله من الذين حاربوه ولم يسمعوا لكلام الله الذي تكلم به من المشركين ومن أهل الكتاب فتحققت هذه النبوءة.

هـ- وقوله: ((وأما النبي الذي يطغي... أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي)) والنص الأصلي للعبارة: فأما النبي الذي يجترئ الكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم أمره بأنه يقول، أمر باسم آلهة أخرى فيقتل)) وقد بدلوها إلى (يموت) لسبب معروف. وهذه آية من آيات صدق محمد ﷺ فأنه لم يقتل على كثرة المحاولات، وهي مصداق قوله تعالى:

﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منهُ الوتين﴾ [٦٧].

أن سبب تبديل كلمة (فيقتل) بكلمة (فيموت) من قبل النساخ والطباعين النصارى، لأن عيسى قتل وصلب كما يزعمون، وهم يريدون أن يفسروا هذا النص بحق عيسى بدون دليل معقول، ذلك لأن عيسى عليه السلام من بني إسرائيل وليس من إخوتهم، وهم يزعمون أنه إله، فهو ليس مثل موسى حيث هو نبي وصاحب شريعة، فضلاً عن عقبه قتله الذي زعموه، فلم يجد نفعاً تغيير الكلمة إلى (فيموت) لأن كل إنسان يمَوت، فتصبح العبارة غير ذات معنى، في حين أن النص يذكرها في باب العقاب والتوعد الإلهي للنبي الكاذب فتأمل.

البشارة الثالثة

البشارة الثلاثة جاء في سفر التثنية / ٣٣:

(جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم).

وفي طبعة رتجارد واطس في لندن سنة ١٨٢٢م:

(جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل فاران، ومعه

---

[٦٦] سورة الأعراف/ ١٥٧.

[٦٧] سورة الحاقة/ ٤٤-٤٥

ألوف الأطهار من يمينه سنة النار)٠
وهذا النص بشكليه ينطبق انطباقاً تاماً على سيدنا محمد ﷺ، فقد هذه البشارة مواطن الرسالات اَلثلاث. فقد ذكرت (سيناء) وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، و(ساعير) جبل في أرض الخليل وهو موطن عيسى عليه السلام و(فاران) وهي جبال مكة وأرض مكة بشكل عام، كما هو معلوم من كتب اللغة وكتب أهل الكتاب(٦٨).
فذكر النص أن الرب استعلن من جبل فاران أي من جبل مكة، وهذا ما حصل فقد نزل الوحي على سيدنا محمد من أعلى جبال فاران وهو حراء الذي فيه غار حراءٍ. كما قال (ومعه ألوف الأطهار)، وهذا على محمدﷺ وأصحابه، فقد كانوا ألوفاً أطهاراً، قال تعالى في وصف أصحابه:
﴿فيهِ رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين﴾ ٦٩.
جاء في (الأجوبة الفاخرة): سيناء هو الجبل الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام وساعير هو جبل الخليل في الشام، وكان المسيح عليه السلام يتعبد فيه ويناجي ربه، وفاران هو جبل بني هاشم الذي كان محمد ﷺ يتحنث فيه ويتعبد... وفاران مكة باتفاق أهل الكتاب.و قال :وعلى ذلك يكون قد ذكر الجبال الثلاثة.. وذلك المكان (الذي فيه غار حراء) يسمى فاران إلى هذا اليوم، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولما كان النص يشير إلى ظهور نبي من فاران بعد عيسى، علم أن ليس المراد باستعلانه جبل فاران إلا إرسال محمد ﷺ. وقد علم بالتواتر وباتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربى بمكة هو وأبوه إبراهيم بنيا البيت، فعلم قطعاً أن فاران هي أرض مكة(٧٠).
وقال الماوردي: وإشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى لأنه كانِ سكن ساعير أرض الخليل في قرية الناصرة، واستعلائه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ وفاران هي جبال مكة في قول الجميع.
و ذكرت التوراة: وسكن (إسماعيل) في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر [التكوين /٢١] ومعلوم أن إسماعيل سكن مكة بالإجماع وفي

---

(٦٨) انظر: تاج العروس/ للزبيري/ مادة فرن.
٦٩ سورة التوبة/ ١٠٨.
(٧٠) الأجوبة الفاخرة/ لابن تيمية.

التوراة السامرية التي صدرت سنة ١٨٥١ إن إسماعيل: (سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر).
وفي ذلك قال تعالى في القرآن الكريم:
﴿التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾ [٧١] فذكر التين والزيتون هما موطن عيسى عليه السلام وكثيراً ما تردد في الإنجيل ذكر جبل الزيتون، وذكر طور سيناء وهو الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وذكر مكة وقال هذا البلد الأمين مجمع المواطن الثلاث كما في نص التوراة.

البشارة الرابعة

وجاء في سفر أشعيا / إصحاح ٢١:
(وهي على الغرب من بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب، تبيتين يا قوافل الردانيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء وأوفوا الهارب بخبزه، فأنهم من أمام السيوف قد هربوا من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب، فأنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد قس أبطال بني قيدار تقل لان الرب إله إسرائيل قد تكلم).
وهذا النص فيه دلالة صريحة على نبوة محمد ﷺ فقد نزل الوحي على محمد في الوعر في بلاد العرب في غار حراء، وهو جبل وعر ولم ينزل في السهل كما ذكرت البشارة هجرة محمد من مكة إلى المدينة، وتيماء من أعمال المدينة إلى الشرق منها وإشارة الهرب من أمام السيوف المشدودة وشدة الحربِ تصور اجتماع قريش لقتل النبي فأنجاه الله منهم وقد حاربته قريش حرباً شديدة لا هوادة فيها مدة ثلاثة عشر عاماً.
ثم يشير النص إلى غزوة بدر التي وقعت بعد سنة واحدة من الهجرة وذكر انتصار الرسول ﷺ فيها، وبنو قيدار هم العرب كما هو معلوم لأن قيدار هو ابن إسماعيل.[٧٢]

---

[٧١] سورة التين/ ١.
[٧٢] التكوين/٢٥.

وجاء في (الفارق): أن هذه النص إشارة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة واستقبالهم له وإضافتهم إياه وقيامهم بخدمته، وخص أهالي تيماء لأنهم صالحوا النبي ﷺ، وتيماء هي في وادي القرى من أعمال المدينة كما ذكر ياقوت الحموي في معجمه.

البشارة الخامسة

جاء في سفر أشعيا/ الإصحاح ٩:

(يولد لنا ولد ونعطي ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام، لنمد رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد).

في هذا النص التوراتي إشارات إلى محمد ﷺ من وجوه:

١- قوله: (وتكون الرياسة على كتفه) ويعني بهذا خاتم النبوة الذي على كتف النبي محمد ﷺ، وفي النسخ القديمة (والشامة على كتفه) وهي علامة بدنية جعلها الله في بدنه زيادة في التوضيح فضلاً عن علامات أخرى، عن جابر بن سمرة قال: رأيت خاتماً على ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام[٧٣]. وفي قصة إسلام سلمان الفارسي الذي كان يبحث عن أدلة نبوته التي ذكرها له أحد علماء النصارى الذين خدمهم، كان أحدها خاتم النبوة في ظهره حين كشفه له النبي ﷺ فأسلم.

٢- وقوله: (ويدعى اسمه عجيب)، أي ليس له نظير بين الأسماء سواء عند أهل الكتاب أو حتى عند قومه الذين عجبوا من عبد المطلب حين سماه بهذا الاسم.

٣-قوله: (مشيراً إلها قديراً)، وفي طبعة لندن ١٨٢٢: (مشاوراً لله) أي لا يقول من نفسه ولا يصدر عن هوى كما قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[٧٤].

٤- (أباً أبدياً)، أي لا تنقضي طاعته ولا تنسخ شريعته إلى الأبد، وهذه هي شريعة محمد ﷺ خاتم الأنبياء.

٥- قوله: (رئيس السلام) أي يقر السلام ويدعمه وينشره، ودور النبي محمد ﷺ في ذلك مشهود، وكذلك فإن دين الإسلام مشتق من لفظ السلام، وتحية الإسلام

---

[٧٣] رواه مسلم.

[٧٤] سورة النجم/ ٣.

هي (السلام عليكم). وهناك آيات عديدة تدعو إلى السلام والجنوح للسلم، قال تعالى تأكيداً لمعنى السلام ومنع الإكراه: **﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾** [٧٥]. وكان نصارى الشام وغيرهم ينعمون ويأمنون في ظل الإسلام ما لم ينعموا في ظل نصارى الروم، ولذلك قالوا للمسلمين: (أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا).

٦- أما المقطع الأخير فيشير إلى أن القدس تكون جزء من مملكته، وهو يقيمها يعضدها بالإنصاف والعدل، فإن القدس وفلسطين أصبحت جزء من دار الإسلام وآفاقها وعضدها وستكون كذلك إلى الأبد. وأما سيطرة اليهود الحالية فهو سيطرة مؤقتة كسيطرة الصليبيين، كما تنبأ الرسول الكريم عن مقاتلة المسلمين اليهود والانتصار عليهم، حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله.

البشارة السادسة

جاء في سفر التثنية / إصحاح ٣٢

(هم أ غاروني بما ليس إلهاً. أغاظوني بأباطيلهم. فأنا أغيرهم بما ليس شعباً. بأمة غبية أغيظهم)، وفي طبعة أخرى:

(وهم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم).

والمراد بالشعب الجاهل (العرب)، وقد كان يسمى عصر ما قبل الإسلام بالجاهلية. قال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** [٧٦].

البشارة السابعة

جاء في سفر حزقيال:

(قال حزقيال في نبوته يتهدد اليهود: إن الله مظهرهم عليكم وباعث فيهم نبياً، وينزل عليهم كتابا، ومملكهم رقابكم، فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال بني

---

[٧٥] سورة البقرة/ ٢٥٦.

[٧٦] سورة الجمعة/ ٢.

قيدار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين فيحيطون بكم وتكون عاقبتكم إلى النار). وقد نقله صاحب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) عن النبي دانيال، وجاء فيه: وقال: تنزل الملائكة على خيل بيض. وهذا ما جاءت به الآثار والأخبار المتواترة إن الملائكة كانت تنزل على خيل بيض، فإنها نزلت يوم بدرٍ لنصرة النبي ﷺ وأمته، ونزلت يوم الأحزاب، وأحاطت ببني قريظة، كما تحدث القرآن، قال تعالى في وقعة بدر: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾ [٧٧]، وقال في الأحزاب: ﴿**فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها**﴾ [٧٨].

البشارة الثامنة

جاء في سفر ملاخي / إصحاح ٤:

(ها أنذا أرسل إليكم إيلياء النبي قبل مجيء يوم الحرب العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على أبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن). و(إيليا) ليس علماً على شخص، بل هو رمز كما جاء في (إنجيل مرقس/ إصحاح ٨).

ونحن نرى أن المقصود بإيلياء محمد ﷺ لأمور منها:

١- قوله (ها أنذا أرسل إليكم إيلياء النبي قبل مجيء يوم العظيم المخوف) ومحمد خاتم النبيين، وهو قد أرسل بين يدي الساعة كما هو معلوم.
٢- قوله (فيرد قلب الآباء على الأبناء...) هذه صفة محمد ﷺ الذي ردّ قلب الآباء على الأبناء فمنع قتل الأولاد خشية الفقر، ومنع وأد البنات وأمر بتربيتهم وتعليمهم. ورد قلب الأبناء على الآباء، فجعل طاعة الوالدين بعد طاعة الله. وأمر بحسن صحبتهما ولو كانا مشركين.
٣- إن إيلياء رمز عن أحمد، حسب طريقة بني إسرائيل في حساب أحرف الكلمات، وإذا حسبنا قيمة حروف إيلياء وأحمد نجد أن كلا منهما ثلاثة وخمسون، وكان من طبيعة بني إسرائيل إخفاء الاسم برمزه بما يكافئه في حساب الأبيجاد.

---

[٧٧] سورة الأنفال/ ٩

[٧٨] سورة الأحزاب/ ٩.

البشارة التاسعة

جاء في سفر أشعيا / إصحاح ٤٢:

(لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر).

يشير هذا النص بوضوح إلى بلاد العرب وهي الديار التي سكنها قيدار وطلب فيها أن تبتهج. ثم ذكر المدينة المنورة، فقال: (لتترنم سكان سالع) وسالع هو (سلع) وهو جبل في باب المدينة لا يزال يحمل نفس الاسم.

وهكذا من خلال متابعة بشارات التوراة التي ذكرت أعلاه، فإننا نرى أن الكتب السماوية ذكرت اسمه ونشأته ومكان نزول الوحي وهجرته وخص المدينة بالذكر لأنها دار هجرته ومستقره، فهل هناك بشارات وإشارات أوضح من ذلك رغم التبديل والتحريف والحذف والإضافة والتغيير التي تعرضت لها الكتب المقدسة قبل ظهور الإسلام وبعده عبر القرون؟!.

بشارات العهد الجديد (الإنجيل) بنبي الإسلام

أما في الأناجيل فليس الأمر فيما يخص البشارات بنبي الإسلام ﷺ، بأقل مما في بشارات التوراة، ونذكر جزء منها على سبيل المثال لا الحصر:

البشارة الأولى

جاء في إنجيل يوحنا / إصحاح ١٦/١٥/١٤

(وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقتله لأنه لا يراه ولا يعرفه.. والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلته لكم(١٤).. وإذا جاء الفارقليط الذي أرسله إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الرب فهو يشهد لي(١٥).. إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيه وعلى بر وعلى دينونه.. ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق.

هذه النصوص من طبعة الموصل ١٨٧٦ . والفارقليط هو الحامد أو الحماد أو أحمد . قال ابن تيمية في الأجوبة الفاخرة: والفارقليط عند النصارى الحماد أو الحامد وعند جمهورهم: المخلّص. وذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار صاحب (قصص الأنبياء) أنه سأل الدكتور كارلو نليتو المستشرق الإيطالي المتخصص في الآداب اليهودية واليونانية القديمة، ما معنى بيريكلتوس أو فارقليط فأجابني: إن علماء اللاهوت يقولون إن معناها (المعزّي)، فقلت: إني أسألك أنت يا أستاذ كارلو نليتو، فقال: معناها (الذي له حمد كثير)، فقلت: هل يوافق أفعل التفضيل من (حمد) أي (أحمد) مثلاً. قال: نعم. فقرأت له قوله تعالى:

﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [٧٩] .

وهناك دلائل أخرى في النص تدل على إنه بشارة من الإنجيل بنبي الإسلام محمد ﷺ منها قوله: (ليثبت معلم إلى الأبد) وهي تدل على أن رسالته خالدة إلى يوم الدين. وقوله: (فهو يعلمكم كل شيء) ينطبق على النبي ﷺ كما قال تعالى: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾** [٨٠] .. وهكذا.

البشارة الثانية

بشارات إنجيل برنابا: وهناك كتاب ظهر في أوربا وأحدث ضجة وأخذاً ورداً ثم أهمل هذا الإنجيل بعدها. هذا الكتاب يسمى (إنجيل برنابا) وهو من ضمن الأناجيل الكثيرة التي أوقف العمل بها والتي تزيد على المائة، بعد أن اختارت الكنيسة أربعة منها، وهي الأناجيل القانونية، ولم تعترف بما سواها. وذلك بعد القرن الخامس الميلادي. إن هذا الإنجيل قد أعطى قولاً فصلاً في المسائل الثلاث الأساسية وهي رسالة المسيح ورسالة محمد وعدم صلب المسيح، بما يوافق التصور القرآني تماماً. وقد عرف هذا الإنجيل في التراث المسيحي قبل الإسلام، حيث أصدر البابا جيلاسيوس (٤٩٢م) أمراً ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملتها إنجيل برنابا. ويؤكد د. فرنسيس بوتر: إن إنجيلاً يدعى برنابا استبعدته الكنيسة في عهدها

---

[٧٩] سورة الصف/ ٦.

[٨٠] سورة النحل/ ٨٩.

الأول!.

وقد عثر في القرن الثامن عشر على نسختين منه إيطالية وأسبانية، ثم ترجم في أوربا إلى لغات عديدة. كما إن الحواري (برنابا) هو قديس ممتليء من الروح القدس، تجلّه الكنيسة وتعظمه، وهو مذكور في (أعمال الرسل) بالتجلّة والإكبار. إن إنجيل برنابا يذكر محمداً ﷺ باسمه وصفته ورسالته ودوره في العالم مرات كثيرة، ويحثّ العالم على الإيمان برسالته مبشراً به أوضح البشارات، وهو مما لا يتسع المجال لذكره، وللخلاف حوله اكتفينا بالبشارات أعلاه في التوراة والإنجيل[٨١]. إن هذا التطابق المعجز بين ما أورده القرآن الكريم من أن محمداً ﷺ مبشراً به في الكتب المقدسة وبين البشارات التي نقلنا جزء منها لا تدع مجالاً للشك في نبوة المصطفى وعلى الهيمنة القرآنية على الكتب المقدسة وعلى المصدر الرباني للقرآن الكريم.

[٨١] انظر للتفصيل حول بشارات إنجيل برنابا وغيره، كتاب (إنجيل برنابا) طبع الكويت: ١٩٨٩م، وكتاب: الظاهرة القرآنية والعقل/ للمؤلف.

خلق العالم بين العلم والقرآن والتوراة

يختلف القرآن عن العهد القديم (التوراة) من حيث أنه لا يقدم رواية كاملة عن الخلق، فبدلاً عن الرواية الواحدة المستمرة –كما في التوراة– نجد في أماكن متعددة فقرات تذكر بعض جوانب رواية الخلق، ولابد من تجميع هذه الآيات للحصول على فكرة واضحة عن الطريقة التي سيقت بها هذه الأحداث وليس ذلك الأمر موجود في القرآن، أي تناثر روايات متعددة حول موضوع واحد، يختص بموضوع خلق العالم فقط، وإنما نجد هذه الظاهرة تمثل إحدى الملامح والأساليب القرآنية البارزة في مواضيع كثيرة، كما في قصص الأنبياء أو موضوعات تخص الإنسان أو الحيوان أو النبات وغيرها..

تذكر رواية التوراة تمام الخلق في ستة أيام يتبعها يوم راحة هو يوم السبت، وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع، فيبتدئ الأسبوع بيوم الشمس (الأحد) ثم يوم القمر (الاثنين) حتى يوم السبت. وقد ظهر نتيجة البحث العلمي المقارن للنصوص التوراتية المتعددة والاستقراء أن مفهوم الراحة يوم السبت قد أدخل إلى الفكر اليهودي من قبل كهنة القرن السادس قبل الميلاد، أثناء فترة السبي البابلي كما تسمى في الأدبيات الإسرائيلية، والتي تحث على ممارسة سبت الراحة للتفرغ للعبادة لشد اليهود إلى دينهم وحثهم على الاستمساك بالتعاليم اليهودية التي يشرعها الكهنة في ذلك الوقت من التاريخ اليهودي. فعلى كل يهودي أن يستريح يوم السبت كما فعل الرب بعد أن عمل طيلة أيام الأسبوع الستة.

إن كلمة يوم كما يفهم من التوراة تَعرف بأنها المسافة الزمنية بين إشراقين متوالين للشمس أو غروبين متواليين، وذلك بالنسبة لسكان الأرض أن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة في إطار أسبوع، وذلك بهدف الحث بين الخلق كما تبدو لمن يطالعها، كبناء خيالي مبتكر كان يهدف إلى شيء آخر غير التعريف بالحقيقة فضلاً عن الخلفية الأسطورية للموضوعات المختلفة التي تعالجها.

إن اليوم على وفق التعريف العلمي يرتبط وظيفياً بدوران الأرض حول نفسها. على حين أن العملية المركبة في خلق العالم (السماوات والأرض معاً) ستؤدي إلى ظهور الأرض ودورانها حول الشمس، والتي لم تكن قد أُنشأت بعد عند أولى مراحل الخلق، وذلك بحسب رواية التوراة.

أما إذا رجعنا إلى آيات القرآن حول الموضوع فإننا نقرأ فيها التجانس مع ما

تعلمنا التوراة به، إن القرآن يقول أيضاً بامتداد عملية الخلق على مدى ستة أيام.. قال تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ [٨٢].

فما معنى كلمة يوم الواردة في القرآن؟ هل هو اليوم المكون من الليل والنهار أم يريد القرآن به مراحل وعصور زمنية؟.

إن كلمة (يوم) المفردة تدل على النهار أكثر منها على اليوم الزمني المكون من الليل والنهار، أما إذا جمعت على (أيام)، فإنها لا تعني فقط وحدات زمنية كل منها مكون من أربع وعشرين ساعة، بل تعني أيضاً دهراً طويلاً أو فترة من الزمن غير محددة وإن طالت، ويشير القرآن إلى ذلك المعنى لليوم في قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾ [٨٣] ، وهذه الآية تأتي مباشرة بعد الآية التي تتحدث عن خلق السموات والأرض في ستة أيام في قوله تعالى:

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ [٨٤].

وفي آية أخرى يتحدث القرآن عن الفكرة الزمنية بمعنى العصور والمراحل لمعنى اليوم، فيقول: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [٨٥].

وهكذا فسر العلماء الأيام الستة في خلق العالم الواردة في القرآن الكريم، فقالوا: إن من الواجب تصور تقسيم (مراحل) وليس إلى أيام بالمعنى الذي فهم عادة، بل إلى (نوبات) كما يراه المفسرون الأقدمون. أما المفسرون المعاصرون فيفسرون الأيام التي تذكر في مراحل الخلق بمعنى (فترات طويلة) أو (عصور). وعدد هذه العصور أو الفترات الطويلة أو الدهور هو ستة كما جاء في القرآن أو التوراة. والعلم حالياً لم يسمح للناس بتقرير إن عدد المراحل المختلفة للعمليات الكونية المعقدة التي أدت إلى تشكل العالم هو ستة مراحل، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة

---

[٨٢] سورة الأعراف/ ٥٤.

[٨٣] سورة السجدة/ ٥.

[٨٤] سورة السجدة/ ٤.

[٨٥] سورة المعارج/ ٤.

تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمه وتصبح شيئاً تافهاً. يقول القرآن عن خلق العالم في أطول نص حول الموضوع:

﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [٨٦] .

إن أهم النقاط التي أشارت لها هذه الآيات، الحالة الغازية الأولية (الدخان) للمادة السماوية، والتعريف الرمزي للسماوات بالعدد (٧)، والحوار الرمزي بين الله وبين السماء والأرض في بداية خلقها وهو رمز يعبر عن خضوع السماوات والأرض للأوامر الإلهية بعد تشكلها.

إن هذا النص القرآني الذي يدعو الإنسان لتأمل القدرة الإلهية ابتداء من الأرض وحتى يكمل تأمله الخاص بالسموات، يقدم جزأين معطوفين لكلمة (ثم)، التي تعني (زيادة على ذلك) وان عنت أيضاً (من بعد) والمعنى المقصود هنا، مجرد الإشارة إلى أحداث مرتبة جنباً إلى جنب دون قصد إدخال معنى التوالي على هذه الأحداث، إذ تستطيع فترات خلق السماء أن تكون مصاحبة لفترتي خلق الأرض، وهو ما يتفق مع المفاهيم الحديثة من أن خلق الأرض هو جزء من خلق الكون وإن مراحل تشكلها هي جزء من تشكل الكون عامة. وهذا ما يفسر وجود ثمان مراحل في الآيات أعلاه، ثم تحدد إجمالاً بستة مراحل في آيات أخر، من خلال التداخل المتوقع بين مراحل خلق الأرض ومراحل خلق السماوات، إذ إن مرحلتي تشكل الأرض تقع ضمناً مع مراحل تشكل الكون الستة، علماً بأن فكرة التداخل بحد ذاتها تبين الإعجاز القرآني في طرحه لخلق العالم، فضلاً عن أنها تفسر التناقض الوهمي والظاهر بين المراحل الثمانية والمراحل الستة في خلق العالم.

---

[٨٦] سورة فصلت/ ٩-١٢.

إن القرآن لا يحدد ترتيباً في خلق السماوات والأرض، أي أيهما أسبق وجوداً السماوات أم الأرض، فهناك آيات تشير إلى الأرض أولاً، كما هو الحال في سورة البقرة آية ٢٢٩ وسورة طه آية ٤ التي تشير إلى خلق الأرض قبل السماوات، كما توجد آيات أخرى أكثر عدداً يشار فيها إلى خلق السماوات قبل الأرض (الأعراف/ ٥٤، يونس/ ٣، هود/ ٧، الفرقان/ ٥٩، السجدة/ ٤، الحديد/ ٤، النازعات/ ٢٧-٣٣، الشمس/ ٥-١٠، ق/ ٣٨).

إذن ليس في القرآن ترتيب لخلق العالم، فحرف العطف (و) هو الذي يربط طرفي الجملة، أو حرف (ثم) والذي يشير إلى التوالي والتراخي، أو إلى مجرد وضع عنصر بجانب آخر، قال تعالى: **﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم﴾** [٨٧].

إن وصف نعم الله الدنيوية على الناس ذلك الذي يعبر عنه القرآن في لغة تناسب مزارعاً أو بدوياً في شبه الجزيرة العربية، مسبوقاً بدعوة للتأمل في خلق السماء، ولكن مرحلة مد الأرض وإخصابها تأتي في الآيات بالتحديد من الناحية الزمنية بعد إنجاز عملية توالي الليل والنهار، وذلك يعني بالضرورة أن الأرض كانت موجودة قبل أن تمد، وعليه فقد كانت موجودة حين بنى الله السماوات، وينتج من هذا فكرة التداخل والمصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض، وبناء على ذلك فلا يجب أن نرى أي دلالة خاصة في إشارة النص القرآني إلى خلق الأرض قبل السماوات أو خلق السماوات قبل الأرض، لتتداخل الظاهرتان خلق الأرض وخلق السماوات كونياً وكذلك فمواضع الكلمات في القرآن لا تبين وجود ترتيب تحقق الخلق في إطاره، إلا أن تكون تفصيلات أخرى معطاة، قال تعالى:

---

[٨٧] سورة النازعات/ ٢٧-٣٣.

﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ [88].

إن كلمة (دخان) في الآية ١١ من سورة فصلت، تدل على القوام الغازي للكون (السماوات والأرض) قبل تشكيلها، وتدل أيضاً على أن هذا القوام الغازي قد علق به جزيئات دقيقة قد تنتمي إلى حالات المواد الصلبة أو السائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر.

أما الفتق الوارد في الآية أعلاه من سورة الأنبياء فتشير إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة (كما تدل كلمة رتق). أما الرقم (٧) الذي يخص السماوات المشكلة حسب قول القرآن، فقد يكون معنى تحديداً بذاته سبع سماوات، وقد يكون معناه رمزياً ليدل على تعدد السماوات، حسب عادة العرب في استخدام الرقم سبعة والرقم سبعين ليدلّوا على التعدد دون تحديد ثابت للعدد، كما في قوله تعالى: **﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾**[89]، وقوله: **﴿الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الله من تفاوت﴾** [90].

السماوات إذن متعددة وكذلك الكواكب المشابهة للأرض، كما في قوله تعالى: **﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ ينزل الأمر بينهنّ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾** [91].

وهناك مفهوم آخر يتكلم عنه القرآن حينما يتحدث عن خلق العالم، هو وجود المادة البينية (بين السماوات والأرض)، كما في قوله تعالى:

﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ [92].

---

[88] سورة الأنبياء/ ٣٠.

[89] سورة التوبة/ ٨٠.

[90] سورة الملك/ ٣.

[91] سورة الطلاق/ ١٣.

[92] سورة طه/ ٦.

خلق الكون بين العلم والقرآن والتوراة

قال تعالى: **﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾** [٩٣] أما التعب والراحة التي ذكرتها التوراة وتنسبها إلى الله سبحانه، فقد رد القرآن الكريم على هذه الفكرة التي أقحمها الكهنة اليهود في نص التوراة، قال تعالى: **﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾** [٩٤]. واللغوب وهو التعب، وتبدو هذه الكلمة التي تصرح بأن الخلق لم يتعب الله مطلقاً، كأنها ردّ واضح على فقرة التوراة التي تقول بأن الله استراح في اليوم السابع، بعد العمل الذي أنجز في الأيام التي سبقت، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

إن الإشارة في القرآن إلى: **﴿ما بين السموات والأرض﴾** قد تكررت في آيات القرآن، حيث ذكرت في الآيات: الأنبياء/١٦، الدخان/٧، ٣٧، النبأ/، الحجر/٨٥، الأحقاف/٣، الزخرف/٨٥، وهذه الفكرة القرآنية تشير بوضوح إلى مفهوم علمي معاصر لم يكن معروفاً فيما سبق، وهو وجود مادة كونية (خارج المجرات وهي ما تسمى المواد البينية المنتشرة في الكون). ويمكن أن نلخص المفاهيم القرآنية ذات الطابع العلمي والأعمال المتوافق مع المفاهيم العلمية المعاصرة، فيما يخص خلق العالم والكون والفلك بالآتي:

١- وجود ست مراحل للخلق عموماً.

٢- تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض.

٣- خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تجزأت بعده.

٤- تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض، (أي تعدد العوالم).

٥- وجود خلق وسيط ومادة بينية كونية (بين السماوات والأرض).

---

[٩٣] سورة الفرقان/٥٩.

[٩٤] سورة ق/ ٣٨.

إن مقابلة هذه المعطيات القرآنية مع العلم الحديث عن الخلق، تشير للتطابق والتأيد الكبير الذي تلقاه المعطية القرآنية إزاء المكتشفات المتلاحقة عن خلق الكون وما فيه من ظواهر ومخلوقات. فالمراحل والعصور أو الأيام الست في خلق العالم يمكن معادلتها بسهولة بالعصور الجيولوجية التي شهدها الكون منذ نشأته ولحد الآن، كما إن مفهوم السديم الأول في العلم الحديث يقابل مفهوم الدخان في القرآن، وكذا التداخل بين الشمس كنجم والأرض باعتبارها إحدى الكواكب التابعة لها، يقرب من المفهوم القرآني للتداخل بين خلق السماوات والأرض. وكذا تعدد العوالم والأفلاك والمجرات والشموس والكواكب الشبيهة بالأرض كلها تدعم المفهوم القرآني لتعدد العوالم. أما الخلق الوسيط بين السماوات والأرض في القرآن، فهناك جسور المادة البينية المكتشفة خارج النظم الفلكية المنظمة والتي أصبحت من المفاهيم والحقائق الشائعة بين علماء الفلك والفضاء.

بناء على ما تم استعراضه من نصوص ومفاهيم ومعطيات بين العلم والقرآن والتوراة، فقد بات واضحاً أن المسائل والمعطيات القرآنية إن كانت لم تتلق تماماً توكيداً من المعطيات العلمية حتى يومنا هذا بسبب عدم قدرة الإنسان حتى الآن على استيعاب وتفسير الظواهر الكونية المعقدة ولاسيما خلق العالم وتطور الأجرام السماوية والمجرات الكبيرة جداً. فإنه لا يوجد على أي حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون. وذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن، على حين قد ظهر بوضوح أن نص العهد القديم الذي نملك اليوم، قد أعطى هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية، ومن ذلك (على سبيل المثال لا الحصر) بعض نصوص التوراة التي تقول عن الخلق: (ليكن نوراً فكان نوراً.. وكان مساء وكان صباح اليوم الأول. ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصل بين مياه ومياه.. وكان صباح اليوم السادس، فأكملت السماوات والأرض.. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله.. وبارك اليوم السابع وقدسه لأن فيه

استراح من جميع عمله للخلق، هذه مبادي السماوات والأرض حيث خلقت)[٩٥].

إن وجود هذا الاختلاف بين رواية التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق جدير بالتنويه أمام الاتهامات الاستشراقية المغرضة، والتي تقول باقتباس معطيات القرآن من التوراة، فيما يتعلق بموضوع الخلق الذي نبحثه الآن، فإن هذا القول المزعوم لا يتمتع بأي أساس. كيف يمكن لأي إنسان أن يصحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة في عصر الرسالة. وذلك باستبعاد أخطاء علمية، وبإضافة تفصيلات مهمة، بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيراً صحتها في عصرنا الحاضر!! إن هذا فرض لا يمكن الدفاع عنه. إن القرآن يعطي عن الخلق رواية تختلف تماماً عن رواية ا لتوراة وعن الروايات الأسطورية التي كانت جزءاً من الثقافة الشائعة في عصر الرسالة، إن القرآن بذلك ليدهش العقل البشري المعاصر بطرحه الإعجازي، ويؤكد مصدره الرباني[٩٦].

---

[٩٥] العهد القديم/ سفر التكوين/ ١٠.

[٩٦] انظر للتفصيل: دراسة الكتب المقدسة/ د. موريس بوكاي، ص ٢٥٠ وما بعدها.

الإسلام وعلم الآثار

إن دراسة الآثار الإسلامية المقدسة كجزء من علم الآثار على ضوء التصور القرآني هو أمر ضروري وجزء من أسلمة العلوم عموماً، ولكي نعطي للآثار والمقدسات الإسلامية البعد الواقعي والعلمي فضلاً عن البعد الغيبي الإلهي الذي ركز عليه علماؤنا فيما كتبوا حول الآثار المقدسة وتاريخ الأنبياء.

قبل بضع سنين وقع بين يدي كتاب اسمه (ألواح سومر) للمستشرق صموئيل كريمر –وهو يهودي الأصل–، يوضح هذا الكاتب فيه أن الحضارة العراقية القديمة حضارة سومر وأكد هي حضارة رائدة في التاريخ البشري، ويبين أنها سبقت الحضارات الأخرى في العلوم الأساسية عند الإنسان، كالكتابة والحساب والفلك وغيرها، ثم يحاول الكاتب أن يربط بين هذه الحضارة ومفرداتها، وبين ما هو موجود في الكتاب المقدس (التوراة أو العهد القديم كما اصطلح عليها اليهود والنصارى) دون أن يحدد بشكل واضح أيهما أشمل. وهذا الكتاب هو من جملة الكثير من الكتب والأبحاث والتحقيقات التي كتبها المستشرقون اليهود والنصارى للعناية بتاريخ الشرق القديم وربطها بعلوم التوراة وأطروحاتها وبتطلعات وآمال اليهود. والملفت للنظر أن كريمر يذكر أن هناك جمعيات علمية أسست في أوربا منذ منتصف القرن الثامن عشر للاهتمام بهذه الدراسات وإبراز الأهمية التاريخية والدينية للكتاب المقدس (التوراة)، ومن هذه الجمعيات جمعية الآداب التوراتية أسست سنة ١٨٥٠م، وجمعية الآثار التوراتية أسست سنة ١٨٥٨م. ومن المعلوم إن معظم جهود هذه الجمعيات كانت تهدف بشكل أساسي إلى خدمة التبشير والاستعمار الغربي للشرق الإسلامي، وخدمة الحركة الصهيونية. ولكن بلا شك إن لهذه الجمعيات دوراً مهماً في الإرساليات والاكتشافات الآثارية والأبحاث العلمية لتاريخ الشرق القديم، أي المنطقة الإسلامية والعربية بدرجة أخص، فما هو مجهود علماؤنا وكتابنا في هذا المضمار يا ترى؟

يجمع علماء الآثار وفلاسفة التاريخ والمختصون – العرب وغيرهم– على ملاحظة ملفتة للنظر، وهي الاهتمام المتزايد لإسرائيل والصهاينة بآثار الشرق بشكل عام، وتخصيص مبالغ طائلة لذلك، وتشكيل هيئات ومؤسسات وشركات علمية وتجارية، لغرض جمع وشراء آثاريات الشرق ودراستها وتحليلها لتخدم في النهاية الأهداف الصهيونية الإستراتيجية، والتي قد تمتد إلى قرن من الزمن. ونظراً لأهمية

هذه الظاهرة وخطورتها فينبغي دراستها لكشف أبعادها وأهدافها وأخطارها على تاريخ العرب والمسلمين، والوقوف في وجهها لحماية التاريخ من الدس والتزييف، ورب سائل يسأل: لماذا كل هذا الاهتمام يا ترى؟.. هل هو اهتمام علمي بحت، أم وراءه أهداف سياسية ودينية خبيثة؟. في الحقيقة إن عدونا يحاربنا بكافة الوسائل، ويدخلون علينا من كل الجبهات، وإحدى هذه السبل والجبهات، التاريخ والآثار والصراع التاريخي، بل هو من الوسائل المهمة لتزييف الحقائق والاستحواذ على الأرض ومصادرة الحقوق، إن ما يريده اليهود وإسرائيل وكذلك الغرب الاستعماري هو خلق مبررات تاريخية واقعية (بعد تزييف التاريخ والآثار) للمطالبة بالأراضي والبقاع التي يحلمون بها، سواء في فلسطين أو خارج فلسطين، تحقيقاً للشعار الصهيوني المشهور (من الفرات إلى النيل)، الذي لا يزال حتى اليوم يحمله علم الكيان الصهيوني وعملته المعدنية. وكذا فيما يسمى (مملكة سليمان اليهودية) التي تضم اليمن والحبشة والجزيرة، فضلاً عن العراق والشام ومصر، وفق التفسير الصهيوني للتاريخ القديم، فسبأ وأور وحران ودمشق، فضلاً عن القدس وحيفا ويافا وغيرها من المدن الرئيسية في هذه المملكة التي يحلم بها اليهود منذ زمن، فهذه الأطروحات يمدها اليهود وتغذيها الصهيونية وتحاول دعمها بمفردات من الآثار والتاريخ والتراث الديني اليهودي والنصراني (الصليبي)، وربما ستتحول هذه الأحلام إلى واقع في ظل غفلة المسلمين العلمية وبعدهم عن ساحة الصراع التاريخي والآثاري الذي يخوضه الأعداء منذ قرنين ونحن لا نعلم أبعاده، ولقد قالها الوزير الإسرائيلي (شمعون بيريز) صراحةً للوفود العربية في مفاوضات التطبيع بين العرب وإسرائيل: عليكم أن تغيروا ثقافاتكم.

ومن الكتب الأخرى التي عنيت بدراسة التاريخ والآثار وعلاقتها بالتوراة، وهي ترى في تراث الشرق وأديانه على أنها أساطير الأولين كتاب (الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة) للمؤلفين غريفز (بروتستانتي) وباتاي (يهودي)، ونظراً لتنوع الكتابات حول المعتقدات الدينية وعلاقتها بالتاريخ والآثار، نحاول أن نذكر أهم المدارس والاتجاهات التي بحثت في ذلك وهي:

١- مدرسة المستشرقين اللاهوتيين (الإنجيليين).
٢- مدرسة المستشرقين اليهود الصهاينة (المدرسة الإسرائيلية).
٣- المدرسة الاستشراقية العلمانية (الغربية).

٤- المدرسة الماركسية الإلحادية (الشيوعية).
٥- المدرسة الشعوبية والعرقية الضيقة.
٦- المدرسة القرآنية العربية.

إن هذه المدارس الأولى (الخمس) لا يقابلها إلا المدرسة الإسلامية (القرآنية العربية) لدراسة التاريخ القديم والآثار في شرقنا الإسلامي على ضوء القرآن الكريم والاكتشافات العلمية الحديثة، مع مقارنة ونقد لما موجود في التوراة المحرفة الموجودة بين أيدينا اليوم.

وإنه لمن المناسب جداً قبل ظهور وتبلور المدرسة الإسلامية لدراسة تاريخ الأنبياء والآثار المتعلقة بهم في المستقبل القريب، أن يتم إنشاء جمعية تضم مختلف الاختصاصات والتوجهات للاهتمام بالآداب والآثار القرآنية، ويمكن أن تسمى (جمعية الآداب القرآنية)، ويكون من أهدافها خدمة القرآن ومضامينه بما يستجد من العلوم والآداب سواء اللغوية والبلاغية أو التاريخية والآثارية أو العلمية وغيرها من اختصاصات الأدب والعلم والمعرفة البشرية.

إن عدم تبلور مدرسة إسلامية أو قرآنية لدراسة التاريخ القديم بالذات، قد ولّد عجزاً في الصراع الفكري مع الأعداء أو التحاور بين الحضارة القرآنية وبقية الحضارات البشرية. وجعل المختصين العرب والمسلمين في مجال الآثار والتاريخ القديم بين خيارات لا تخدم الإسلام بحال. بين أن يتبعوا مدارس الاستشراق الإلحادية أو اللاهوتية أو الأسطورية أو العرقية وغيرها، وابتعدوا عن التفسير التوحيدي للتاريخ القديم، ذلك لأن اليهود قد احتكروا التفسير الديني لتاريخ الأنبياء، وأشاعوا فرضية واهية ألا وهي إن التوحيد أصله يهودي، وأن إبراهيم (أبا الأنبياء) هو نبيهم الأكبر، وهو أبو العبرانيين(!)، وبهذا قطعوا الطريق على غيرهم للإدعاء تاريخياً بأن هذا التراث يمكن أن يكون لغيرهم، أو انه تاريخ مشترك للبشرية، ولراية التوحيد والإيمان، وهذا أكبر وأخطر تزييف تاريخي بحاجة إلى تصحيح.

وتصحيح ذلك ليس بالأمر الصعب، بل كل الحقائق التاريخية والآثارية تقول عكس ذلك.. وقد رد القرآن الكريم على تلك الفرية بقوله تعالى:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ [٩٧].

---

[٩٧] سورة آل عمران/ ٦٧.

والتاريخ يقول إن اليهود ظهروا بعد إبراهيم بألف عام تقريباً، والنصارى بعدهم.. ومن أكاذيب اليهود وتزييفهم للتاريخ، نفي صفة الذبيح عن إسماعيل (أبو العرب) وإنه ليس الابن المفضل الأكبر عند إبراهيم، كما نفوا خروجه من فلسطين وسكناه في مكة مع أمه هاجر وما تبع ذلك من تفاصيل تاريخية وآثارية قرب الكعبة، كمقام إبراهيم وبئر زمزم وحجر إسماعيل، والصفا والمروة، فهم يحاولون الطعن في كل تلك الشعائر والآثار بطرقهم الماكرة المعهودة عنهم. وهكذا يحاول الأعداء هدم الإسلام وتحطيم الأساس الديني لقبلة المسلمين ومشروعية ارتباطهم بشجرة الأنبياءِ وبسيدنا إبراهيم، وإنهم ورثة الأنبياء والسائرين على نهجهم إلى يوم الدين. وقد رد على هذه الأكاذيب علماؤنا الأقدمون كالغزالي وابن تيمية، وأثبتوا أنَّ التوراة المحرفة تصرح بهذه الحقائق –رغم تحريفها– واستطاعوا أن يفحموا كل من يقول بخلاف قول القرآن في ذلك.

ولكن الصراع اليوم قد تبدل بين الكفر والإسلام، وظهرت في الآثار قرائن وحقائق هي أسلحة ذات حدين يمكن أن تستخدم لنا أو علينا، فعلى المسلمين الولوج في هذا العلم وأن يكونِ لهم القول الفصل بإذن الله، غير أن ذلك بحاجة إلى جهود علماء مخلصين وكتاب ومتخصصين لإظهار الحقيقة وكشف الزيف والدس الذي جبل عليه المِتعصبون من اليهود وأصحاب المذاهب الاستشراقية.

ورب سائل آخر يسأل عن الدليل الشرعي لإنشاء مدرسة قرآنية أو إسلامية تهتم بدراسة التاريخ القديم أو الآثار بشكل عام والآثار المقدسة بشكل خاص على ضوء معطيات القرآن الكريم والمكتشفات الحديثة.

إن الصراع الفكري والحضاري ميدان مهم من ميادين الصراع بين الحق والباطل، وبين الحقيقة والتزييف. وهو الوجه المكمل لنصرة الحق والإيمان، وإذا لم يكن مبدأ الرد بالمثل على الأعداء وهم يحاولون تزييف التاريخ وتسخير المكتشفات والعلوم الحديثة لأغراض خبيثة، هو دليل شرعي كاف على ضرورة استخدام العلم نفسه لنصرة الحق، وإذا كان رد علمائنا الأقدمين علىٍ شبهات الفلاسفة في عصرهم وبلغتهم لنصرة الحق والعقيدة الإسلامية، ليس كافياً أيضاً. فهناك أدلة عديدة من القرآن والسنة لاستخدام وتسخير العلوم والمعرفة البشرية، ومنها التاريخ والآثار لنصرة ديننا وعقيدتنا. كقوله تعالى: **﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** [٩٨]،

[٩٨] سورة الأنعام/ ١١.

وقوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدء الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾ [٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [١٠٠]. وقوله تعالى:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء...﴾ [١٠١]. وقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ [١٠٢].

ومن الهدي النبوي، قوله ﷺ: خيركم من تعلم القرآن وعلمه[١٠٣]. وقوله ﷺ: الأنبياء إخوة ودينهم واحد[١٠٤]. وقوله ﷺ: الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب[١٠٥]. وقوله ﷺ: حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج[١٠٦].وقوله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم[١٠٧]. وقوله ﷺ في صوم يهود في اليوم العاشر من محرم إحياء لذكرى نجاة موسى عليه السلام من فرعون: نحن أحق بموسى منهم لئن بقيت لقابل لأصومن التاسع والعاشر[١٠٨].

أما إذا أردنا أن نعرف ما يقول القرآن في الآثار والمكتشفات الآثارية، فحسبنا أن نقرأ في القرآن قصة أصحاب الكهف وأصحاب الأخدود.. وقصة نجاة بدن فرعون وقصة أصحاب الفيل وغيرها من قصص الأنبياء مع أقوامهم وآثارهم عن تلك الأيام الغابرة.

---

[٩٩] سورة العنكبوت/٢٠.

[١٠٠] سورة الأنبياء/ ٩٢.

[١٠١] سورة فاطر/ ٢٨.

[١٠٢] سورة فصلت/ ٥٣.

[١٠٣] رواه البخاري.

[١٠٤] رواه مسلم.

[١٠٥] رواه الترمذي وأبو داود.

[١٠٦] رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

[١٠٧] رواه البخاري.

[١٠٨] رواه أصحاب السنن.

نجاة بدن فرعون وآثار أخرى

قال الله تعالى:﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. ءآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ [١٠٩].

كيف يكون بدن فرعون لمن خلفه آية وقد مات ودمر جيشه وغرق في اليم، وهاجر بنو إسرائيل إلى سيناء، ولم يكن لهم ذكر تاريخي في مصر بعد ذلك؟!.

إن القرآن فقط يذكر أن بدن فرعون أنجاه الله ليكون آية للناس، أما التوراة فتقول أنه غرق بجيشه في البحر وأصبحوا طعاماً لعجول البحر، لذلك نجد المستشرق كروابيه، وهو أستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس يسخر من مقولة القرآن هذه: يشير القرآن إلى موت فرعون في سورة يونس (٩٠-٩٢)، وعلى حسب التعبير الشعبي فإن فرعون قد ابتلع بجيشه، وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر أي عجول البحر ولم يستطع أحد أن يكتشف هذا الاختلاف بين القرآن والتوراة حتى جاءت أبحاث علم الآثار ومكتشفات المومياءات المصرية، وبحث العلماء عن فرعون الخروج في زمن موسى ﷺ، وإذا علمنا أن موسى قد عاصر اثنين من الفراعنة المصريين خلال حياته، هما فرعون الاضطهاد الذي نشأ موسى ﷺ في قصره وشب في أحضانه، ثم هاجر إلى مدين بعد أن أصبح خائفاً يترقب بطش فرعون وجنوده، بسبب رده اعتداء أحد جنود فرعون على أحد بني جنسه، وبقي هناك سنين حتى عاد ومعه الرسالة السماوية التي كلّف بها في جبل طور سيناء، فعاد موسى ﷺ مع أهله وبمؤازرة أخيه هارون ﷺ في عهد فرعون آخر، سمته التوراة فرعون الخروج، لأن موسى في زمنه اضطر إلى الخروج والهجرة ببني إسرائيل إلى خارج مصر لإنقاذهم من الاضطهاد والتجبر الفرعوني ومن حياة الوثنية والشرك التي كان الفراعنة في مصر يدينون بها، ولقد حدد علماء الآثار المعاصرون ستة فراعنة، يكون فرعون موسى أو فرعون الخروج أحدهم، وهم من الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة، أبرزهم تحتموس الثالث من الأسرة الثامنة عشر، ورمسيس الثاني ومرنبتاح من الأسرة التاسعة عشر، حيث يحدد المؤرخون

---

[١٠٩] سورة يونس/ ٩٠-٩٢.

زمن خروج موسى عليه السلام في عصر أحد هؤلاء الفراعنة.. والعجيب إن جميع هؤلاء الفراعنة الذين حددهم العلماء على أن أحدهم هو فرعون الخروج، تم حفظ أجسادهم (بدنهم) إلى اليوم بفضل طريقة التحنيط التي اكتشفها المصريون بإلهام من الله تعالى، وبذلك فسر علماء الآثار هذه الآية القرآنية وتعارضها مع التوراة المحرفة في مسألة نجاة بدن فرعون الخروج، والحكمة من هذه النجاة الغريبة بعد أن أغرقه الله في البحر وهو يتبع نبي الله موسى عليه السلام بجيشه، ليكون آية لنا في القرن العشرين وما بعده إلى يوم القيامة، لنرى بأعيننا عقوبة فرعون الخروج وهلاكه، ونجاة بدنه التي ذكرها القرآن الكريم.. وأياً كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة، ويستطيع الزوار أن يروه، وهكذا يظهر أن آثار الفراعنة تؤيد مقولة القرآن وتوضح التناقض الذي يعيشه الكتاب التوارتيون واللاهوتيون حينما يتحدثون عن هذه النقطة.

ومن الآيات البينات والأدلة المهمة على اهتمام القرآن الكريم بآثار الأنبياء والصالحين، دعوة الله سبحانه للاهتمام بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى، إذ يقول تعالى: **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾**،[110] إن في هذه الآية الدعوة للمسلمين لاتخاذ مقام إبراهيم مصلى عند الحج وا لعمرةٍ أو زيارة الكعبة المعظمة، استذكاراً لسيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، واستذكاراً لدوره في بناء الرسالة الإسلامية في عهدها الأول بعد توبة البشرية بعد نوح عليه السلام وظهور إبراهيم عليه السلام برسالة التوحيد من جديد، وذلك هو البعد الديني للاهتمام بمقام إبراهيم عليه السلام، أما البعد التاريخي –وهو ملازم للبعد الديني، مما يدعو لإبراز دور الأنبياء دينياً وتاريخياً بخلاف المألوف حالياً من تسليط الضوء على الدور الديني للأنبياء وإخفاء الدور التاريخي لهم عن قصد، وتثقيف الناس على ذلك، على يد دعاة المدرسة الاستشراقية الغربية. فنرى أن الدور التاريخي لفرعون وسرجون والاسكندر (مثلاً) أبرز من دور إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام–، فإن وجود مقام إبراهيم قرب الكعبة المشرفة وذكر القرآن الكريم له يجسد دور هذا النبي التاريخي في بناء الكعبة، كما يجسد سيرته وسياحته في الشرق (من العراق حتى الحجاز مرورا بفلسطين ومصر) بين مدن العالم القديم: من أور فبابل وحران ودمشق والقدس ومكة ومصر، فإبراهيم بعد هذا الوصف وهذا المقام، هو أبو الأنبياء وأبو رسالة التوحيد وأبو التاريخ الديني الذي ورثته البشرية اليوم،

---

[110] سورة البقرة/ ١٢٥.

وذلك لعدم وجود مقام أو أثر تاريخي معلوم لنبي أو مصلح قبله. إن علم الآثار بهذا الوصف هو من العلوم الإسلامية حين يسير على نهج مبادئ الإسلام، وعلى ضوء هدي القرآن الكريم. وان تأمل الآثار جزء من العقيدة الإسلامية متمثلة بالطواف والصلاة والسعي والزيارة وغيرها من مناسك الإسلام العظيمة. والأمر نفسه ينطبق على الحجر الأسود الذي يعود بنا إلى ما هو أقدم من عصر إبراهيم، إنه عصر بداية البشرية وتشييد أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد، عهد آدم ﷺ.
إنه عهد كانت فيه الملائكة تسير جنباً إلى جنب مع الإنسان لإتمام العبودية لله، قبل ظهور المعاصي والآثام والدماء والفساد والأوثان والأساطير التي سطّرها البشر بإيحاء من الشيطان وبغفلة الإنسان واستغراقه في المعاصي. ويقاس على ذلك بقية الآثار والمقدسات التي تضم تراث الأنبياء، كحجر إسماعيل وبئر زمزم والصفا والمروة والمسجد الأقصى، وآثار الأنبياء في بلاد الشام ومصر والعراق، وكذا الآثار الجليلة في المدينة المنورة للنبي ﷺ وصحبه ﷺ في المسجد النبوي الشريف والبقيع ومساجد المدينة وآثار بدر وأحد وحنين وتبوك، والمساجد والجوامع الإسلامية العريقة ومنها: جامع الكوفة والجامع الأموي في دمشق وجامع الخلفاء وجامع الملوية في العراق والجامع الأزهر في مصر وجامع قرطبة في الأندلس والجوامع العريقة في آسية وأفريقية، فكلها معالم رسالة التوحيد الخالد، ومعالم تمكين الله لجنوده ورسالته.

ومن النصوص القرآنية الأخرى التي تحتاج إلى بحث تاريخي وآثاري لتدعيمها وإظهار الحماية الإلهية للكعبة المشرفة فيها، سورة الفيل، إذ يقول تعالى:
﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول﴾ [١١١].

إن هذه الآيات تصور واقعة تاريخية وآثارية لحملة فاشلة قام بها ملك الحبشة (أبرهة الأشرم) إذ أرسل جيشاً لهدم الكعبة بيت الله الحرام، فدمر الله الجيش وهزمه بدون جيش مقابل له، وهذا من آيات البيت الحرام البينات..

﴿فيه آيات بينات﴾ [١١٢]وهي الحماية الإلهية لبيته العتيق، ولدينه ولمقدسات المسلمين، وهكذا كان العرب حتى قبل الإسلام، على ثقة من أن الله لا يترك بيته لعبث المشركين، حينما طالب عبد المطلب أبرهة أن يعيد إبله التي احتجزها، فحينما رأ ى عبد المطلب أنه لا يستطيع أن يرد جيش أبرهة عن الكعبة قال له: رد لي إبلي،

---

[١١١] سورة الفيل.
[١١٢] سورة آل عمران/ ٩٧.

فأجاب أبرهة: أنا أكلمك عن الكعبة، وأنت تقول إبلي؟ يا لك من شيخ خرف! فقال له عبد المطلب بثقة: أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يحميه. فأرسل الله سبحانه عليه طيراً (أبابيل) ترميه بحجارة من سجيل فأهلكته وجيشه، تماماً كما حصل لفرعون وجيشه وهو يتبع موسى وقومه الضعفاء، حتى إذا أدركهم البحر ظن فرعون أنه أمسك بموسى، فتدخل القدر الإلهي ليحسم الأمر حينما تكون المعركة غير متكافئة، ويكون أهل الحق لا حول لهم ولا قوة في ردع الباطل المتجبر، وفي القول المأثور: حينما يعجز الناس تنزل سفينة نوح.

قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [١١٣].

[١١٣] سورة الأنعام/ ١١.

قصة الطوفان في القرآن والتوراة

بقدم القرآن الكريم رواية شاملة مختلفة لا تثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية والآثارية، كما أن القرآن لا يقدم عن الطوفان رواية مستمرة، فهناك سور عديدة تتحدث عن قوم نوح، وعن العقاب الذي وقع عليهم، إذ أن القصة القرآنية تهدف إلى العبرة والعظة من خلال المنهج التربوي في العرض القرآني، فضلاً عن الهدف التاريخي الموضوعي الذي تتميز به الأطروحة القرآنية لتاريخ الأنبياء وغيرهم. أما أكثر الروايات كمالاً فنجدها في سورة هود (٢٥-٤٩)، أما سورة نوح، والآيات (١٠٥-١١٥) من سورة الشعراء فهي تذكر بشكل خاص موعظة نوح ﷺ ودعوته مع قومه ويأسه منهم بسبب عدم قبولهم رسالته.

ولم يفرق القرآن بين قوم نوح وبقية أقوام الأنبياء كقوم هود وصالح وشعيب وغيرهم من حيث العقوبة التي يستحقها الأقوام والجماعات حين تعرض عن رسالة الله وترفض هدي النبي، والتي يصور القرآن نزول العقوبة على تلك الأقوام التي أذنبت بشكل خطير، وبتعديها على الوصايا والتشريعات الإلهية، فيصيبهم الزلزال والطوفان والريح والأمراض والأوبئة وغيرها مما يسلطه الله على المفسدين.

وحين تتحدث التوراة عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة يشير القرآن على العكس، إلى إنزال العقاب على قوم نوح بوصفهم العاصين، كما يشير إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة من أقوام الأنبياء قال تعالى بشأن قوم فرعون حين عصوا موسى ﷺ: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا﴾**.[114]

وقال تعالى: **﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما . وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا . وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا﴾** [115].

أما سورة الأعراف (٥٩-٩٣)، فتقدم العقوبات التي نزلت على أقوام نوح وعاد وثمود وسدوم ومدين، كل على حدة، وعلى ذلك فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها

---

[114] سورة الفرقان/ ٣٥-٣٦

[115] سورة الفرقان/ ٣٧-٣٩

عقاباً نزل بشكل خاص على قوم نوح، وهذا يشكل فارقاً مهماً بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية.

وهناك فرق آخر مهم بين القرآن والتوراة، وهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان، ولا يعطي أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها.

أما أسباب السيل الذي سبب الطوفان، فهي نفسها تقريباً في الروايتين فتقول رواية التوراة: (في ذلك اليوم انبثقت عيون الماء من الهوة السحيقة، وانفتحت هواويس السماء)[116].

أما القرآن فيقول: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾** [117].

أما محتوى سفينة نوح فيقول القرآن عنه: **﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾** [118].

وتتحدث السورة نفسها عن ابن نوح العاق الملعون الذي عصى أمر الله وكان مع الظالمين، فيقول تعالى: **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾**[119].

فالقرآن يشير إلى من يوجد على السفينة بالإضافة إلى الأسرة عدا هذا الابن، وهم قليلون ممن آمنوا بالله. ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة. وتقول التوراة بان المكان الذي جنحت إليه السفينة هو جبل (أرارات) في أرمينيا كما يحدده التفسير اليهودي النصراني (تكوين/٨). أما القرآن فيحدد اسم الجبل بأنه جبل

---

[116] التكوين/ ٧-١١.

[117] سورة القمر/ ١١-١٢.

[118] سورة هود/ ٤٠.

[119] سورة هود/ ٤٢-٤٦

(الجودي) الواقع في الموصل ثم نجد أن الاكتشافات الجيولوجية والآثارية الحديثة تحدد مكان حدوث ظاهرة الفيضان في مكان قريب من ملتقى دجلة والفرات في العراق غير بعيد من بلدة (أور) حيث ولد إبراهيم ﷺ، فمن الجائز أن يشير النصان إلى قصتين متمايزتين لظاهرة الفيضان، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون في الأمر خطأ قد وقع فيه نساخ الكتب المقدسة، كتلك الأخطاء التي أشار النبي (أرمياء) إليها حين لعن (أقلام النساخ الكاذبة)(١٢٠).

في نهاية الأمر فإن الاختلافات بين رواية القرآن ورواية التوراة موجودة وهي هامة، وبعض هذه الاختلافات لم تطلها يد الفحص النقدي الموضوعي، وإذا ما تم النقد العلمي المحايد يصبح واضحاً عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة، في تقديمها للطوفان بزمنه ومدته وحجمه، مع معطيات العلم الحديث، وعلى العكس من ذلك، فإن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي.

فمن عصر رواية التوراة إلى عصر تنزيل القرآن، هل حصل الناس على معلومات من شأنها أن تلقي نوراً على مثل هذا الاختلاف؟ بالتأكيد لا. فمن العهد القديم إلى عصر القرآن كانت الوثيقة الوحيدة التي في حوزة الناس عن هذه الحكاية القديمة، هي التوراة بالتحديد، وإذا لم تكن العوامل الإنسانية والأسباب الذاتية تستطيع أن تشرح التغييرات التي طرأت على الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة، فيجب أن نقبل شرحاً آخر، وهو أن هناك تنزيلاً من الله تعالى قد جاء بعد التنزيل الذي احتوته التوراة، وهذا ما يعطي تصوراً واضحاً عن صفة الهيمنة القرآنية على الكتب المقدسة لتصحح وتعدل التحريفات التي حدثت في تراث الأنبياء والرسالات الإلهية السابقة عبر القرون. قال تعالى: **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾**[١٢١].

---

(١٢٠) الظاهرة القرآنية/ مالك بن نبي/ ص ٣١٩.

١٢١ سورة البقرة/ ٨٩.

قصة يوسف بين القرآن والتوراة

من خلال قراءة قصة يوسف في القرآن وفي العهد القديم (التوراة) يمكننا أن نقارن بعض العناصر المتشابهة بطريقة تبرز لنا الطابع الخاص بالقرآن الكريم، إن سرد الأحداث التاريخية في كلتا الروايتين واحدة ومتشابهة، ومع ذلك فإن التدقيق يكشف لنا عن اختلافات واضحة ومهمة في التفاصيل. وعن عناصر خاصة تميز إحداهما عن الأخرى، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي يعرضها المشهد القرآني، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه، قال تعالى:

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[١٢٢] .

وامرأة العزيز نفسها التي راودت يوسف عن نفسه، وأغرت زوجها بأن يرسله إلى السجن، تتحدث في القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم فأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها وتقر بخطيئتها، قال تعالى:

﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ [١٢٣] .

أما شخصية يوسف في القرآن، فهي مثال للشاب العفيف الطاهر المستضعف المقيد بأغلال الرق والعبودية وسط جو من الترف والفساد والمغريات.. ومع ذلك ينتصر بإيمانه ويستعلي بربانيته على الرذيلة والمتاع الهابط والخطيئة ويفضل السجن على أن يستجيب لوسوسة الشيطان ونداء الغريزة الفاجرة فيقول: **﴿رب السجن أحب إليَّ مّما يدعونني إليه...﴾** [١٢٤].

---

[١٢٢] سورة يوسف/ ٨٦-٨٧.

[١٢٣] سورة يوسف/ ٥١.

[١٢٤] سورة يوسف/ ٣٣.

وفي السجن يتحدث يوسف عليه السلام بلغة روحية محلقة في عالم ملكوتي منير، سواء مع صاحبيه، أم مع السجان، فهو يمارس دوره كداعية، وهو داخل السجن مثلما يمارسه وهو خارجه، وهو يتحدث كنبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها، ويدعوها للإيمان بخالقها: **﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبد ون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾** [١٢٥] .

إن القرآن يصور جو السجن بدقة، فهو جو يأس السجناء فيه إلا من رحمة الله، وتعد الرؤى والأحلام هي المتنفس الوحيد لهم لخروجهم من هذه الظلمة، وتلك حقيقة من خصائص السجن لا يعلمها إلا من عاش ظلمته، وعايش ذلك الملأ من الناس في معزل عن باقي البشر، لذلك يشير القرآن بوضوح إلى تلك القصة التي تصطبغ بها حياة السجناء، كما إن اليأس وضعف الأمل بالخروج العاجل من ظلمات السجن، يدفع بالسجناء غالباً إلى اللجوء إلى الله وطلب العون والفرج منه، وهكذا ما يمهد للدعاة العمل الناجح والمثمر وسط هؤلاء الناس، مما يجعل صوت الداعية مسموعاً والنفوس مهيأة لقبول دعوته إذا كان من أهل الصلاح والهمة والربانية، وهذا ما حصل مع يوسف، فإنه بدأ كلامه مع السجينين اللذين طلبا منه تفسير الرؤيا التي رآها كل منهما، فبدأ بتذكيرهما وتعليمهما الدين الحق وأهمية الوحدانية في حياة البشر، ثم استأنف يفسر لهم الرؤى والأحلام.

وفي مقابل ذلك النفس الروحاني التوحيدي في القرآن، نجد الرواية التوارتية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية الوثنية، بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث كموحد، وفي الجزء الخاص بتفسير الرؤيا في القصة يرتسم رمز

---

[١٢٥] سورة يوسف/ ٣٧-٤١.

المجاعة في صورة أقل إجادة، فعبارة التوراة هي: فابتلعت السنابل الدقائق السبع السنابل السمينة الممتلئة. أما الرواية القرآنية فتقول: إنها تعقبها فحسب.

والرواية التوراتية تكشف أيضاً عن أخطاء تثبت صفة الوضع التاريخي للفترة التي تناقشها، فمثلاً فقرة: لان المصريين لا يجوز أن يأكلوا مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين.

يمكن للباحث الجزم بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن التي أصابت بني إسرائيل في مصر، وبعد زمن النبي يوسف ﷺ، لأنها وجدت في عصر موسى ﷺ وفترة الاضطهاد وأعمال السخرة التي كان الفراعنة يجبرون بني إسرائيل عليها، والتي مهدت لدعوة موسى ومطالبته من فرعون لإطلاق بني إسرائيل للهجرة من مصر بعد أن رفض الفرعون دعوة التوحيد التي جاء بها موسى ﷺ، حيث كان فرعون الخروج وهو (منبتاح) بن فرعون الاضطهاد وهو (رمسيس الثاني) من الأسرة الثامنة عشر، إن هذه الأحداث من الاضطهاد والسخرة التي وقعت على بني إسرائيل، واحتقار المصريين لهم قد وقعت بعد عصر يوسف لثلاثة قرونٍ على الأقل، وحينها كانت تغيرت حتى الأسرة الحاكمة، من أسرة هكسوسية رحبت بيوسف وأهله وحصل فيها يوسف على موقع مرموق تمثل بوزارة التموين، وبين عصر موسى الذي واجه بنو إسرائيل فيه وضعاً مختلفاً تماماً بعد عودة الوثنية إلى مصر بعد انتصار الفرعون (أحمس) على الهكسوس وطردهم من مصر، وتحول الحكم إلى الأسرة الفرعونية التي ظهر خلال حكمهم موسى وهارونٍ وكان بنو إسرائيل يقاسون الظلم والاضطهاد والقتل والفتك واستحياء النساء فضلاً عن الإذلال والتكليف بالأعمال الشاقة الكبرى بالسخرة كبناء القصور والأهرامات وغيرها مشاركين بقية الشعب المصري من المستضعفين والفقراء والفلاحين لخدمة الإله فرعون بزعمه وحاشيته وكهنته. مما يجعلنا نجزم بالوضع بالنسبة للفقرة أعلاه التي تصور فكرة أن العبرانيين رجس عند المصريين، وهي فكرة لاحقة ولا صلة لها بعصر يوسف ﷺ. كما أن رواية التوراة تتحدث عن استخدام أخوة يوسف في سفرهم (حميراً) بدلاً من الجمال (أو البعير) كما في رواية القرآن، غير أن من المعروف تاريخياً إن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، إذ أن الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة من أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين إلى مصر عبر صحراء سيناء. بينما هذه مهمة البعير إذ هو حيوان بدوي.

وهناك فارق غريب وحساس بين الرواية التوارتية وبين القرآن الكريم، فحاكم مصر يسمى فرعون في التوراة سواء في عصر يوسف أو في عصر موسى، في حين إن القرآن يفرق بين الشخصيتين، فبينما يسميه في عصر موسى (فرعون) مطابقاً للتسمية التوراتية، فإنه يسمى حاكم مصر في زمن يوسف (ملك)، فيا ترى ما السبب وراء هذا الاختلاف؟ إن الحكمة وراء هذا التمييز بقيت غامضة على المفسرين حتى العصر الحديث، حيث ظهر أن المصريين القدماء كانوا يطلقون على حاكم مصر الوطني الذي هو من أصل مصري بأنه (فرعون)، أما إذا كان من خارج مصر فيطلقون عليه اسم (ملك)، وحيث أن مجيء يوسف وأهله إلى مصر كان في زمن الهكسوس وهم من خارج مصر إذ جاءوا من بلاد الشام واستولوا على مصر خلال هذه الفترة، فتكون بذلك التسمية القرآنية. وهذا التمييز المشار إليه هو من العلمية والموضوعية بحيث يعطي للرواية القرآنية استقلاليتها وأصلها الإلهي رغم التشابه الكبير في تفاصيل القصة بين الروايتين.

إن المؤرخين الغربيين أمثال: مونتي ودانيال وروبسي.. وغيرهم من المتخصصين يؤكدون تواكب حركة الهكسوس نحو مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد، مع وصول يوسف وأهله، وإنه في مدينة أفاريس بالدلتا استقبل العاهل الهكسوسي يوسف وإخوته استقبالاً حسناً[١٢٦].

وهناك ألفاظ أخرى اختصت بها الرواية القرآنية، مثل لفظ (العزيز) والاسم العبري في التوراة هو (بوتي فير) ومعناه (العزيز الناصح) أو (العزيز المستشار)، ويقول القس فيجور: إن هذه الكلمة المصرية مركبة ومعناها (عزيز الإله شمس) بزعمهم، وعلى أي من المعاني التي ذكرت، نرى أن التكييف الاشتقاقي القرآني قد حذف اللفظ الإضافي، لتمثله في صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية، وأكثر سهولة وانسيابية مع اللغة العربية، وليتجنب صعوبة الترجمة الصوتية للحرف الأول (p) في كلمة (بوتي)، فإذا به يكتفي بلفظة العزيز التي تنسج مع دور هذه الشخصية في قصة يوسف القرآنية.

وأخيراً فإن نهاية القصة في التوراة تحمل طابع السرد التاريخي، إذ تشتمل الفصول الأخيرة على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر، أما في القرآن الكريم

---

[١٢٦] دراسة الكتب المقدسة/ د. بوكاي/ ص٢٥٥.

فإن ختام القصة يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية في القصة (يوسف) الذي يختم القصة ذلك الختام المنتصر، مؤكداً صدق رؤيا الأنبياء مهما طال الزمن: **﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾**[١٢٧].

[١٢٧] سورة يوسف/ ١٠٠.

الفصل الثالث

دلائل النبوة في القرآن والسنـة.

حضارة القرآن

إن ظهور القرآن الكريم في حياة البشرية منذ أن نزل على قلب المصطفى ﷺ ، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، هو ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ، ذلك لعمق أثره ودوره في التراث الحضاري الإنساني عموماً، وشدة سطوع حضارة القرآن وأثرها على العالم منذ بدء نزول القرآن حتى يومنا هذا، فقد دون التاريخ كل الدقائق المتعلقة بالظاهرة القرآنية والشخصيات المرتبطة بها سواء سيرة النبي ﷺ أو سيرة الصحابة حملة القرآن الكريم والأمناء على تدوينه ونقله إلينا ونشر نوره وتعاليمه إلى العالم أجمع، كما إن القرآن الكريم ظل محافظاً على صحته ونقائه وصفاء مادته من التغيير والخلط والخطأ، حتى أقر العلماء –مسلمون وغير مسلمون– بأن القرآن الذي بين أيدينا هو نفسه القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ قبل أربعة عشر قرناً.

كما إن أثر تعاليم القرآن وحضارته على تاريخ البشرية وحياتها الاجتماعية والثقافية والسياسية واضح كبير، حيث استطاع المسلمون أن يكونوا دولة عظمى على أنقاض أضخم إمبراطوريتين في العالم آنذاك، دولتي (الروم وفارس)، بقوة فيض القرآن ومبادئه وتعاليمه، حيث شهد الشرق المسلم تطوراً سريعاً وعجيباً في كافة الميادين، وقاد البشرية لعدة قرون، وأصبح العالم الإسلامي مركزاً للحضارة الجديدة، والنشاط البشري العلمي والفكري، كما هو معروف تاريخياً في العصر العباسي الأول، ولاسيما عصر الرشيد والمأمون، ودور بيت الحكمة في بغداد حاضرة الخلافة العباسية في النشر والترجمة وتشجيع العلوم والآداب المختلفة.

لذلك فقد حظي القرآن الكريم باهتمام العلماء قديماً وحديثاً، واحتلت علوم القرآن مساحة واسعة في المكتبة الإسلامية والتراث الإسلامي، كالتفاسير والبلاغة والنحو والقصص القرآني وأصول التجويد والقراءات القرآنية والوحي والنبوات ونواحي الإعجاز المختلفة، كالإعجاز الحسي والبلاغي والعلمي، وغير ذلك من العلوم والدراسات التي قام بها علماء ومفكرون في القديم والحديث، منهم مستشرقون وأجانب فضلاً عن العرب والمسلمين، وهكذا قيض الله سبحانه لكتابه من يخدمه بحثاً وتفسيراً ولغةً وقصصاً وعلماً، عبر ذلك التاريخ الطويل، ولعلّنا لا نبالغ ولا نجانب الحق إذا قلنا إن للقرآن الكريم الفضل الأول في الحفاظ على الوجود الإسلامي رغم ما مر بهم من عصور انحطاط وكوارث هددت كيانهم ودورهم الحضاري، لاسيما الهجمات الصليبية والمغولية التي استهدفت الوجود الإسلامي والحضارة الإسلامية، وكان

أشرسها الهجمة الغربية الاستعمارية الصليبية التي بدأت منذ قرنين، ولا زال أثرها الفكري والسياسي والحضاري متمثلاً في الحضارة الغربية المادية الغازية ودورها المعادي في التصدي لحضارة القرآن وتعاليمه ورسالته.

لقد كان القرآن الكريم ولا يزال دستور المسلمين ورمز وحدتهم ووحدة ثقافتهم وتراثهم وحضارتهم، ما تمسكوا به وداروا حول تعاليمه.

إن مفهوم الحضارة العام هو تراث وإنتاج مشترك بين الأمم المختلفة، فضل كل منها بقدر إسهامه، ولقد أسهمت تعاليم القرآن الكريم والتراث الإسلامي عموماً في الحضارة الإسلامية إسهاماً كبيراً. وكان دور الحضارة القرآنية في بناء حضارة اليوم عظيماً من نواح كثيرة، وان كانت الحضارة الغربية المعاصرة قد قصرت في الاستفادة من مثلها وروحها وأفقها الإنساني الرفيع.

ونعني بحضارة القرآن: الرؤية التي أنشأها القرآن الكريم عند المسلمين والتراث الخالد الذي خلفوه في مختلف النشاطات الإنسانية، والتنظيم الإسلامي القائم على العقيدة الإلهية التي أنشأت أمة فريدة، قدم ذلك الإنجاز والإنتاج الفكري المتميز المتنوع الاتجاهات المتجانس الروح، الموحد الهدف، الذي بناه الإسلام ورعاه ووجهه، وهذا الإنتاج قد شاركت فيه أمم متباينة وأجناس متعددة جمعها الإسلام ووحد بينها وصاغها في وحدة روحية وخلف منها مجتمعاً موحداً متكافلاً متعاوناً من اجل نشر رسالة القرآن إلى شَعوب الأرض جميعاً.

وكانت اللغة العربية هي اللغة التي كُتبت بها غالبية هذا التراث، وان ما كُتب بهذه اللغة من الآداب والفلسفة والتاريخ والاجتماع والسياسة والعقائد والفقه والحديث والتفسير والطب والفلك والرياضيات والزراعة والصناعة والعلوم الأخرى، قد فاق كلّ ما كُتب بأي لسان آخر، لاسيما في العصور العباسية والأندلسية.

إن صفة العمق والشمول هي من ملامح حضارة القرآن البارزة، ويصح وصف حضارة القرآن الإسلامية الكاملة الشاملة، بأنها حضارة إنسانية تفتقد الحضارات الأخرى جانباً أو أكثر من جوانبها، أي أنها لكل الناس من ناحية، وإنها ذات نظرة صادقة للإنسان الذي كرمه الإسلام ووضعه في مكانه الطبيعي، وسدد نظرته، فحضارة القرآن إذن تشمل كل تلك المثل العملية التي عاشت في المجتمع الإسلامي، في كل مجال من مجالات الحياة، وإذا كانت الحضارة الغربية المادية اليوم قد اعتمدت في مبدأ أمرها دون تحفظ على تراث الحضارة الإسلامية في الأندلس وبلاد الشام إثر الحروب الصليبية، واستمدت نهضتها العلمية دون قيد إلى

أكبر الحدود من حضارة القرآن من الناحية الفكرية (في العلوم والآداب والفنون)، فإنها لأسباب معينة معلومة لم تستفد إلا بحدود من الجانب الثاني: الجانب العملي الاجتماعي.

والحق أن كل حضارة تفتقد الجانب العملي الخلقي الاجتماعي وتركز على المصلحية والمادية والميكافيلية في التعامل بينِ الأفرادِ والدول والأمم، ستظل حضارة ناقصة عوراء، توجد في النفس والمجتمع فراغاً أساسياً يؤدي ٍفي النهاية إلى شل هذه الحضارة وشذوذها عن سواء السبيل، وتضر بالإنسان فرداً وجماعة، وهذا الجانب هو ما تفتقر إلى الكثير منه حضارة الغرب اليوم(١٢٨)، مما دفعها إلى تقديس القوة وا لمادة والجنوح عن العدل والحق، وإلى ارتكاب الجرائم الإنسانية والتطفيف الدولي واعتماد مقاييس مختلفة في التعامل مع الغير وإلى الكيل بأكثر من مكيال دون الاعتبار بمبدأ أو حق أو ميثاق أو توخي العدالة لاسيما في عهود التنافس الاستعماري الغربي المحموم لدول الشرق في القرنين الأخيرين في الميادين العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية، وصدق الشاعر وهو يصف الانحراف الحضاري والكيل بمكيالين في منظار الغرب المستعمر وهو ينظر مقارناً بين قتل رجل في غابة، وقتلِ شعب آمن بوسائل الغربِ المتحضر الوحشية:

قتلُ امرئٍ في غابةٍ جريمةٌ لا تغتفر   وقتلُ شعبٍ آمنٍ مسألةٌ فيها نظر

إن لحضارة القرآن على البشرية فضل كبير في كافة الميادين، وعلى كافة المشارب. لأن الإسلام أوجد مثلاً ومفاهيم وحضارة خلال القرون الطويلة انتقلت إلىٍ بقاع العالم وأثرت فيه سواء في الشرق أو الغرب، وهم ينعمونٍ بآثار هذا الدين شرفاً وأمناً ورجاءٍ، ولولا الإسلام لكان العالم أجمع أقل وعياً ومثلاً وحضارة وإنسانية، بل لكان غارقاً في ضلاله القديم.

ومعروف أنه يوم جاء الإسلام كانت أحوال العالم كله سيئة جداً، فلولاه وتلك أوضاع العالم، على يد من سيكون الإصلاح لإزالة هذه الأوضاع؟ وعلى الرغمٍ من أن الإسلام أزال تلك الأوضاع في المناطق التي أشرق عليها نوره، فإنه عموماً لم تظهر في غير العالم الإسلامي إصلاحات إلا في عصور متأخرة مختلفة وبتأثير الدفع الإسلامي، بل إن قضية حقوق الإنسان (على سبيل المثال) وأول لائحة لتلك الحقوق ظهرت في انكلترا في عهد الملك جون (الإنكليزي) الذي عاصر السلطان

---

(١٢٨) الحضارة الإسلامية/ د. عبد الرحمن الحجي/ ص١٢.

محمد الناصر في الأندلس والمغرب والناصر صلاح الدين الأيوبي في المشرق، وذلك في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، تلك الوثيقة التي تضمنت فقرات محددة تخص حقوق الإنسانٍ في انكلترا، إن تلك اللائحة المسماةٍ تاريخياً (ماكنا كارتا) قد أكد العلماء استناداً إلى وثائق كشف عنها النقاب مؤخراً من قبل مؤرخين وباحثين في تاريخ العصور الوسطى، مدى الارتباط الوثيق بين تلك اللائحة ونصوص القرآن الكريم الذي أكد منذ ظهوره على الأرض حقوق الإنسان وتكريمه وحفظ دمه وماله وعرضه وحقه في العيش بسلام وأمان وتوفير الحد الأدنى الذي يضمن له حياة حرة كريمة، فلقد أكد هؤلاء على تأثر الملك جون بالقرآن الكريم والاطلاع عليه عن طريق مستشاريه، وذكروا قصة محاولة إسلامه، وتفاوضه للتحالف مع حاكم الأندلس السلطان الناصر، مما دفع خصومه ورجال الكنيسة إلى إجهاض هذه المحاولة، وتشويه صورته ومحاربته سياسياً حتى تم إسقاطه وإسناد أخيه رتجارد (قلب الأسد) ليعتلي العرش بعد هزيمته في فلسطين أمام قوات صلاح الدين الأيوبي، هذا فضلاً عن الأثرِ غير المباشر لنصوص وتعاليم القرآن في صياغة فقرات تلك اللائحة بعد أن مهد الصراع بين الغرب والشرق عبر الحروب الصليبية لإيجاد صلات ثقافية وحضارية بين الطرفين في الأندلس وبلاد الشام، وسهولة انتقال الملامح الحضارية بين الشرق المتحضر والغرب المتخلف والمتأخر آنذاك. ولقد أفاق العالم الغربي على نور الإسلام، وكان يغط في نوم الجهالة والظلام[١٢٩].

إن حضارة القرآنٍ الكريم تميزت عن بقية الحضارات البشرية، بأنها إلهية المصدر، وإنها كانت نوراً إلهي يهدي البشرية سواء السبيل، في توازن وشمول، وهي رؤية سليمة في أصولها ومناهجها، وهي عقيدة ترد الناس إلى خالقهم؟، تهذب شرورهم وشهواتهم، وتحقق لهم إنسانيتهم وتضعهم في المكان الطبيعي، خلفاء في الأرض ليعمروها وليس ليستعمروها وفق المفهوم المادي، هذه هي دعوة القرآن الكريم.

---

(١٢٩) تاريخ أوربا/ فشر،٤٦/١.

القرآن الكريم أصدق وثيقة في التاريخ

لقد أجمع أهل العلم قديماً وحديثاً، سواء المسلمون منهم أو المستشرقون في الشرق أو الغرب، على أن القرآن أصدق وثيقة تاريخية على الإطلاق، مقارنة بالكتب المقدسة الأخرى، أو أي كتاب آخر!!

فقد حافظ القرآن الكريم على مضمونه ونصه بكلماته وحروفه طوال الأربعة عشر قرناً التي مضت، كما حاز على عناية ودقة لم يسبق لها مثيل في عملية الجمع والتدوين في عصر الرسالة ثم في عصر الخلافة الراشدة.

ولعل من المحاولات الجريئة لدراسة الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) هي تلك التي قام بها الكاتب الفرنسي (د. موريس بوكاي) فأخرج لنا كتابه القيم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، ويمكن الاستشهاد ببعض فقرات هذا الكتاب كتوضيح القيمة التاريخية للوثائق المقدسة، وعلى رأسها القرآن الكريم.

يستهل الدكتور بوكاي دراسته هذه بالحديث عن التوراة اليهودية، ثم يقوم بمقارنة بين معطيات العهد القديم والعلم الحديث. ثم يقوم بدراسة مشابهة للأناجيل ومصادرها وتاريخها .. ثم يقوم أيضاً بمقارنة بين معطيات الأناجيل الأربعة فيما بينها، ثم مع معطيات العلم الحديث. ثم يعرض لموضوع القرآن والعلم الحديث، ويناقش صحة القرآن وتاريخ تحريره، ثم يقوم بدراسة مسهبة للقرآن الكريم على ضوء العلم الحديث ليصور بوضوح التوافق العجيب بينهما، واختفاء التناقضات والأمور غير المعقولة التي ظهرت له بمقارنة الكتب المقدسة الأخرى مع العلم الحديث.

ثم يصل إلى استنتاجه الثمين حول القرآن، وإنه ظهر له بالبحث العلمي المحايد الدقيق أن القرآن الكريم أصدق وثيقة في التاريخ على الإطلاق، فيقول: لقد رأينا في أي ظروف وفي أي عصور وبأي طريقة جمعت ونقلت كتابة العناصر التي شكلت العهد القديم والأناجيل والقرآن.

ولما كانت الظروف التي سادت ميلاد كتابات كل من التنزيلات الثلاثة، قد اختلفت اختلافاً شاسعاً. فقد تجمعت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص وببعض جوانب مضامينها.

إن العهد القديم (التوراة) يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً، وهو يشكل مجموعة متنافرة جداً في النصوص عدل البشر

من عناصرها عبر السنين، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل، بحيث أن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جداً في بعض الأحيان.

لقد كان هدف الأناجيل، هو تعريف البشر عبر سرد أفعال وأقوال السيد المسيح ﷺ، بالتعاليم التي أراد أن يتركها لهم عند استكمال رسالته على الأرض، إن الإنجيل لم يكتب بأقلام شهود عيان للأمور التي أخبروا عنها، انه ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة، عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة السيد المسيح العامة، وذلك في شكل أقوال متوارثة شفوية أو مكتوبة اختفت اليوم، بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهي والنصوص النهائية.

لقد كانت النتيجة النهائية لتعدد المصادر هي التناقضات والتعارضات بين النصوص، ولما كان لكتّاب الأناجيل إزاء السيد المسيح نفس الميول إلى تضخيم بعض الأمور، كما هي لدى كتّاب الأدب الملحمي في القرون الوسطى إزاء الملاحم البطولية الغنائية، فكان من نتائج ذلك هو أن الأحداث كانت مقدمة بشكل خاص عند كل راوي، لذلك تبدو صحة الأمور المخبر عنها في العديد من المجالات مشكوك فيها بشكل كبير. وفي هذه الظروف فإن بعض المقولات من الكتابات اليهودية المسيحية (أي من أتباع المسيح من اليهود أنفسهم باعتبار أن المسيح نفسه كان يهودياً؟ من بني إسرائيل من جهة انتمائه العائلي والاجتماعي)[١٣٠]، التي يكون لها علاقة ما بالمعارف الحديثة، يجب أن تدرس بالتحفظ الذي يفرضه المظهر الجدلي لصحتها. إن هذه التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تماماً ووظيفياً مع ما تم دراسته ونقده، ولكن دهشة النصارى تعظم حقاً عندما يدركون كل هذا. فقد كان الجهد عميقاً ومستمراً ذلك الذي قام به كثير من المعلقين اللاهوتيين الرسميين حتى ذلك الوقت، لإخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثة، ذلك الذي أخفاه هؤلاء المعلقون تحت أساليب جدلية ملتوية حاذقة، غارقة في الرومانسية المديحية! ويستطرد بوكاي في استعراض النتائج التي توصل لها في دراسته هذه فيقول:

إن لتنزيل القرآن تاريخاً يختلف تماماً عن تاريخ العهد القديم وتاريخ الأناجيل، فتنزيله يمتد على مدى عشرين عاماً تقريباً، وبمجرد نزول جبريل على النبي ﷺ كان

---

[١٣٠] انظر كتاب: المسيح ولد يهوديا/ مارتن لوثر، مؤسس البروتستانتية.

المؤمنون من صحابته يحفظونه عن ظهر قلب، بل قد سجل كتابة حتى في حياته ﷺ.

إن التجميعات الأخيرة للقرآن التي تمت في خلافة عثمان ﷺ قد استفادت من الرقابة التي مارسها الحفظة من الصحابة، من الذين كانوا يعرفون النص حفظاً بعد أن تعلموه في نفس زمن التنزيل وتلوه دائماً فيما بعد. ومعروف أن النص منذ ذلك العصر قد ظل محفوظاً بشكل دقيق.

إن القرآن (الكريم) لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة، إن القرآن وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية، بل هو يظهر أيضاً – لكل من يشرع في دراسته بموضوعية على ضوء العلوم– طابعه الخاص، وهو التوافق العام مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل التصور بأن إنساناً في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن، وذلك لإخفاق المفسرين الأقدمين في إدراك المعنى العلمي لها، لعدم توافر تلك المعارف في العصور السابقة. ان مقارنة عدد من قصص وروايات التوراة مع نصوص القرآن لنفس تلك القصص والموضوعات، تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً، وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة، وفيما يتعلق بموضوعات ونصوص عديدة نجد فروقاً شديدة الأهمية، تدحض كل ما قيل ادعاء – ودون أدنى دليل– قال بها بعض المستشرقين المتحاملين على الإسلام، عن نقل محمد ﷺ للتوراة حتى بعد نص القرآن.

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف البشر، وهذا بسبب حالة المعارف التي كانت سائدة في عصر النبي ﷺ، لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على انه تعبير عن وحي الله، وان تعطى له مكانة خاصة جداً، حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث إن أضوائه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا، تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي.

عقيمة حقاً المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية(١٣١).

---

(١٣١) دراسة الكتب المقدسة/ الدكتور موريس بوكاي/ ص ٢٩٠.

لقد كانت النتائج التي توصل إليها الدكتور موريس بوكاي بشأن الكتب المقدسة عموماً، وبشأن صحة القرآن الكريم المطلقة وعدم تعارضه مع المعطيات العلمية الحديثة، بل وتوافقه مع العديد من الآراء والنظريات والمكتشفات الحديثة والتي لم تكن معروفة في عصر التنزيل، وكذلك باعتبار بوكاي كاتب غربي محايد، وذلك للتعرف على القيمة التاريخية للوثيقة القرآنية، ومقارنتها مع الكتب المقدسة الأخرى التي اعتراها التبديل والتحريف.

وسنحاول في المواضيع القادمة تفصيل تلك النتائج والدلائل لاسيما في مجال الإعجاز العلمي الحسي والبلاغي للقرآن، وهيمنته على الكتب المقدسة الأخرى، وانسجامه مع المعارف الحديثة والمكتشفات الآثارية والتاريخية المعاصرة، بغية التعرف على علوم القرآن وأضواء حضارته التي هيمنت على العالم ألف عام أو تزيد، ولا تزال البشرية ترتشف من أنواره وتعاليمه رغم عزل سلطانه السياسي والفكري بعد هيمنة الحضارة الغربية على مقدرات العالم في القرون الثلاثة الأخيرة.

قال تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [١٣٢].

---

[١٣٢] سورة الحجر/ ٩.

جمع وتدوين القرآن وقيمته التاريخية

إن صحة القرآن لا تقبل الجدل، يعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة، لا العهد القديم (التوراة) ولا العهد الجديد (الأناجيل). إن التعديلات والتحريفات التي أضيفت إلى التوراة والأناجيل أمر ثابت علمياً وتاريخياً، وذلك قبل أن تستقر حالة العهدين بالحالة التي هي عليها اليوم، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقرآن لسبب بسيط وهو ان القرآن قد دون في عصر النبي ﷺ ولم يتعرض النص القرآني لأي تحريف من يوم أن انزل على النبي ﷺ حتى يومنا هذا.

لقد كان القرآن الكريم، وفور تنزيله وأولاً بأول، يستحفظ في أيدي أمينة، إذ كان النبي ﷺ والحفظة من أصحابه يتلونه عن ظهر قلب، وكان الكتبة من الصحابة (كتّاب الوحي) يدونوه ويكتبونه على الرقاع والجلود وغيرها.

إذن فالقرآن يتمتع منذ البداية بعنصري الصحة (الحفظ والتدوين) اللذين لا تتمتع بهما الكتب المقدسة الأخرى، ذلك لأن الله سبحانه قد تكفل بحفظ القرآن وتولى حفظه بأن هيأ لذلك أسبابه، فقال تعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [١٣٣]، أما الكتب المنزلة الأخرى فقد استودع الله حفظها إلى أهلها، كما قال تعالى: **﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾** [١٣٤] لذلك تحرفت وتبدلت ولم يستطيعوا حفظها من التحريف، لذلك امتاز القرآن بعنصري الصحة وهما الحفظ عن ظهر قلب والتدوين، وظل الأمر هكذا حتى وفاة النبي ﷺ.

وفي عصر الرسالة الذي امتاز بعدم الاهتمام بالكتابة، فلا يستطيع فيه الكل أن يكتب، وان كان يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب، تصبح التلاوة ذات فائدة لا تقدر، وذلك لما توفره من إمكانيات التحقيق العديدة التي تعطيها ساعة التثبت النهائي للنص.

---

[١٣٣] سورة الحجر/ ٩.

[١٣٤] سورة المائدة/ ٤٤.

لقد نزل القرآن على محمد ﷺ، ويبدأ التنزيل بالآيات الأولى من سورة العلق، ثم ينقطع أكثر من سنتين، ليستأنف بعد ذلك طيلة عشرين عاماً، حتى وفاة النبي ﷺ. ويلاحظ من كلمة **﴿اقرأ﴾** في ابتداء الوحي في سورة العلق، أن أحد موضوعات القرآن في مبتدئه هو مدح القلم باعتباره وسيلة إنسانية للمعرفة **﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾**، ومن هنا نفهم اهتمام النبي ﷺ بحفظ القرآن مكتوباً. وهناك نصوص قرآنية فضلاً عن الأحاديث النبوية التي تثبت صراحة أن ما قد أنزل على النبي ﷺ من القرآن في مكة ثم في المدينة فيما بعد، كان مدوناً في صحف خاصة، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾**[١٣٥].

وقال تعالى: **﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة﴾**[١٣٦].

هكذا يخبرنا القرآن نفسه بتسجيله في حياة النبي ﷺ، ومن المعلوم أنه كان حول النبي ﷺ من كتّاب الوحي كتبة عديدون، منهم زيد بن ثابت الصحابي الذي خلّد اسمه، وتجمع المصادر على إن النبي ﷺ كان يدعو واحداً من صحابته المقربين كلما نزل جزء من القرآن ليمليه، ويحدد في الوقت نفسه موقع هذا الجزء الجديد في مجموع ما نزل عليه سلفاً، وتحدد الروايات إن النبي ﷺ كان يطلب إلى كاتبه بعد الإملاء ان يقرأ عليه ما كتب حتى يستطيع أن يصحح ما قد يكون ناقصاً.. وهناك رواية متواترة ومشهورة تقول: بأن النبي ﷺ كان يتلو أمام جبريل في رمضان من كل عام القرآن الذي نزل عليه حينذاك، وان جبريل قد استقرأ النبي ﷺ إياه مرتين في شهر رمضان الذي سبق وفاته، ومن المعروف أيضاً أن المسلمين في زمن النبي ﷺ كانوا قد اعتادوا القيام في شهر رمضان يقرؤون ويسمعون القرآن كله في صلاة التراويح بعد العشاء.

---

[١٣٥] سورة عبس/ ١١-١٦.

[١٣٦] سورة البينة/ ٢-٣.

وتروي كتب السيرة أيضاً إن زيد بن ثابت الأنصاري كاتب النبي ﷺ الأول، كان حاضراً عند آخر تجميع للنص، كما إن هناك كتبة آخرين عديدين وصل عددهم إلى حوالي أربعين صحابياً في بعض الروايات، وذلك يعكس اهتمام النبي ﷺ بعملية التدوين، ومن هؤلاء الحفظة الكتبة أبي بن كعب وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث، وكان هؤلاء بمعية زيد بن ثابت واشتراك عبد الله بن الزبير ممن شاركوا في التجميع الأخير وتدوين القرآن في عهد عثمان، بإشراف مباشر من الخليفة عثمان والإمام علي.

وقد استخدمت أشياء متنوعة لإتمام أول تدوين للقرآن، مثل الرق والجلد والألواح الخشبية وعظام لوح البعير وأحجار الحفر الطرية(١٣٧).

ولكن النبي ﷺ قد أوصى الصحابة في الوقت ذاته بحفظ القرآن عن ظهر قلب ليتلى منه عند الصلاة، وهكذا ظهر الحافظون الذين يعرفون كل القرآن حفظاً وينشرونه، ولقد اتضحت القيمة الثمينة لذلك المنهج المزدوج في حفظ النص عند التدوين النهائي للقرآن.

وبعد وفاة النبي ﷺ بقليل، طلب أبو بكر الصديق ﷺ إلى زيد بن ثابت أول كاتب للنبي ﷺ أن يجمع القرآن ويعد نسخة منه ففعل، وإتباعاً لمشورة عمر ﷺ للخليفة، أن يوكل جمع القرآن وتدوينه إلى لجنة على رأسها زيد بن ثابت، بعد أن استمر القتل بأهل القرآن من الصحابة في حروب الردة، لاسيما في معركة اليمامة، فقد أشار عمر على الخليفة أبي بكر بضرورة جمع القرآن وجعله في مصحف واحد، فكلّف الخليفة مجموعة من الصحابة بذلك منهم زيد بن ثابت وأبي بن كعب وآخرون، وتم العمل برعاية الله سبحانه، وتسخيره كبار الصحابة لانجازه، وقد اتبع زيد بن ثابت وأصحابه أساليب غاية في الدقة والحذر، وأخذ على نفسه أن لا يكتب آية إلا بشهادة شاهدين سمعاها من رسول الله ﷺ مباشرة، كل ذلك لتلافي أي خطأ محتمل وعدم السماح به، وهكذا أمكن الحصول على نسخة أمينة للمصحف، بعد أن تم جمع النسخ التي كانت مكتوبة من قبل كتّاب الوحي والحفاظ من الصحابة،

(١٣٧) انظر: الإتقان في علوم القرآن/ للسيوطي.

وتدقيقها، أثبت كل آية من آياته بعد شهادة شاهدين من الصحابة على نزولها وسماعها من النبي ﷺ وحفظها كذلك.

وكان عمر ﷺ الخليفة الثاني قد احتفظ بالمصحف الأول وأعطاه عند وفاته إلى ابنته حفصة زوج النبي ﷺ.

ثم كلف الخليفة الثالث عثمان ﷺ لجنة من الخبراء بعمل مقابلة للنسخة الكبيرة التي تحمل اسمه، لقد رصدت هذه المقابلة صحة الوثيقة المقامة في عهد أبي بكر ﷺ التي كانت عند حفصة حتى ذلك الوقت، وقد استشارت اللجنة حفّاظ الصحابة، وقد تمت عملية تحقيق صحة النص هذه بمنتهى الدقة، واعتمد مبدأ ضرورة مطابقة الشهادات وذلك لضبط أقل آية تسمح بأي جدل.

هكذا إذن تم جمع القرآن وتدوينه في مرحلته الأخيرة في مصحف عثمان، الذي تتبع السور فيه نفس النظام الذي اتبعه النبي ﷺ في تلاوته الكاملة له، أيام شهر رمضان.

ورب سائل يسأل عن الأسباب التي قادت الخلفاء الراشدين والصحابة معهم إلى القيام بتلك التجمعات والمقابلات..

إن السبب الرئيسي في ذلك هو انتشار الإسلام بسرعة فائقة في العقود الأولى التي تلت وفاة النبي ﷺ، وقد تم هذا الانتشار وسط شعوب كانت تتحدث بلغات غير العربية، وكان لابد من الاحتياطات اللازمة، لضمان انتشار النص في نقائه الأصلي، وكان ذلك هو هدف التدوين والتحقيق الذي قام به الخليفة الثالث عثمان ﷺ.

وبعد اجتماع الصحابة واقتناعهم بمصحف عثمان جمعاً وتدويناً ورسماً، أمر الخليفة بإحراق جميع المصاحف التي كانت متداولة بين المسلمين في الأمصار، لاحتمال إدخال نصوص وتفاسير وإضافات شخصية على المصاحف الفردية. إذ كان لكثير من الصحابة مصاحف خاصة بهم، مدون بحاشيتها تفسير الآيات وأسباب النزول وغيرها، أشهرها مصحف ابن مسعود ومصحف عائشة وغيرها، وقد أرسل عثمان نسخاً من هذا المصحف المحقق إلى كافة الأمصار الإسلامية لاعتماده، وتوجد اليوم في اسطنبول وطاشقند نسخ تنسب إلى عثمان ﷺ، والجدير

بالذكر إن أقدم النسخ المعروفة اليوم والتي وجدت في العالم الإسلامي تطابق كل منها الأخرى تماماً. كذلك الأمر بالنسبة للمخطوطات التي في أوربا كمخطوطة باريس وغيرها.

وهكذا يبدو واضحاً إن القيمة التاريخية للقرآن لا تقارن مع الكتب المقدسة الأخرى، وان النص القرآني لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة ولو بشكل يسير. ونتيجة للتواتر الذي نقل به القرآن من الوحي إلى النبي ﷺ، ثم إلى الكتبة، ثم جمعه وتدوينه في شكله النهائي في عهد عثمان ﷺ، يتميز بشكل فريد بالنسبة لأي كتاب آخر على وجه الأرض، بالصحة المطلقة، فيما يخص النص أو الترتيب –القراءة والصوت– وهو ما يعرف بعلم أصول التجويد، وبقية علوم القرآن المعروفة. ولقد قيض الله لكتابه أفضل الخلق بعد مصطفاه لحفظه في الصدور والكتب، وقد رصدوا وصبغوا حياتهم بمنهجه، فكانوا قرآناً يمشي على الأرض. وقد تعهد الله سبحانه بحفظه إلى يوم الدين..

فقال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

ظاهرة الوحي في حياة النبي محمد ﷺ

روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها تصف كيفية بدء الوحي، قالت: إنه أول ما بدئ به رسول الله ﷺ، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء (أي الخلوة) وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ منَي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

فرجع بها رسول الله ﷺ فرجف فؤاده فدخل على خديجة رضي الله عنها، فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب منه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.. وبعد أن ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، قال له ورقة:

هذا الناموس (أي الوحي) الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً (أي شاباً قوياً) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي بين ستة أشهر وثلاث سنوات.

وقالت السيدة عائشة في الوحي أيضاً: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وقالت: إن الحارث بن هشام ﷺ سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول(١٣٨).

---

(١٣٨) رواه البخاري.

وهناك أحاديث أخرى عن الوحي مروية في الصحاح والسنن والمسانيد يرويها بعض الصحابة مثل جابر بن عبد الله ﷺ وغيره.

إن أحاديث بدء الوحي هذه التي تصور اتصال الوحي بالنبي ﷺ وكيفيته هي الأساس الذي تترتب عليه جميع الحقائق الدينية بعقائدها وتشريعاتها وفهمها واليقين بها، وهما المدخل الذي لابد فيه إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي ﷺ من إخباريات غيبية، وأوامر تشريعية، ذلك أن حقيقة الوحي هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرِّع بواسطة رأيه وعقله، والإنسان الذي يبلغ عن ربه، دون أن يغير أو يزيد أو ينقص.

من اجل ذلك اهتم محترفو التشكيك بالإسلام ورسالته الإلهية بمعالجة موضوع الوحي في حياته ﷺ وقد بذلوا جهداً فكرياً شاقاً -في تكلّف- من أجل التلبيس في حقيقته، والخلط بينه وبين الإلهام وحديث النفس وذلك لعلمهم بأن موضوع الوحي هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد ﷺ من عند الله.

فلئن أتيح تشكيكهم بحقيقته أمكن تشكيكهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد وأحكام، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة، إن كل ما دعا إليه محمد ﷺ من المبادئ والأحكام التشريعية هي من تفكيره الذاتي.

لقد حاول المستشرقون افتراض فروض وتمحلات عديدة للتهرب من الإقرار بنبوة المصطفى ﷺ وحقيقة الوحي الذي أنزله الله إليه، ولذلك نفهم الحكمة الإلهية الباهرة من نزول الوحي عليه ﷺ بهذه الطريقة التي ذكرت في الأحاديث السابقة، لماذا لم يكن الوحي من وراء حجاب، بل جعله الله يري رسول الله جبريل بعيني رأسه؟، ولماذا قذف الله في قلبه الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته؟، ولماذا خشيٍ على نفسه؟، ولماذا انفصل عنه الوحي وفتر؟، فجزع النبي ﷺ بسبب ذلك جزعاً عظيماً؟.

لقد كانت الحكمة الإلهية وراء ذلك، إن يلتمس الدارس لظاهرة الوحي، أنها ظاهرة خارجة عن الذات المحمدية، وأنها لم تكن طوع يديه، ولا جزء من آماله ورغباته، فهي تفتر وتعود، وتظهر بصورة مجسمة في هيئة جبريل حين كان يأتيه، قبل أن تستقر واقعاً في حياته الشريفة حتى وفاته ﷺ.

لقد فوجئ محمد ﷺ وهو في غار حراء بجبريلٍ أمامهِ فرآه بعينه، وهو يقول له (اقرأ) حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجردة، وإنما هو استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس والذات، وضم

الملك إياه وإرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة: اقرأ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى حتى انه قطع خلوته في الغار وأسرع عائداً إلى البيت يرتجف فؤاده، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوقاً للرسالة التي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم. وان ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر بباله، وإنما طرأت على حياته بشكل مثير، وفوجئ بها دون أي توقع سابق. ولأشكك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه عقيدة يؤمن -كما يحاول أن يثيره بعض المستشرقين اللاهوتيين- بالدعوة إليها!.. لأن ذلك لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون، وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف والمفاجئة المتلاحقة.

وحين خشي النبي ﷺ على نفسه من أن الذي أتاه في الغار قد يكون آتياً من الجن، فقال لخديجة: لقد خشيت على نفسي. وقد كان الله ﷻ قادراً أن يربط على قلب رسول الله ﷺ ويطمئن نفسه، بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل (أحد الملائكة) جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس، ولكن الحكمة الإلهية تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية النبي قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان إن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية لم يعد في ذهن النبي ﷺ مسبقاً ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً.

أما انقطاع الوحي بعد ذلك، وتلبثه سنتين تقريباً فينطوي على المعجزة الإلهية الرائعة والحكمة الباهرة التي وردت أعلاه، ورد على خصوم الإسلام من أن الوحي أمر داخلي فرده إلى الذات المحمدية، لقد قضت الحكمة الإلهية ان يحتجب عن النبي الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله قد هجره وقلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحي والرسالة، لسوء قد صدر منه، حتى لقد ضاقت عليه الدنيا.. إلى أن رأى ذات يوم الملك الذي رآه في حراء وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول: يا محمد أنت رسول الله إلى الناس. فعاد مرة أخرى إلى البيت وقد استبد به الخوف والرعب، وهو يقول: دثروني دثروني، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿**يا أيها المدثر قم فانذر...**﴾ الآيات.

إذن فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الصحيح ينطوي على تهديم كل ما يحاول المتشككين من خصوم الإسلام وأعدائه تخييله للناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً ﷺ.

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل نفس الدلالة على حقيقة الوحي، ومنها:

١. التمييز الواضح بين القرآن والحديث النبوي.
٢. كان النبي ﷺ يسأل عن بعض الأمور، فلا يجيب عليها، وربما مر على سكوته زمن طويل، حتى إذا نزلت آية يجيب على سؤال السائل، أرسل في طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن. وربما انطوت بعض الآيات بما يخالف تصرف النبي ﷺ بل على عتب أو لوم له، وهذه الحوادث كثيرة ومتكررة في سيرته ﷺ كما في سورة عبس، حين اعرض عن الأعمى، وقصة أسرى بدر وقصة أصحاب الكهف وغيرها.
٣. كان رسول الله ﷺ أميا.. فلا يمكن والحالة هذه أن يتعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية وعلمية، كقصة يوسف وأم موسى وهي تلقي وليدها في اليم، وقصة فرعون، فضلاً عن الهيمنة القرآنية والدقة العلمية في عرض قصص القرآن مقارنة مع التوراة وتناقضاتها مع الواقع والتاريخ ومكتشفات الآثار الحديثة، قال تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾** [١٣٩].
٤. ليس للفكرة الكتابية أثر في الثقافة والبيئة الجاهلية، التي لم تكن قد تغلغلت فيها لأسباب منها، كما يذكر الأب (لافانس): بعد معتنقيها العرب عن الرعاية المناسبة للكنيسة، وعدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس، سواء التوراة أو الإنجيل، أو ما يسمى –اليوم– بالعهدين القديم والجديد، فضلاً عن إن أمية النبي ﷺ وعدم قدرته على القراءة والكتابة تجعل اثر البيئة الشعوري واللاشعوري عليه ليس له قيمة فيما يخص الظاهرة القرآنية.
٥. إن صدق النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك حتى سموه الصادق الأمين، يستدعي أن يكون صادقاً مع نفسه قبل ذلك. فلابد إذن من إنه قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شيء يعترض يقينه الصادق، وكأن هذه الآية

[١٣٩] سورة العنكبوت/ ٤٨.

جاءت رداً لعكوفه وتفكيره المنهجي مع نفسه لدراسة ظاهرة الوحي واختياره رسولاً من رب العالمين في مبدأ الوحي:

﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾[١٤٠]..

وروي أن النبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: لا أشك ولا أسأل.

[١٤٠] سورة يونس/ ٩٤.

الحياة في رحاب القرآن والهدي النبوي

إن الحياة في رحاب القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.. ولقد صدق أحد أولياء الله الصالحين الذي وصف تلك النعمة بقوله: نحن في نعمة وسعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف..

الحمد لله الذي منَّ على أولئك الصالحين بالحياة في ظل القرآن وهدي السنة فترات من الزمان ضمن كتائب الإيمان منذ عصر الرسالة وإلى يوم الدين، وذاقوا فيها من نعمته ما لم يذق بشر قبلهم ولا بعدهم، فقد ذاقوا في حياتهم المباركة تلك النعمة التي ترفع العمرِ وتزكيه.

لقد عاش الربانيون والصالحون في حياتهم القصيرة، وهم يسمعون الله – سبحانه– يتحدث إليهم بهذا القرآن.. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟

لقد عاشوا –في ظل القرآن والسنة– ينظرون في علّو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة.. ينظرون إلى تعاجب وغرور أهل هذه الأرض، بما لديهم من معرفة الأطفال وتصورات الأطفال واهتماماتهم.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ومحاولاتهم ولهوهم، ويعجبون ويقولون: ما بال هؤلاء الناس؟ ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل.. النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه.

لقد عاشوا ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود، لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني.. ويتساءلون: كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم، وعندها ذلك المرتع الزكي، ذلك المرتقى العالي، وذلك النور الِوضيء؟

لقد عاش الربانيون –في ظل نور القرآن– يحسون ذلك التناسق الجميل بين حركة الإنسان، كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله.. ثم ينظرون إلى ذلك التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي يمليها عليهم الشيطان وأتباعه، وبين فطرة البشر التي فطرها الله عليهم.. ويقولون في ألم: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطا البشر إلى هذا الجحيم؟. يا حسرة على العباد!!!.

وعاشوا دهرهم في أجواء الإيمان والسياحة في ملكوت الله وآياته، وهم يرون الوجود أكبر بكثير من ظاهرة المشهود.. أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه.. إنه عالم الغيب والشهادة، لا عالم الشهادة وحده، وإنه الدنيا والآخرة ، لا هذه الدنيا وحدها.. والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول.. والموت ليس نهاية الرحلة، وإنما هو مرحلة في الطريق، وما تناوله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله، إنما هو قسط من ذلك النصيب، وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع.. على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب، إنما هي رحلة في كون حي مأنوس، وعالم صديق ودود، كون ذي روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع.. قال تعالى: **﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾**[١٤١] أي راحة، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الجميل في تلك الآيات القرآنية المشرقة..

عاشوا يرون الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل ومن بعد لهذا الإنسان على هذه الأرض..

إنه إنسان بنفخة من روح الله.. قال تعالى: **﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾**[١٤٢]. وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض، ذو دور فاعل على هذه الأرض المسخرة له، قال تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾**[١٤٣]. وقال تعالى مشيراً إلى تسخير كل ما في الأرض له: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا﴾**[١٤٤]. ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر، هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة، جعلها آصرة العقيدة في الله، فعقيدة المؤمن أسمى لديه من أي متاعٍ أو عرض زائل في هذه الدنيا الفانية مهما عظم وكبر.

والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شعاب الزمان، إنه واحد من ذلك

---

[١٤١] سورة الإسراء/ ٤٤.

[١٤٢] سورة الحجر/ ٢٩.

[١٤٣] سورة البقرة/ ٣٠.

[١٤٤] سورة الجاثية/ ١٣.

الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومحمد.. عليهم الصلاة والسلام.. قال تعالى: **﴿وإنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾** [١٤٥].

إن هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه مواقف متشابهة وأزمان متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغير المكان وتعدد الأقوام، كما يعرضه القرآن الكريم في سور عديدة ضمن موضوعات قصص الأنبياء وتراثهم الغني، إن هذا الموكب الكريم يواجه –دوماً– الضلال والعمى والطغيان والهوى والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد والإفساد واستحياء النساء والتقتيل.. ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله، متعلقاً بالرجاء فيه، متوقعاً في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد، إذا استمسك بالعروة الوثقى، وخلع الوهن والضعف والاستسلام، وهجر جرثومة الوهن، ممثلة بحب الدنيا وكراهية الموت، كما كان موكب الإيمان في عصر الرسالة، ممثلاً بجيل النبوة الطاهر الزكي الذي استلهم نور القرآن وهدي النبوة ورحيقهما المختوم.. قال تعالى: **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾**،[١٤٦] وقال أيضاً: **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾**[١٤٧].

إنه موقف واحد، وتجربة واحدة، وتهديد واحد، ويقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف، وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد..

وقد تعلم أولئك الصالحون والربانيون أتباع الأنبياء، إنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للغلبة العارضة: **﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾**[١٤٨]. **﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾**.[١٤٩]

---

[١٤٥] سورة الأنبياء/ ٩٢.

[١٤٦] سورة الروم/ ٤٧.

[١٤٧] سورة إبراهيم/ ١٣-١٤.

[١٤٨] سورة القمر/ ٤٩.

[١٤٩] سورة الفرقان/ ٢.

وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة، قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة.. قال تعالى: **﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾**.[150] وقال: **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**[151].

والأسباب التي تعارف الناس عليها، قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها، وقد لا تعقبها، ذلك لأن القرآن والإسلام يعلمنا أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والمقدمات سواء.. قال تعالى: **﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾**[152]. وقال: **﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾**.[153]

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها.. وإن الاطمئنان إلى رحمة الله وعدله، وإلى حكمته وعلمه، هو وحده الملاذ الأمين، والنجوة من الهواجس والوساوس.. قال تعالى:

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾.[154]

ولذلك عاش هؤلاء المؤمنون، مطمئني النفس والسريرة، قريري الضمير، يرون يد الله في كل حادث وفي كل أمر وهم في كنف الله وفي رعايته، يستشعرون فاعلية صفاته تعالى وإيجابيتها.. قال تعالى: **﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾**.[155] وقال: **﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾**،[156] وقوله: **﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[157]وهو **﴿فعّال لما يريد﴾**[158].

---

[150] سورة النساء/ ١٩.

[151] سورة البقرة/ ٢١٦.

[152] سورة الطلاق/ ١.

[153] سورة الإنسان/ ٣٠.

[154] سورة البقرة/ ٢٦٨.

[155] سورة النمل/ ٦٢.

[156] سورة الأنعام/ ١٨.

[157] سورة يوسف/ ٢١.

[158] سورة البروج/ ١٦.

وقولـه: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره﴾**[159]، وقوله تعالى:

﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه﴾[160].

إن الوجود ليس متروكاً لقوانين آلية صماء عمياء، فهناك دائماً وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة.. والله يخلق ما يشاء ويختار.

تلك هي جوانب وأحاسيس من تأملات مؤمن ذاق حلاوة الإيمان وعاش ردحاً مباركاً من عمره في رحاب القرآن والهدي النبوي حتى استنار بنور القرآن وأصبح من الرجال الرواحل الذين أشار إليهم الله سبحانه في سورة النور وفي آية المشكاة بالذات..

قال تعالى: **﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم. في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾**[161].

الحياة في رحاب القرآن والهدي النبوي (٢)

إن الإسلام يسير مع الفطرة البشرية هيناً ليناً، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها، إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة.. والذي لا يتم في هذه الجولة، يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف.. فالزمن ممتد والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل. وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإيمان ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة، ثم يكون دائماً ما يريده الله أن يكون.. والزرعة قد تسفى عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ، وقد يغرقها الري، ولكن الزارع البصير

---

[159] سورة الطلاق/ ٢-٣.

[160] سورة الزمر/ ٣٦.

[161] سورة النور/ ٣٥-٣٧

يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل، فلا يعتسف ولا يقلق ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودودة.. إنه المنهج الإلهي في الوجود كله..

﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[١٦٢].

وإن الحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود، ليس فلتة عابرة ولا مصادفة غير مقصودة.. إن الله سبحانه هو الحق، ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده، قال تعالى: **﴿ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾**[١٦٣].

وقد خلق الله هذا الكون بالحق، لا يتلبس بخلقه الباطل: **﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾**[١٦٤]. **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾**.[١٦٥]

والحق هو قوام هذا الوجود، فإذا حاد عنه فسد وهلك.. **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾**،[١٦٦] ومن ثم فلابد للحق أن يظهر، ولابد للباطل أن يزهق، ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح.. قال تعالى: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾**.[١٦٧]

وكذلك الخير والإحسان والصلاح أصيلة في منهج الله كالحق، باقية بقاءه في الأرض، قال تعالى: **﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾**،[١٦٨] وقال: **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها ويضرب الله الأمثال**

---

[١٦٢] سورة الأحزاب/ ٦٢.

[١٦٣] سورة الحج/ ٦٢.

[١٦٤] سورة يونس/ ٥.

[١٦٥] سورة آل عمران/ ١٩١.

[١٦٦] سورة المؤمنون/ ٧١.

[١٦٧] سورة الأنبياء/ ١٨.

[١٦٨] سورة الرعد/ ١٧.

للناس لعلم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾[١٦٩].

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور القرآني؟ وأي سكينة يفيضها على القلب وأي ثقة في الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع المادي الصغير يسكبها في الضمير؟.

إن التصور القرآني يعطي يقيناً جازماً وحاسماً.. انه لا صلاح لهذه الأرض ولا راحة لهذه البشرية ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله.. والرجوع إلى الله كما يتجلى في المنظور القرآني، له صورة واحدة وطريق واحد، هو العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الخالد.. القرآن الكريم.. وإلا فهو العناد في الأرض، والشقاوة للناس، والإرتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله.. قال تعالى: **﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾**،[١٧٠] وقال: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾**[١٧١].

إن هذه البشرية، هي من صنع الله، لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده -سبحانه- وقد جعل في كتابه العزيز وفي منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء.. قال تعالى: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾**،[١٧٢]

وقال: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾.[١٧٣]

ولكن البشرية عموماً لا تريد أن ترد القفل إلى صائغه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها.. ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجياتها اليومية الصغيرة.. وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز

---

[١٦٩] سورة إبراهيم/ ٢٤-٢٦.

[١٧٠] سورة القصص/ ٥٠.

[١٧١] سورة الأحزاب/ ٣٦.

[١٧٢] سورة الإسراء/ ٨٢.

[١٧٣] سورة الإسراء/ ٩.

مهندس المصنع الذي صنع الجهاز. ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه.. قال تعالى:

﴿إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.[174]

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة، البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير!.

لقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، حين تنحت حضارة القرآن وتعاليمه ومثله، وهدي نبي الإسلام عن واقع الحياة في القرون الأخيرة بعد انحطاط العرب والمسلمين وانزوائهم وتخلفهم، بل واستعمارهم من قبل دعاة الحضارة المادية الغربية بكل أثقالها وطغيانها وبريقها العلمي الزائف الذي يهدف إلى استبعاد البشر ونهب ثرواتهم ومقدراتهم باسم التفوق العلمي والحضاري الذي ابتليت به البشرية في عصرها الأخير.. إنها نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألم بها من نكبات..

لقد كان الإسلام في عصر الرسالة قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، وأسنت الحياة، وتعفنت الحضارات والقيادات، وذاقت البشرية الويلات من تلك القيادات المتعفنة.. قال تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾**.[175]

تسلم الإسلام قيادة البشرية، بهذا القرآن وبهدي الرحمة المهداة ﷺ، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور.. فكان ذلك قولاً جديداً للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته..

لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والنظم، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء.. نعم!.. لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال والعظمة والارتفاع والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق.. بحيث كان لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أراد لها، وحققه في حياتها.. في رحاب منهج

---

[174] سورة الملك/ ١٣-١٤.

[175] سورة الروم/ ٤١.

القرآن وشريعة القرآن..

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة، ونحي الإسلام عن الدور الريادي في واقع الحياة كما نحي عن واقع البشر على الأرض كلها، لاسيما بعد احتلال المغول لبغداد وإنهاء الخلافة العباسية، والثانية بعد الحرب العظمى الأولى وبداية عهد الاستعمار الغربي لأرض العرب والمسلمين، والثالثة باغتصاب فلسطين إقامة دولة الشيطان والفساد والعدوان برعاية الغرب المستعمر بعد الحرب العظمى الثانية في القرن العشرين..

تنحت حضارة القرآن عن دورها الإلهي المرسوم، لتتولى قيادة البشرية الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة، صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!.

وفي ظل الحضارة الغربية المادية تعشعش عصابة من المظلين الخادعين أعداء البشرية، يضعون لها المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى، ثم يقولون لها: اختاري!! اختاري؛ إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!!!.

وهذا خداع لئيم خبيث.. إن المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني، إنما هو منشأ هذا الإبداع، وموجه له الوجهة الصحيحة، ذلك لكي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض، بما وهبه من الطاقات وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة، وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله.

أما تلك العصبة المناهضة لمنهج الله فهم سيئو النية شريرون، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة، كلما تعبت من التيه والحيرة، والضلال، وهمت أن تسمع الصوت الحادي الناصح، صوت الوحي الإلهي الهادي إلى الرشاد، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة، وأن تطمئن إلى كنف الله.. فهم يوهمونها بالسراب والأحلام عن الراحة والسعادة الحقة التي يجدها البشر في طريق الإيمان، طريق النور والقرآن.

الوصايا الخالدة في القرآن الكريم

إن بناء المجتمع الفاضل من أسمى الغايات والأهداف التي يسعى الإنسان لتحقيقها منذ القديم وحتى عصرنا الحالي. وتبذل الدول والجماعات وأصحاب الأديان جهوداً كبيرة من خلال القوانين والإرشادات والتشريعات ونشر الوعي لبناء الأسس الرصينة لهذا المجتمع، ولا يتم ذلك إلا بإحياء الخلاق الفاضلة، وزرع الصفات الحميدة في الفرد والأسرة لتنمو بعدها وتتفاعل داخل المجتمع بشكل عام، فيسعد بها المجتمع ويحس من خلالها بالأمن والسلام والراحة والسكينة والسعادة داخل كيان الفرد والأسرة فيغدو المجتمع مؤهلاً لبناء حضارة رائدة ينير طريق الأجيال كما حصل مراراً في تاريخنا المجيد.

والسؤال الذي يرد بهذا الخصوص، هو: كيف تزرع هذه الأخلاق والأعراف الطيبة والفضائل الزكية في أعماق الضمير لتنبت رويداً رويداً بين أفراد الأسرة والمجتمع؟ وفي ذلك يقول الشاعر:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات

يجيبنا القرآن الكريم والسيرة العطرة للنبي ﷺ على ذلك السؤال، ويقدم لنا النموذج الكامل سواء على مستوى الفرد أو المجتمع.

ويمكننا عند قراءتنا للقرآن الكريم الوقوف على العديد من الآيات التي تشير إلى مثل هذه التعاليم الربانية المثيرة وتوجيهات الله سبحانه لعباده والأخلاق الكريمة التي أوصانا بها الخالق جل وعلا، ضمن الوصايا القرآنية المبثوثة في سوره وآياته.. وحيث إن الدين يشتمل بشكل عام على عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، فإن القسم الأخير هو ما يهمنا هنا، لتسليط الضوء على الوصايا الخالدة في القرآن الكريم، والتي تحث على الأخلاق الفاضلة وتحذر من الارتكاس في الخطيئة وسبل الشر والشيطان. تلك الوصايا التي تدعو إلى الأخلاق والمثل والفضائل لبناء المجتمع الفاضل الذي يسير على منهج الله وتعاليمه، وعلى هدي النبوة التي تحث على الطهر والعفاف والزهد وتزكية النفوس من خلال حياة النبي ﷺ العملية وسيرته العطرة، باعتباره الإنسان القدوة والأسوة الحسنة لغيره في كل ما صدر عنه من فعل وقول وسلوك، وهو الذي قال في الحديث المشهور: إنما بعثت لأتمم مكارم

الأخلاق[١٧٦] ، فليست رسالته سوى إكمال وإتمام الأخلاق الفاضلة التي كانت عند قومه وضرورة المحافظة عليها، ونذير لخطورة فقدانها بين أفراد المجتمع، ويؤكد الشعراء أهمية الأخلاق في حياة الأمم فيقول أحدِهم:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد آخر أهميتها في حياة الفرد فيقول:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاقِ تستقم

ولو تتبعنا جميع وصايا القرآن الكريم، أسلوب استخرج الآيات التي ورد فيها ذكر كلمة (وصية) ومشتقاتها مثل: (وصى، وصاكم، وصايا) وغيرها بالاستعانة ببرنامج القرآن الكريم في الحاسوب، لتحديد الآية والسورة، لوجدنا العديد من الآيات المباركات التي تذكر فيها كلمة (وصية) ومشتقاتها، ويمكن أن نحدد بسهولة عشرة مواقع واضحة تشير إلى وصايا إلهية مهمة في القرآن الكريم، والعدد عشرة هو نفسه عدد الوصايا الشهيرة في سورة الأنعام، وقد كانت هذه الوصايا القرآنية العشر مبثوثة في عشر سور من سور القرآن الكريم، وأولى هذه الوصايا العشر وهي الوصايا الجامعة في سورة الأنعام، ويبرر تقديمها على غيرها ووضعها في مقدمة وصايا القرآن أنها قد احتوت على الوصايا العشر الجامعة كما سيأتي، ثم تتوالى بقية الوصايا من سورة البقرة.. حتى سورة الأحقاف، ويمكن الرجوع بعد استخراج هذه الآيات إلى بعض كتب التفسير المعروفة الحديثة كصفوة التفاسير أو زبدة التفسير أو الظلال أو غيرها، مما تمتاز به هذه التفاسير من سهولة الأسلوب واختصارٍ في شرح الآيات وجزالة في المستوى الأدبي، لتناغم الجوهر الأخلاقي للموضوع مع المظهر الأدبي الفني لاستخراج الصور القرآنية البديعة والجمال الخالد للتعاليم الإلهية.

إن مفهوم الوصايا العشر أو الوصايا الخالدة له صدى مؤثر في التراث الديني التوحيدي، وفي الكتب السماوية بشكل عام، فعند اليهود توجد الوصايا الموسوية العشرة التي سبقت نزول التوراة، حسب التصور اليهودي، كما إنها مذكورة في العهد القديم، ومكررة بتغيير بسيط في العهد الجديد (الإنجيل) أيضاً، وقبل أن

---

[١٧٦] رواه البخاري.

نذكر تلك الوصايا الخالدة في تراث أهل الكتاب، نذكرها كما جاءت في القرآن الكريم، لنعلم وحدة الدين، وان الذي أنزله على البشر هو خالق واحد، حفظ لنا الرسالة الخاتمة بعدما شهد التاريخ الديني عبث البشر بالرسالات السماوية وتحريفها، فأنعم الله سبحانه بالوصايا الخالدة الواضحة النقية ضمن كتابه المعجز الخالد، فأصبح هو الكتاب المقدس الذي لم يدنس بتغيير أو تحريف، قال تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[177].

يقول الله تعالى مشيراً إلى الوصايا العشر الخالدة في سورة الأنعام: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[178].

أما في التوراة فيذكر المؤرخ ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول، ص٣١) الوصايا العشر الواردة في التوراة بالنص التالي: الرب إلهك واحد. لا تحنث بيمينك، احفظ يوم السبت، أكرم والديك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تتمن منزل أخيك، لا تتمنَّ قينة رفيقك.

والإنجيل ردد هذه الأحكام السبعة المذكورة في التوراة بعد دمج بعضها مع شبيهاتها، وزاد عليها الحث على محبة الغير، فجاء بزيادة واحدة على ما في التوراة.

ويشير القرآن بعد ذكر الوصايا في سورة الأنعام، إلى أن مثل هذه الوصايا أوحيت إلى موسى عليه السلام في التوراة كما أوحيت إلى النبي محمد ﷺ في القرآن تأكيداً على هذه الرسالة، ووحدة الدين والأخلاق عبر الزمن والعصور. ووحدة الدين يعبر عن وحدة الأصل والمصدر ولا علاقة له بمفهوم وحدة الأديان الذي يحاول أن يشيعه أصحاب الدعوات الهدامة والمداهنة هنا وهناك.

---

[177] سورة الحجر/ ٩.

[178] سورة الأنعام/ ١٥١-١٥٣.

وفي الحديث الشريف توضيح لمفهوم وحدة الدين، قال رسول الله ﷺ: الأنبياء أخوة ودينهم واحد[179]. وهو دين الإسلام، والخضوع والعبودية لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[180].

ويلاحظ من يقرأ الوصايا العشر في سورة الأنعام ملاحظة أخرى مهمة، ألا وهي أن هناك تأكيد على الوصايا الإلهية يتكرر ثلاث مرات خلال مقاطع الآيات التي تتحدث عن هذه الوصايا وبالصيغة التالية: **﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾** ثم **﴿لعلكم تذكرون﴾** ثم **﴿لعلكم تتقون﴾**.

وهكذا ينبه القرآن الكريم المربين والمهتمين بتوجيه وبناء المجتمع على ضرورة التدرج في البناء عبر مراحل عديدة تبدأ بالتعقل والإدراك للوصايا الأخلاقية ثم استعادتها وتذكرها على الدوام بواسطة الموجهين والمربين والخطباء والقادة المخلصين، ثم في النهاية الوصول بالمجتمع إلى مرحلة التقوى والإيمان العميق بتلك القيم وذلك بامتزاجها بشغاف القلوب مع بقية القيم والمبادئ الإيمانية، وفي تلك المرحلة فقط يصل المجتمع إلى النموذج الأعلى الفاضل الذي يسير على المنهج الرباني وهو الصراط المستقيم وسبيل المؤمنين **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[181].

وفي نقل هذه الوصايا الخالدة المذكورة في سورة الأنعام وأهميتها ودورها في بناء جيل النبوة ما جاء في السيرة العطرة من أحاديث وأخبار شريفة، عديدة، وان النبي ﷺ قد بايع أصحابه على التمسك بها وحفظها وعدم التفريط بها، فقد روى ابن كثير في تفسيره عن ابن مسعود ﷺ انه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هذه الآيات **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم﴾**... إلى قوله تعالى **﴿لعلكم تتقون﴾**. وروى الحاكم في مسنده عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: أيكم يبايعني على ثلاث، ثم تلا رسول الله ﷺ: **﴿قل تعالوا ما حرم ربكم...﴾**

---

(١٧٩) رواه مسلم.

١٨٠ سورة آل عمران/ ١٩.

١٨١ سورة الانعام/ ١٥٣.

وروى الحاكم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: في سورة الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾**.

تلك هي الوصايا الخالدة في سورة الأنعام وما لها من فضل ودور وأثر تربوي فاعل في المجتمع، وما لها من صلة منيرة مع جملة الوصايا في الكتب السماوية السابقة، مما يؤكد وحدة الدين والأصل والوحي والناموس الذي أنار حضارة الإنسان على الأرض بنور الله ووحيه وتوجيهاته المستمرة لبني آدم، لكي لا يجنحوا عن الصراط السوي إلى غيره من السبل، فتفرق بهم عن سبيله القويم، ففي حديث السبيل الذي يرويه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ توضيح لذلك المفهوم القرآني المشرق، قال: خط رسل الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**[١٨٢].

أما بقية سور القرآن التي تتحدث عن الوصايا الخالدة، فهي وصية القصاص في سورة البقرة، ووصية مال اليتيم وقسمة المواريث في سورة النساء، وشهادة العدل في سورة المائدة، ووصية الوالدين في سورة العنكبوت، ووصية الآباء والمربين إلى الأبناء في سورة لقمان، ووصية وحدة الرسالة والدين في سورة الشورى، ووصية التوبة بعد الأربعين في سورة الأحقاف، وبإضافة وصية سورة الأنعام تصبح لدى المسلم عشر وصايا في عشر سور من الوصايا الخالدة في القرآن الكريم.

---

[١٨٢] رواه الحاكم والنسائي والبزّار وابن ماجة.

مقارنة بين وصايا القرآن ووصايا التوراة والإنجيل

بعدما استعرضنا الوصايا العشرة الخالدة في سورة الأنعام، ولتمام الفائدة، نحاول أن نقارن بشكل أولي تبيين تلك الوصايا في القرآن الكريم والوصايا الموسوية في التوراة والوصايا المسيحية في الإنجيل، بغية الوقوف على مزايا القرآن وهيمنته على الكتب المقدسة السابقة ومدى الكمال في المنظور القرآني.

إننا نجد في التوراة أحكاماً عديدة تتعلق بالأخلاق، منها سبعة تعدّ أصولاً، وليس من هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابي وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بهما، أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهي النواهي المسبوقة بحرف النهي (لا): لا تقتل، لا تسرق، لاتزن، لا تشهد على جارك، لا تطمع في مال جارك، وبعض هذه الأصول داخلة في بعض، فهي في الحقيقة أربعة.

إما الأناجيل فقد رددت هذه الأحكام السبعة كما هي في التوراة، وزاد عليها: الحث على محبة الغير، فجاءت بزيادة واحدة على ما في التوراة[١٨٣].

أما القرآن فقد جاء بأحكام كثيرة في المعاشرة وبقوانين مفصلة في المعاملات، وأفاض فيما كان نهراً فجعل منه بحراً، وفي الليلة التي أسري فيها برسول الله ﷺ أعطى الله أهل الإسلام أحد عشر حكماً أساسياً، منها واحد في التوحيد، وكلها مذكورة في وصايا بناء الأسرة والمجتمع في سورة الإسراء (الآيات ٢٣-٣٩)، وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر وخمسة سلبية تسمى نواهي. ويمكن إيجازها بالوصايا التالية بعد وصية التوحيد:

١- بر الوالدين وطاعتهما في المعروف.
٢- إيتاء كل ذي حق حقه.
٣- الإحسان إلى اليتامى.
٤- الوزن بالقسطاس المستقيم وإيفاء الكيل.
٥- الوفاء بالعهد.

هذه الوصايا الخمسة هي أمور إيجابية تمثل الأوامر.

---

[١٨٣] انظر الرسالة المحمدية/ السيد سلطان الدوري / ص ٢١٢.

أما النواهي والتي تمثل الأمور السلبية فهي:
١- لا تقتل أولادك.
٢- لا تقتل نفساً.
٣- لا تقرب الزنا.
٤-لا تقف ما ليس لك به علم.
٥-لا تبذر في النفقة واقتصد فيها.

نقرأ كل تلك الوصايا الإلهية في سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا. ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا﴾.[١٨٤]

فإذا قارنا بين ما جاء به القرآن الكريم من الأحكام الأساسية والوصايا التربوية، وما جاء به كل من التوراة والإنجيل، تتبين لنا حقيقة الرسالة المحمدية والمفاهيم القرآنية، ويتضح لنا أنها أكملت ما كان ناقصاً في الرسالات السابقة التي

[١٨٤] سورة الإسراء/ ٢٣- ٣٩.

لم تهتم بذكر الأحكام الأساسية ولم تقتصر رسالة الإسلام على تكميل هذا النقص، بل عنيت بحل معضلات المجتمع البشري في الأخلاق، فوجه القرآن الكريم الإنسانية إلى الطريق الأمثل ونبه الإنسان إلى نقائصه وعيوبه وأمراضه النفسية، ووصف له دواء كل داء ومرض من أمراض النفوس، وأخذ بيده إلى الجادة الوسطى في الأعمال والأخلاق والمعاملات.. ولو شئنا أن نعبر عن جميع تعاليم الإسلام ووصايا القرآن الكريم بأسلوب موجز، جاز لنا أن نعبر عنها بكلمتين وجيزتين: الإيمان والعمل الصالح، وهي تدور حول شيئين رئيسيين هما: الحق والخير، تلك هي أهم مقومات الأخلاق الفاضلة في حياة الأمم والشعوب.

قال تعالى: **﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيرا﴾**[185] . وقال: **﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا . وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾**[186] .

أما في سورة الأنعام، فإن الوصايا الإلهية الخالدة مذكورة وحسب الترتيب الآتي:

١. لا تشرك بالله.
٢. الإحسان بالوالدين.
٣. لا تقتلوا أولادكم.
٤. لا تقربوا الفواحش.
٥. لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق.
٦. لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.
٧. إيفاء الكيل والميزان بالقسط.
٨. إذا قلتم فاعدلوا.
٩. الإيفاء بعهد الله.
١٠. إتباع الصراط المستقيم.

وهكذا تتدفق الوصايا الإلهية التي تشكل أقباساً مشرقة في العديد من سور القرآن الكريم وآياته.

---

[185] سورة الإسراء/ ٩.

[186] سورة الفرقان/ ٣٠-٣١.

تدوين السنة النبوية وقيمتها التاريخية

ليس القرآن هو المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة في الإسلام، بل إن السنة النبوية من أفعال النبي ﷺ وأقواله هي المصدر الثاني الذي عني العلماء بطلبه تبياناً للمصدر الأول، حتى في أثناء حياة النبي ﷺ، فضلاً عنه بعد وفاته، إلا أن النبي ﷺ نهى عن كتابة الحديث في البداية تجنباً للخلط الذي يمكن أن يحدث مع نصوص القرآن، حتى إذا اتضحت معالم النص القرآني وزال مثل هذا الاحتمال سمح النبي ﷺ لبعض صحابته بكتابة ما يريدون كتابته من الأحاديث، كما هو الحال بالنسبة لعبد الله بن عمرو وغيره، غير أن المعلومات الرئيسية لهذا المصدر (الحديث) كانت تعتمد على النقل الشفهي، سواء في عصر الصحابة، أو في عصر التابعين، مع وجود بعض المسانيد والكتابات لدى بعض الصحابة والتابعين، لذلك فإن العلماء الذين بادروا إلى جمع هذه الأقوال والأفعال والإقرارات في نصوص، قد قاموا بتحقيقات تتسم دائماً بالصعوبة، كما هو الشأن في حالة جمع الأخبار للأحداث بعد انقضائها، ولهذا كان همُّ المحدثين الأول في عملهم العسير في مدوناتهم منصباً أولاً على دقة الضبط لهذه المقولات الخاصة بكل حادثة في حياة النبي ﷺ وبكل قول من أقواله، والدليل على ذلك الاهتمام بالدقة والضبط لمجموعات الأحاديث المعتمدة، أنهم قد نصوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبي ﷺ وأفعاله، فيما يسمى بعلم مصطلح الحديث بالسند، وذلك بالصعود بالإسناد إلى الأول من صحابة النبي ﷺ ممن نقلوا هذه المعلومات والأحاديث مباشرة من النبي ﷺ نفسه، وذلك بغية الكشف عن حال الراوي في جميع سلسلة الرواية والابتعاد عن الرواة غير المشهود لهم بحسن السيرة وصدق الرواية والحفظ ونحو ذلك من دلائل ضعف الراوي، الموجبة لعدم الاعتماد على الحديث الذي روي عن طريقه، في ما يسمى بعملية جرح وتعديل الراوي في علم الجرح والتعديل أو علم ميزان الرجال الذي ابتدعه المسلمون لتدقيق الروايات والأخبار من حيث السند (أي الرواة) أو المتن (أي النص)، وهو ما انفرد به علماء الإسلام في كل ما روي عن نبيهم ﷺ، وهو ما أدهش كثير من الكتاب والمؤرخين من المستشرقين حتى قال أحدهم: لو أراد العرب (أو المسلمون) أن يفتخروا بشيء في التراث الإسلامي، فليفتخروا بعلم الحديث. وذلك للدقة المتناهية عند المحدثين ولحساسية علم الحديث وتحري الدقة التامة في جمع الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، حتى أن الإمام البخاري وهو أشهر علماء الحديث في

التراث الإسلامي على الإطلاق ، اضطر أن يسافر من بلده إلى بلد آخر باحثاً عن حديث واحد قيل له أنه عند فلان في مصر من الأمصار الإسلامية، قاطعاً مئات الأميال، ليسمع من هذا الشخص حديث رسولِ الله ﷺ، وحين وصل إليه رآه يحاول أن يمسك فرسه بالخديعة، عندما قدم لها طعاماً في ثوبه حتى إذا توقفت أمسك بها، فقال له البخاري: إن الذي لديه الاستعداد أن يكذب على الفرس يمكن أن يكذب على النبي ﷺ، ولم يأخذ الحديث، وقفل راجعاً إلى بلده.

وفي ختام الأعمال الكبيرة والطويلة والشاقة التي قام بها علماء الحديث التي بدأت في حياة النبي ﷺ ثم نشطت بعد وفاته، وتكاملت في أوائل القرن الثالث الهجري، ظهرت للوجود مجموعات أقوال وأفعال النبي ﷺ، وأصبحت تعرف في العلوم الإسلامية بـ(علم الحديث)، وسميت هذه الكتب بالصحاح والمسانيد فضلاً عن تصانيف أخرى في علم الرجال والتراجم والجرح والتعديل والموضوعات وغيرها مما له صلة وثيقة بعلم الحديث.

وقد نشرت أول مجموعة للأحاديث النبوية بعد عشرات السنين من وفاة النبي ﷺ، ولكنها كانت محدودة نسبةٍ إلى التراث الشفوي الذي تناقله الرواة والمحدثين، وكان أشهر كتب الحديث التي كتبت في نهاية القرن الأول الهجري هو كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، ثم مسند الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام زيد، ثم مسند الإمام أحمد بن حنبل الذي ظهر في القرن الثاني الهجري، وان أضخم كتب الحديث لم يظهر إلا بعد مضي أكثرٍ من قرنين على وفاة النبي ﷺ، وهي التي جمعت أوسع المعلومات وأوثقها، ويعد صحيح البخاري بصورة عامة أكثر الكتب صحة بعد القرآن، إضافة إلى الكتب الصحيحة الأخرى مثل صحيح مسلم والترمذي وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم وغيرها، مما هو معروف اليوم، وأشهر كتب الحديث عند الجمهور هي الكتب التسعة المذكورة أعلاه. أما كتب الحديث عند الإمامية فلم تظهر للوجود إلا في القرن الرابع الهجري وفي العهد البويهي، بعد أن أصبح للإمامية تراثهم المستقل عن بقية جمهور المسلمين، وأشهرها كتب الحديث الأربعة الأولى، وهي: الكافي/ للكليني، والاستبصار والتهذيب/ للطوسي، ومن لا يحضره الفقيه/ للقمي، ثم ظهرت في القرون الأخيرة أربعة كتب متأخرة للإمامية في العصر الصفوي أشهرها: كتاب بحار الأنوار/ للمجلسي، والوافي/ للطبرسي وغيرها.

أما الجمهور فقد استمر علماء الحديث بالاهتمام بالسنة النبوية وبالتراث العظيم للحديث النبوي، وظهرت العديد من المصنفات والكتب الأخرى لعلماء آخرين

كالطبراني والبزّار والرازي والذهبي وابن كثيرٍ وغيرهم من مشاهير العلماء، وقد صنفت الأحاديث في كتب الجمهور عموماً –عدا الشيخين اللذين قصرا كتابيهما على الحديث الصحيح فقط– إلى أحاديث صحيحة وحسنة وأحياناً ضعيفة. وصنفت للأحاديث الموضوعة والمكذوبة مصنفات مستقلة لتبيان وجه الوضع والعلة فيها. أما علم الجرح والتعديل الذي اهتم بالرواة وسند الحديث عموماً، فكان همه أن يبين درجة الراوي في السلسلة، من حيث الضبط والدقة والحفظ (أو النسيان) والتدليس والكذب (أو درجة الصدق) والعقيدة والورع والأمانة و(العدالة) والتعريف وشرط اللقاء والمعاصرة بين الراوي الأعلى والأدنى وغير ذلك من المواصفات الدينية والاجتماعية والسياسية والشخصية وغيرها، لتنقية الرواية من أيٍ لبس أو عيب أو علة، والحصول على الرواية الصحيحة سنداً، ثم مناقشتها متناً (نصاً) لموافاتها بشروط المتن الصحيح من حيث الأسلوب والمعنى وعدم تعارضها مع نصوص القرآن والسنة الأخرى.. حتى يستطيع المحدث أن يحكم على صحة الحديث، أي الحكم بصحته كأن يقال صححه البخاري أو الحاكم أو الترمذي أو الذهبي أو غيرهم.

وفي هذا المقام، نرى أنه يمكن المقارنة (مثلاً) بين مصنفات الأحاديث النبوية وبين الأناجيل، من حيث النص والسند ومن حيث أصول النصوص فيها، إذ إن هناك سمة مشتركة فيما بينها جميعها، من حيث إن هذه المجموعات والأناجيل، قد كتبت كلها بأقلام كتّاب لم يكونوا من شهود العيان، لما قد نقلوه من الوقائع. كما إنها لم تظهر للوجود إلا بعد انقضاء مدة على الأحداث التي تتكلم عنها. وكذلك فإن مجموعات الأحاديث هي مثل الأناجيل من حيث أنها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة، ولهذا فإن أصحاب الاختصاص في علم الحديث (علماء الحديث والرجال) لم يقبلوا من هذه الأحاديث التي كانت متداولة شفوياً إلا بنسبة قليلة، فالبخاري مثلاً استخرج أربعة آلاف حديث صحيح من بين مجموع ستمائة ألف حديث. وفي المصنفات الأخرى أصبح من الممكن أن يوجد الحديث الصحيح مع الحسن والضعيف وحتى الأحاديث الموضوعة، أحياناً في المصنفات المتأخرة أو في كتب التفسير والسير وعلوم الدين والتصوف والوعظ فيما يسمى بتساهل العلماء في الترهيب والترغيب. وقد حسم أمر الأحاديث من حيث الصحة والضعف والوضع في التراث الإسلامي بشكل واضح للدارسين.

غير أنه على عكس الأناجيل القانونية التي لم يتناولها الاعتراض أو النقد، برغم أنها كتبت بأقلام كتاب لم يكونوا أيضاً من شهود العيان لما قد نقلوه، فإن

الأحاديث بضمنها الصحيحة، قد خضعت كلها لفحوص نقدية عميقة قام بها كبار العلماء لتحديد درجتي القبول والعمل بها، ولكن الكتاب الأساسي (أي القرآن) قد ظل المرجع الذي لا يمكن أن يكون محلاً للجدل في صحة نصوصه، وذلك لأنه نقل عن النبي ﷺ بصورة إجماعية متواترة وسجل عنه في أيام حياته بأقلام كتاب كانوا كلهم شهود عيان لما سجلوا، أما الأحاديث فقد صنفت بعد فرز الأحاديث الموضوعة كذباً على النبي ﷺ، إلى ضعيف وحسن وصحيح من حيث السند والمتن (دراسة النص لفظاً ومعنى)، كما إن الحديث الصحيح قسم إلى صحيح متواتر ومشهور وآحاد، وربما أطلق اسم المشهور على بعض الأحاديث الحسنة أيضاً حسب السلاسل والطرق التي ترويه، وقد اعتمد في تقرير العقيدة والمسائل الهامة على القرآن والأحاديث المتواترة، أما الأحكام كالحلال والحرام فتعتمد أيضاً على الحديث الصحيح والحسن، وقد تساهل العلماء في مواضيع الوعظ والترغيب والترهيب والاستئناس بتراث الأنبياء والعبرة من حياة الصالحين، وأخذوا بالحديث الضعيف أحياناً التي لا تمس العقيدة، وعليه فإن مقارنة الأحاديث بالأناجيل، تبدو أن قيمة الأناجيل من حيث الصحة لا تصل إلى درجة الحديث الضعيف لأن الأخير فيه سند متصل إلى النبي ﷺ مع وجود علة في أحد الرواة.

من ذلك تتضح لنا القيمة التاريخية للحديث، وهو المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن، أي أن السنة الصحيحة يمكن الاعتماد عليها لمعروفة ما جرى في عصر الرسالة من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، بحيث نكون واثقين بأننا نسمع ونرى أحداثاً حدثت فعلاً في عصر الرسالة ولا يفوق صحتها غير القرآن الكريم.. وإلى ذلك أشار المستشرق الانكليزي مرجليوث حينما قال: إن محمداً ﷺ هو النبي الوحيد بين الأنبياء الذي ولد تحت الشمس ونقل تراثه إلينا كاملاً.

ولقد أصاب العلماء حين فسروا الذكر بأنه القرآن والسنة في الآية:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.[١٨٧]

---

[١٨٧] سورة الحجر/ ٩.

أثر النبوة في شخصية النبي محمد ﷺ

كانت قريش في الجاهلية وقبل البعثة النبوية تلقب محمداً ﷺ الصادق الأمين، ذلك هو الحكم والتقييم الذي رآه جيل محمد ﷺ بالرحمة المهداة محمد قبل بعثته، وذلك هو منظار أهل مكة لنبي المستقبل، كم هو بليغ ومعبر ذلك اللقب (الأمين). لقد كان في أعينهم في ذلك العصر، هذه الشهادة التاريخية تعطينا تفصيلاً ثميناً لمعالم الصورة النفسية والاجتماعية التي كان عليها النبي ﷺ.

وعلى مدار التاريخ كان هنالك الكثير من الشواهد على التقييم الرائع والقمة السامقة التي وصفه بها الخصوم قبل الأصحاب والأصدقاء، من خلال سيرته العطرة، فضلاً عن الأثر العظيم الذي خلفه ظهوره ﷺ في البشرية جمعاء، فترى أن الثقة بهذا النبي لكاتب شهير هو (برنارد شو) تصل إلى أقصاها حين يقول: لو أن محمداً موجود الآن بيننا لحل مشكلات العالم جميعها ريثما يتناول فنجاناً من القهوة. ويقول مستشرق آخر هو (وليم موير) عن النبي محمد ﷺ:

لم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيى الأخلاق ورفع شأن الإنسانية في زمن قصير كما فعل محمد.

ولو تتبعنا أقوال المستشرقين وإعجابهم بالنبي محمد ﷺ لطال الكلام وكثر. وآخر ما قرأنا عن قوة سطوع شخصية النبي ﷺ وأثرها في الفكر الغربي، هو ما جاء في كتاب (المائة الأوائل) للكاتب الأمريكي الدكتور (مايكل هارث)، فقد اختار فيه أعظم مائة شخصية في تاريخ العالم –حسب رأيه– من ناحية أثرهم وتأثيرهم في حركة التاريخ البشري، ورغم صعوبة مثل هذا البحث وقلة المعلومات المحايدة المتوفرة في الغرب عن الإسلام ورموزه وشخصياته، فإن المؤلف اختار محمد ﷺ في أول المائة، في حين أنه جعل المسيح عليه السلام في التسلسل الثالث وموسى ﷺ في التسلسل السادس عشر. كما اختار بعض العلماء الطبيعيين –أمثال نيوتن بالتسلسل الثاني وانيشتاين بالتسلسل العاشر وغاليلو بالتسلسل الثالث عشر–، وعدداً آخر من الزعماء السياسيين –أمثال ماركس بالتسلسل الحادي عشر وأوغسطس القيصر بالتسلسل التاسع عشر وعمر بن الخطاب بالتسلسل الخامس عشر، والفلاسفة – أمثال أرسطو بالتسلسل الرابع عشر وديكارت بالتسلسل الرابع والستين– وغيرهم..

وأجاب المؤلف عن سبب اختياره محمداً ﷺ على رأس قائمة أعظم مئة شخص في العالم منذ بداية البشرية حتى اليوم رغم أنه باحث غير مسلم، فيقول: إن

اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي[١٨٨].

ويقوم المؤلف بمقارنة يسيرة بين شخصيات أنبياء الديانات السماوية الثلاث – اليهودية والنصرانية والإسلام– ويستنتج منها تفوق شخصية النبي محمد ﷺ على أخويه موسى وعيسى عليهما السلام من حيث الكتب التي أنزلت عليهم وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ومدى صحتها الآن، وأثرها في الواقع البشري ومدى استكمال الرسالة الدينية والدنيوية في حياة كل نبي، وأخيراً من حيث البيئة التي عاش فيها كل نبي منهم، وفقر البيئة العربية الصحراوية إلى أي مصدر للمعرفة والحضارة، بعكس البيئة التي عاش فيها كل من عيسى وموسى عليهما السلام في عهد الرومان في فلسطين وعهد الفراعنة في مصر.

وفي ضوء تلك القيمة الرفيعة والمكانة الفريدة المجمع عليها، وهذه المنزلة العالية التي احتلتها شخصية النبي العربي ﷺ، يمكن أن نسأل ما السر في هذه الشخصية العظيمة؟، وهل أن ذلك كان أثراً من آثار النبوة؟، وبفضل المدد الإلهي لهذا النبي الكريم، أم أن أثره العظيم في التاريخ البشري، هو لون من ألوان العبقرية –التي يحاول بعض المستشرقين أن يبرروا بها تفرده عن باقي عظماء التاريخ– التي دفعت به وبأعماله إلى تلك القمة السامقة التي لا ينافسه فيها مقام؟.

فقد يومئ سائل بجهل أو بخبث: لماذا لا نراه واحداً من الفلاسفة أو المفكرين العباقرة أو المصلحين من طِرَاز فريد؟ لماذا نقول أنه نبي؟

وهي أسئلة تجرنا جراً إلى موضوع ملامح النبوة في حياة محمد ﷺ، ولا حاجة بنا إلى أن نتكلم عن الخوارق التي روتها السيرة عن حياة النبي ﷺ، فالإسلام لا يلجأ إلى الخوارق لإقناع الناس.. وكان النبي ﷺ يجيب من يسأله الإتيان بالخوارق من المشركين، قائلاً: إنما أنا منذر ولست بصانع معجزات.

وحين أسلم خالد بن الوليد وكان فارس قريش وأحد قادتها أيام الشرك، وقف خالد يقول بعد صلح الحديبية: الآن استبان لكل ذي عقل أن محمداً ﷺ ليس بساحر ولا شاعر، وإن كلامه كلام رب العالمين، فحقَّ على كل ذي لبٍّ أن يتبعه.

---

[١٨٨] المائة الأوائل/ د. مايكل هارث/ ص ١٨.

كان العقل والمنطق والحكمة من أهم وسائله للإقناع والدعوة إلى رسالة الإسلام وليست المعجزات ولا الخوارق.

وإذا كانت هناك معجزة في حياة النبوة بعد معجزة القرآن، فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت أو إخراج حية من عصا، كما كان يفعل الأنبياء الذين سبقوه في عصور الخوارق والمعجزات، حينما كانت البشرية لا تدرك غير هذه الوسائل، فإن كانت في الموضوع معجزة ، فهي ذات محمد ﷺ نفسه، التي جمعت الكمالات وبلغت في كل كمال ذروته. كان محمد ﷺ ذاته سيرة وخلق وسلوك هو المعجزة التي تسعى على الأرض.

إن يبلغ الإنسان الكمال في صفة واحدة، فيبرز فيها ويتفوق على أقرانه فهذه هي العبقرية.. أما أن يكون الإنسان كاملاً وقدوة في كل شيء، فتلك هي النبوة. أن يبلغ الذروة في الخطابة والحكمة، والقمة في فنون الحرب والكمال في التشريع، وأن يمنحه الله في كل صفة فيبلغ فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجاز بعينه.. و إذا حدث ذلك فإنه لا يفسر إلا بأنه النبوة حيث اللطف والمدد من الله الوهاب وحده. وهذا هو أحد البراهين على نبوة محمد ﷺ.

فنحن أمام إنسان إذا تحدث كان أبلغ البلغاء، وإذا نطق كان أفصح الفصحاء.. لا ينطق عن الهوى ولا يتحدث عن حفيظة، وإنما عن حكمة الحيكم، وبصر البصير الملهم.. وأحاديثه المجموعة تشهد لنا بأنها من جوامع الكلم. فإذا ذهب ليحارب رأينا فيه مقاتلاً فذاً ومخططاً عسكرياً من الطراز الأول، كما نراه واضحاً في سيرته وغزواته العديدة في بدرٍ وأحد والخندق وغيرها.

ويوم حنين، حين أمطر المشركين جيش المسلمين بوابل من النبل من أعالي جبال الطائف في الفجر، فأنزلوا الفوضى والاضطراب في صفوفهم فكروا فراراً، حتى قال المشرك شيبة بن عثمان في شماتة: اليوم أدرك ثأري من محمد، فماذا فعل النبي ﷺ وهو يرى انكسار اثني عشر ألف محارب مسلم، بعد أن اخضع قريشاً وفتح مكة، وهو يواجه خطر ضياع عشرين سنة من الجهاد، في غمضة عين؟..

لقد ثبت وسط طوفان من الأرجل وهي تهرول مذعورة من حوله، وجيش الشرك ينزل من أعالي الجبل في ألوف، يطارد المسلمين ويجندلهم صرعى عن يمين وشمال.. والنبي يحاول أن يندفع في وجه السيل الجارف ويحثّ بغلته البيضاء، وعبد الله بن الحا رث بن عبد المطلب يردُّ خطامها خوفاً على النبي، والعباس بن عبد المطلب يصيح بصوته الجهوري في المنهزمين: يا معشر الأنصار.. يا معشر

المهاجرين.. هلّموا فإن النبي محمداً حي.. والنبي صامد وسط الموت يصيح إلى أين؟.. إلى أين أيها الناس؟.. وتمر لحظة هائلة بوزن التاريخ كله، لحظة تتغير فيها المصائر.

وتحس القلوب وقفة النبي القائد أمام الموت.. ويعود من انهزم من المسلمين، يتصايحون من كل جانب.. لبيك.. لبيك يا نبي الله.. ويلوي كل رجل عنان فرسه ليقتحم المعركة وتلتحم الألسنة، وكان رد الفعل عنيفاً، حتى أنهم قتلوا الكثير من المشركين، دون أن يفرقوا بين الكبير والصغير حتى نهاهم الرسول ﷺ فاستعادوا توازنهم.

ويذكر أصحاب السيرة والتاريخ أن قبيلتين من القبائل المسلمة قد فنيت في هذا الالتحام قبل أن تنقلب الهزيمة إلى نصر حاسم.. وأحصى المسلمون من الغنائم ذلك اليوم عشرات الآلاف من الإبل والشياه والفضة والرماح والسيوف مع ستة آلاف أسير، فماذا كان موقف النبي ﷺ من هذا السيل من الغنائم، التي رآها المسلمون مكدسة أمامهم؟، لقد قسم هذه الغنائم الكثيرة على المسلمين، ثم انه نزل عن نصيبيه وخمسه لهؤلاء الذين كانوا منذ أيام ألدَّ أعدائه.. فأعطى مائةً من الإبل لأبي سفيان وابنه والحارث بن كلدة والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو ومن أمثالهم من قادة قريش ومكة، وكذلك لأشراف ورؤساء القبائل الأخرى ممن أراد أن يؤلف قلوبهم بعد فتح مكة، وأعطى خمسين من الإبل لآخرين أقل من هؤلاء شأناً ومكانة.. وكان لهذا الحدث أثر في نفوس بعض الأنصار مما جعلهم يتهامسون، ويقولون: لقد وجد النبي أهله، وسوف يوزع –والله– محمد ﷺ الغنائم على قومه. وحينما سمع النبي ﷺ بهذا التهامس الذي كان يدور في غيابه، جمع الأنصار ليواجههم بهذه المقالة البليغة: يا معشر الأنصار.. ما هذه المقالة التي سمعتها عنكم؟.. ألم آتكم ضالين فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟. قالوا: بلى والله.. يا رسول الله. فقال لهم: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.. أستكثرتم يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله في رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت واحداً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار..

قال النبي هذه الكلمات البليغة في تأثر وود، فبكى الأنصار حتى اخضلّت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

وبذلك أظهر النبي زهده في هذا المال الوفير الذي غنم من حنين وجعله وسيلة ليكسب به قلوب هؤلاء المسلمين الذين كانوا منذ أيام كفاراً، ليروا في الدين الجديد وسيلة إلى ربح الدنيا وربح الآخرة. وهذا منتهى الحكمة وبعد النظر والبصيرة بقلوب الرجال وحسن السياسة للجموع المختلفة المصالح والأهواء..

وبعد المعركة ينزل القرآن ليصف هذه المعركة التي انقلبت بمدد من الله من هزيمة إلى نصر، وتكشف بعض أسرارها.. قال تعالى:

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾[١٨٩].

تلك السكينة التي تثبت الرسول والمؤمنين كانت مدداً من الله. ولقد أنزل الله مع تلك السكينة جنوداً لم يروها.. من هم هؤلاء الجنود؟.. ذلك هو الغيب.

إن مثل هذه المعركة الهائلة، لا يمكن أن يدرك العقل تحولاتها السريعة دون أن يتصور أن هناك سنداً مجهولاً من الغيب كان يعمل من وراء حجاب، شأنها شأن بقية الغزوات الشريفة في عصر النبوة المبارك.

إن تدخل الملائكة وإنزال الجنود هي بعض أسرار الغيب، وبعض أسرار التأييد الإلهي، حين ترتفع الهمم، ولا تتكافأ القوى المادية بعضها أمام بعض، حينئذ يأتي المدد الخفي، فيتحقق النصر وتتحقق عدالة الله الأزلية من حيث لا ترى العين ولا تسمع الأذن.

وفي ميدان النفس والتربية والدعوة إلى دين الله، نجد محمداً ﷺ هو النبي الذي تجتمع فيه الكمالات والمكارم، حتى قال عنه تعالى: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**.[١٩٠] وجعله الإنسان القدوة والأسوة الحسنة لبقية المسلمين، فقال: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾** [١٩١] ، وقال تعالى: **﴿هو الذي بعث في**

---

[١٨٩] سورة التوبة/ ٢٥.

[١٩٠] سورة القلم/ ٤.

[١٩١] سورة الأحزاب/ ٢١.

الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[192]، وقال أيضاً: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[193].

كما قال تعالى في وصف حلمه ولينه وسمو أخلاقه في هديه وتربيته لأصحابه وعموم عرب الجزيرة: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[194]، وغيرها من النصوص الكثيرة المبثوثة في سور القرآن الكريم.

فهو العابد المبتهل الذي يذوب خشوعاً وحباً في الله، وهو المقاتل الصنديد الذي يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم والفرسان يفرون أمامه كالجرذان، وكان الملجأ والملاذ لبقية الصحب الكرام في المعركة، حتى قال عنه سيدنا علي بن أبي طالب: كنا إذا حمي الوطيس في الحرب احتمينا برسول الله ﷺ، وهو المخطط الفذ الذي يحرك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر بمهارة المبدع، وهو المحدث الذي ينطق بجوامع الكلم، وهو الأب والزوج والأخ والصديق، وهو صاحب الدعوة الذي يقيم نظاماً وينشئ دولة من عدم، وهو النبي الرباني صاحب القلب المنير الشريف، الذي يستمع إلى الله وملائكته، كما يستمع بعضنا إلى بعض، بالغاً بذلك القمة في كل شيء، وهو الكريم الحليم الودود الرءوف الصبور البشوش البسام اللطيف المعشر، لا تمنعه الأعباء الجسام من ملاحظة الطفل الوليد، ولا من مغازلة زوجته في حنان، ولا ينضب لعواطفه معين، وكأنه يستمد من بحر.. هذه الذات العظيمة هي المعجزة.. واجتماع هذه الكمالات في ذات واحدة معجزة، وليست عبقرية، لأن العبقرية جزء صغير من هذه الذات العظيمة التي هي بحق رحمة مهداة لنا من الله الرحمن الرحيم.. قال تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.[195]

---

[192] سورة الجمعة/ ٢.

[193] سورة آل عمران/ ١٦٤.

[194] سورة آل عمران/ ١٥٩.

[195] سورة الأنبياء/ ١٠٧.

إننا أمام ذات متفردة تماماً، مستوفية أسباب الكمال، جامعة لأقصى الأطراف في كل شيء، فاعلة منفعلة، نشيطة مؤثرة، تصنع بطلاً من كل رجل تلمسه، وكأنما لها أثر السحر في كل ما حولها، ومن حولها ثم فيمن بعدها، ثم في التاريخ بطول أربعة عشر قرناً.. ثم فيما يستجد بعد ذلك إلى قيام الساعة.. نحن أمام ذات.. تسبح وتقدس من أنشأها وخلقها وبعثها للأبد رحمة للعالمين، وصلى عليها في عليائه، تمجد وتبارك في آياته.. قال تعالى:

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾[196].

وهو بشر ولكنه محصن بالوحي والرسالة وبنور القرآن، قال تعالى:

﴿قل إنما أنا بشر يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين﴾[197].

إذن هي ليست عظمة وعبقرية فحسب، بل هي نبوة ووحي من الله سبحانه.

وإننا إذ نمضي في كتب السيرة نتتبع أثر النبوة في شخصه ﷺ وفيمن حوله، وأثرها البعيد المستمر في ذلك الواقع الجاهلي والبدوي الفض من حولها، نرى شخصية النبي ﷺ تأتي من حولها سحراً.. فأينما لمست إنساناً أحالته نوراً يمشي على الأرض، وأيقضت فيه نوازع الخير، وفجرت فيه ينابيع المحبة. كيف كان عمر بن الخطاب، وكيف أصبح بعد تلك اللمسة السحرية، ذلك الرجل الغليظ الطبع العنيف الحاد، السريع الغضب، كان معاقراً للخمر واللهو، وكان من أشد رجال قريش إيذاء للمسلمين (ووقيعة فيهم) حينما كانوا قلة مستضعفة، بل إنه كان قد عزم على قتل المصطفى ساعة إسلامه، كيف تحول هذا التحول وبهذه السرعة؟ إنما هي النبوة وفيضها الرباني المعجز، إنها اللمسة السحرية التي تشق البحر وتحيل العصا ثعباناً، وتشفي الأبرص وتحيي موات النفوس، وتبدل الحال غير الحال، وقد أتى الله نبيه تلك القدرة المذهلة على تغيير الرجال، وصهر معادن النفوس وإعادة سبكها في أحلى الصور.

ولهذا أحبه أصحابه وافتدوه بالمهج والأرواح، فقد رأوا نفوسهم تولد بين يديه، وكأنهم كانوا عدماً، فأحياهم.

---

[196] سورة الأحزاب/ ٥٦.

[197] سورة فصلت/ ٦.

فهذا زيد بن الدثنة وقد وقع أسيراً بيد قريش، يسأله أبو سفيان لما قُدِّم للقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أنَّ محمداً الآن عندنا في مكانك نضرب عنقه وأنت في اهلك؟.. قال زيد: والله ما أحب أنَّ محمد ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي. فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً. وقتل زيد، فذهب شهيد الإسلام والحب والوفاء والإيمان.

ولم يكن ذلك الحب عن غرام محمد بالتعظيم، وإنما عن حب وفداء، فقد عرف محمد ﷺ بالتواضع، وكان يقول لأصحابه: لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم لملوكهم، ولا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. وقال يوماً لأعرابي أخذته الهيبة من محضره: هون عليك إنما أنا رجل من قريش كانت أمه تأكل القديد (أي الخبز اليابس).. لم يكن التعظيم إذن هو حافز الأصحاب، بل الحب والاحترام والثقة، ثم هذه اللمسة السحرية والنفحة الإلهية من وراء الغيب، فيما ألقى له الله من محبة في قلوب الناس.

هنا سند الغيب والتوفيق والتمكين من الله لنبيه في الأرض وفي التاريخ وفي قلوب هؤلاء البدو الحفاة الغلاظ الذين يإدون بناتهم أفلاذ أكبادهم ويدفنونهم أحياء في التراب، خوفاً عليهم من السبي وآثار الغزو القبلي الذي كان شائعاً بينهم قبيل عصر الرسالة وخوفاً من الفقر. وبدون هذا السند الإلهي لا نستطيع أن نفسر أموراً ووقائع كالخيال.

نحن إذن أمام نبوة مؤيدة بسند الغيب، ورجل انعقد له لواء التمكين الإلهي.. ولسنا أمام مصلح اجتماعي أو صاحب ثورة أو عظيم من عظماء الدنيا يعمل بالاجتهاد والعلم الكسبي فحسب.

ولو أردنا الكلام عن ذلك الجيل القرآني الفريد الذي رباه محمد ﷺ وعن الرجال العظام الذين قادوا العالم بعده، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وطلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وجعفر وبلال وسلمان وعمار وصهيب وأبو ذر وأبو هريرة وزيد وأبي ومعاد وغيرهم من النجوم الذين لمعوا في سماء الإسلام، سواء من استشهد في عصر النبوة أو من تأخر، لعلمنا أن محمداً بحق صانع الرجال.. وحين نقرأ سيرة هؤلاء الصحابة الكرام ومن تبعهم، نجد أنه جيل فريد في تاريخ البشرية كلها، فما وصلته في يوم ما ولن تصله أبداً، بل ستظل محطَّ أنظار الأجيال المسلمة

إلى قيام الساعة.. قال تعالى: ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل...**﴾[198]، وقال عنهم أيضاً: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ [199].

ترى هل يكون ذلك بغير مدد وعون من الله سبحانه. كيف استطاع تأليف قلوب العرب المتنافرين العنيدين الذين طبعت حياة الصحراء وقساوتها على قلوبهم، إنه الله وراء ذلك النبي الكريم.. قال تعالى:

﴿**هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم**﴾ [200].

هكذا كان النبي محمد ﷺ بشخصيته وبساطته وتواضعه وحبه ورفعته، هو الروح التي باتت تسري بين أصحابه ثم امتدت إلى باقي الأجيال، حتى شهد تاريخنا فيما بعد رجالاً عظام استمدوا من ذلك النور العظيم وتلك النفس الزكية، ومن قبس النبوة الوهاج، رجالاً كزين العابدين والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز والأئمة العظام الذين أسسوا المدارس الفقهية كالباقر وأبو حنيفة والصادق ومالك والشافعي وأحمد، والذين أقاموا صرح علوم القرآن والحديث والسيرة كابن إسحاق والبخاري ومسلم والثوري وابن ماجة والترمذي وغيرهم ومن جاء بعدهم من أهل التصوف والعلوم الأخرى كالجنيد البغدادي والغزالي والجيلاني والطبري واليعقوبي وابن القيم وابن كثير وغيرهم من عظماء الإسلام.. رجال يكفي أن يذكر اسمهم لتعرف أي دور كان لهم وأي تأثير لذلك النبي العربي كان عليهم وأي قبس أخذوه عنه.

هكذا إذن كان نبي الرحمة ﷺ رجلاً بسيطاً متواضعاً، تراه في بيته يغسل ثوبه ويرقع بردته ويحلب شاته ويخصف نعله.. تراه يأكل مع الخادم ويعود المريض ويعطي المحتاج، وتراه قد احتمل الحسن والحسين وهما طفلين على كتفيه وهي يصلي، ويتكرر الأمر مع حفيدته أمامة بنت زينب.

---

[198] سورة الفتح/ ٢٩.

[199] سورة آل عمران/ ١١٠.

[200] سورة الأنفال/ ٦٣.

وكان الحب والحنان مجسداً في ذاته، أحب الإنسان والحيوان، بل حتى النبات حنا عليه، فكان يوصي بالشجر ألا يقطع، حتى الجماد شمله بحبه فكان يقول عن جبل أحد: هذا الجبل يحبنا ونحبه..

والقصص والروايات عن حلمه وعفوه ومحبته وكرمه كثيرة لا تنتهي وكان يلخص سنته فيقول: (المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب مذهبي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والحزن رفيقي، والصبر ردائي، والصدق شفيعي، والعلم سلاحي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة).

ذلك هو محمد بن عبد الله ﷺ النبي الأمي الذي حمل رسالة القرآن للبشرية.. وكان حديثه ينطق بالحكمة الخالصة، وكثير من كلامه يجري مجرى الأمثال، ومن ذلك: (لن يهلك امرؤ بعد مشورة) أو (ما خاب من استخار.. ولا ندم من استشار)، (ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)، (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس.. الصحة والفراغ)، (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، (الدين النصيحة)، (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)، ومن أحاديثه وكلماته البليغة: (يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)، (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، (تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق، فإن الله لا تحيط به الفكرة)، وفي حجة الوداع يقف النبي ﷺ يخطب الناس بعرفة، ويقول: (يا أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت.. وإن كل ربا موضوع وإن كل دم في الجاهلية موضوع.. فاعقلوا أيها الناس قولي، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً.. كتاب الله وسنة رسوله..

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه.. إن كل مسلم أخ للمسلم، ولا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم هل بلغت)..

فتتجاوب الأصداء من كل صوت.. اللهم نعم..

فيقول الرسول الكريم ﷺ: اللهم فاشهد..

ثم يتلو من آخر ما نزل من القرآن الكريم بعد خطبة عرفة:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [٢٠١].

---

[٢٠١] سورة المائدة/ ٣.

وهكذا قضى رسول الله ﷺ ورحل عن الدنيا وهو يقول: بل الرفيق الأعلى في الجنة. وترك في أعناقنا أمانة الله على الأرض.. رسالة الإسلام الخالد لهداية البشرية وفق منهج الله وهدي القرآن والسنة.

الفصل الرابع

التعصب الأوربي
تجاه العالم العربي والإسلامي.

إن سنة التدافع من السنن الكونية التي أبرزها القرآن الكريم وجلاها في أكثر من موضع، قال تعالى:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [٢٠٢].

ومن هذا التدافع ما وقع من تصادم بين الإسلام والروم، ثم مع نصارى أوربا وإلى يومنا هذا، وكان من مؤيدات البعثة النبوية أن دفع الله الفرس الوثنيين بالروم النصارى[٢٠٣] ثم دفع الروم بالمسلمين الذين أزاحوهم عن بلاد الشام ومصر وشمالي أفريقيا، ثم عن الأناضول والجزء الشرقي من أوربا، وكذا جزئها الغربي من أرض إسبانيا وهي الأندلس، فردت أوربا بأن احتلت جزء من العالم العربي والإسلامي بحروب صليبية استمرت قرنين متواصلين، ولكنها هزمت في النهاية وانسحبت من بلاد الشام ومصر، ثم صدم العثمانيون أوربا صدمة شديدة، مما جعلها تفكر وتخطط لإيقاف هذا الزحف الإسلامي، وما أن جاء القرن السادس عشر الميلادي حتى بدأت أوربا تنهض، ولم يعد تفكيرها محصوراً باسترداد ما فتحه المسلمون من أراضيها، ولكنها عملت على تطويق العالم الإسلامي بأكمله، وتابعت عدوانها حتى تحقق لها ما تريد في مطلع القرن التاسع عشر. لقد أصبحت أوربا قوة طاغية باغية، تريد أن تجرف أمامها كل شيء، فقد اكتشفت أسرار المادة، وأخرجت خبء الأرض وامتلكت وسائل العلم والاختراعات، ووسائل الأسلحة في مدة قصيرة ما لم تملكه البشرية من قبل، ولكنها كانت وما زالت قوة بربرية، سخرت كل هذه الاكتشافات لتمد أجنحة سيطرتها على آسيا وأفريقيا وأمريكيا الجنوبية، وتجعل العالم مزرعة لها، يجب أن يأتيها خراجها منه، وفي أمريكا –مثلاً– قدر المؤرخون قتلى السكان الأصليين على يد الأوربيين ما بين (٢٠–٧٠) مليون، ولم يبق منهم غير مليون أو أكثر قليلاً في القارة كلها.

قامت أوربا هذه على وثنية اليونان وطغيان الرومان، ومع أن النصرانية كانت

---

(٢٠٢) سورة البقرة/ ٢٥١.

(٢٠٣) كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿ الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾** (سورة الروم/١–٥).

عنصراً في تركيبة الحضارة الغربية، إلا أنها بالنسبة للفرد الأوربي كانت قشرة خارجية تغلف هذا الداخل الوثني المادي الذي يعبد القوة ويحب السيطرة، وقد صدق من وصف اعتناق الروم للنصرانية:

إن الروم لم يتنصروا، ولكن النصرانية ترومت.

فأوربا النصرانية –وأمريكا بنتها ووريثتها– هي أوربا التسلط الروماني والنظرة الفوقية العنصرية، يقول في ذلك المستشرق آرنست رينان: جنس واحد يلد السيادة والأبطال هو الجنس الأوربي فإذا ما نزلت بهذا الجنس النبيل إلى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور، فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتح له ما خلق له.. انظر إلى هذا المستشرق في عنصريته وزهوه وغروره.

أما في التاريخ القديم، فالأمثلة كثيرة، تلك التي تعطيك الصورة نفسها، والتشابه في النفسية والممارسة، يقول المؤرخون عن تدمير العنجهية الأوربية نفسها: عندما استسلمت مدينة قرطاجة للإمبراطورية الرومانية على يد الوفد المفاوض، كان من شروط الاتفاق أن يبقى لقرطاجة استقلالها وأرضها، وأن يرسل القرطاجيون ثلاثمائة من شبابهم رهائن للروم، ولكن الرومان لم يفوا بشروطهم، وطلبوا مغادرة شعبها لأنهم قرروا تدمير المدينة تدميراً كاملاً، وقرر أهل المدينة المقاومة، ولكنها دمرت أخيراً وأحرقت ، وأصبحت أثراً بعد حين، وضاعت آثارها الفريدة وحضارتها العريقة بسبب وحشية الرومان وبطشهم. فهل يختلف ما تفعله أوربا (وأمريكا) اليوم عما فعله أسلافهم من الرومان.

إن العرب والمسلمين بحاجة ماسة إلى فهم العقل الغربي وقيمه ومسلماته الفكرية، وأساليب تفكيره، كما خطط الغرب بواسطة الاستشراق لفهم العقل المسلم وقيمه والمسلمات التي ينطلق منها في تفكيره وعمله، مستهدفاً تسخير المسلمين لما يحقق أهداف الغرب في الهيمنة والنفوذ والاستغلال، ومحور المسلمات الفكرية عند العقل الغربي، هي: فكرة الصراع والبقاء للأقوى، فهي تقابل التوحيد في العقل المسلم، أي (التوحيد الغربي) الذي تنبثق منه جميع الأفكار والأعمال، وليست الأخلاق والمثل الإنسانية العليا والديانات السماوية إلا دوافع كما يسميها ساسة الغرب، لخدمة المسلمة المذكورة، ولذلك احتل علم النفس منزلة الكتاب المقدس في علوم الغرب، وخاصة في أمريكا ، وهو علم لا يستعمل للتعرف على الحقيقة، وإنما

لتسخير الأفراد والجماعات والشعوب واستغلال مقدراتها المادية والنفسية وتراثها الثقافي لصالح المترفين في الغرب[٢٠٤].

وعلى العربي والمسلم أن يدرك إن هذا العالم الأوربي الباغي عدو شديد العداوة، وأنه ماكر شديد المكر، وأنه خبير حسن الخبرة بتهديم الأمم وردها القهقرى، مترديه في الغموض والحيرة، وأن هذه القوة الباغية دارت حول العالم الإسلامي تستعمر أطرافه بمهارةٍ وحذرٍ، ثم تنفذ من كل ثغر وطرف وشاطئ إلى بدن العالم العربي والإسلامي شيئاً فشيئاً بحذر وبلا ضجيج يزعج[٢٠٥].

إن نظرة الغربي إلى الشعوب العربية والإسلامية هي برنامج محفوظ في ذاكرته، شعب خامل، جاهل متعصب، أراضي خصبة، معادن كثيرة، مشاريع كبيرة، هواء معتدل، نحن أولى بالتمتع بكل هذا[٢٠٦].

يقول الأديب الكبير محمود شاكر في وصف العقل الأوربي وإمكانية التعايش معه بسلام: وقد مضت العبر بأن هؤلاء القوم لا يكادون يفهمون إلا اضطراراً وبالقهر والغلبة، فمن العبث أن ندعوا هؤلاء القوم إلى سواء بيننا وبينهم، لأن القوة قد أسكرتهم فأطاشت حلومهم، وتركتهم لا يدركون إلا ذلك المعنى الخسيس للحياة، معنى الفائدة العاجلة بغير نظر إلى عدل ولا نصفة، ومن العبث أن نحتال عليهم بما يسمونه السياسة، فالقوي وحده هو الذي يعرف كيف يستفيد من السياسة. لا يطيق الأوربي رؤية حضارة منافسة لحضارته، وإذا اضطره الأمر فإنه يقبل بالهندوسي أو البوذي، ولكنه لا يقبل بالمسلم وحضارته القرآنية، ذلك لأن المسلم يملك ديناً يعطيه حضارة متميزة، ونظرة للحياة تغاير نظرة الغربي. وقد أدى سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي إلى تأكد الغرب وغروره، بان الحضارة الرأسمالية الديمقراطية هي الحق، وما عداها هو الباطل. وقد كتب الأمريكي فوكوياما (من أصل ياباني) في كتابه (نهاية التاريخ) يقول: إن النمط الغربي لتنظيم شؤون الحياة هو الذي سيسود العالم ولن يأتي شيء بعده.

إن مثل هذه العداوة الدفينة يكاد يصورها شاعر عربي قديم وهو يقول:

في كل يوم يسنون الحراب لكم   لا يهجعون إذا ما غافل هجعا

---

[٢٠٤] انظر: الأمة المسلمة وعوامل صحتها/ د.ماجد عرسان الكيلاني، ص٥٧.

[٢٠٥] أباطيل وأسمار/ محمود شاكر، ص٢٢٦.

[٢٠٦] الأعمال الكاملة/ للأفغاني، ج٢ ص٧٦.

خزر عيونهم كأن لحظهم حريق غاب، ترى منه السّنا قطعا

ويقول الشيخ رشيد رضا عن نظرة الغرب، والحجب التي تَمنع الإفرنج من رؤية حقيقة الإسلام الحجاب الثاني: رجال السياسة الأوربية، فإنهم ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة، وتلقوا مفترياتها من الطعن عليه بالقبول، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه، طمعهم في استعبادٍ شعوبه واستعمار ممالكهم[٢٠٧].

ولقد تربى الغربيون –عاطفياً– على أنهم هم المنقذون للبشرية، وأن دينهم أرقى من الإسلام، ولقد صدمتهم كتيبة الإسلام من العثمانيين في أوربا –بعد جهاد صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام وطردهم من بيت المقدس– فكان هذا الكره الشديد لهم. يقول المستشرق الشهير غوستاف لوبون في تأييد ذلك: لقد تجمعت العقد الموروثة، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله، وتراكمت خلال قرون سحيقة، حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي[٢٠٨].

هل خبت هذه الروح العدائية التي لا تطيق مجاورة الإسلام؟

إن ما فعلوه ويفعلوه في فلسطين والصومال والعراق والسودان وبلاد الأفغان والبوسنة والهرسك (وكوسوفو والشيشان) وغيرها من بلاد الإسلام من قتل وتشريد وحصار وتآمر وإثارة فتن ومشاكل، كلها تشير إلى بقاء الروح نفسها وعدم ذوبان تلك النظرة الخبيثة المتعالية لاسيما في أمريكا وانكلترا والعديد من دول أوربا الاستعمارية، وما وقع في البوسنة فاق محاكم التفتيش في الأندلس، أو إبادة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وفي ذلك تقول الكاتبة الأمريكية (سوزان سونتاغ): إن دول أوربا تتستر على أكبر جريمة قتل جماعي في تاريخٍ أوربا تقع تحت سمع وبصر الجميع.. ويقول الكاتب الإسباني خوان غوتيسلو معلقاً على أفعال الصرب الإجرامية وتدميرهم للمكتبات والمساجد بعد خمسة قرون تقريباً على حرق المخطوطات العربية الغرناطية في باب الرملة: تكرر المشهد بشكل أعنف حين حقق الصرب أحلام انتقام أسلافهم بإحراق (٥٢٠٠) مخطوطة عربية وإسلامية تبخرت إلى الأبد.. إن تلك الجريمة يمكن وصفها بدقة بأنها (اغتيال الذاكرة) لأن المطلوب هو إزالة أي أثر إسلامي من أرض صربيا الكبرى، كما يسميها الأوربيون.

---

[٢٠٧] الوحي المحمدي، ص ٢٢.

[٢٠٨] وجهة العالم الإسلامي/ مالك بن نبي، ص ٣٨.

التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي

يقول الأمير شكيب أرسلان: إن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور الأوربيين كمون النار في الرماد، وروح التعصب لم تنفك معتلجة في قلوبهم حتى اليوم، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل، وان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً، هو عندهم في بلادهم، العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة، وما يدعون عندهم في الغرب إباء النفس والشرف الوطني يعدونه في الشرق علواً مكروهاً(٢٠٩).

وقد يسأل سائل: إذا كان الغرب كما وصف أعلاه، أليس عنده إيجابيات؟. والجواب: نعم عنده إيجابيات أفادته في حياته الدنيا، سواء جاءته عن طريق التجربة والتفكير البشري، أو عن طريق النصرانية التي وإن كانت محرفة، ولكنها هذبت حواشيهم وما كانوا عليه من البعد عن المدنية، ثم جاء احتكاكهم بالإسلام وأهله ودراسة شرائعه كعامل من عوامل نهضتهم، ولهذه الأسباب استمرت حضارتهم هذه القرون الأخيرة، فهم كما ردد ابن تيمية حكمته القائلة: إن الله يقيم الدولة العادلة الكافرة، ولا يقيم الدولة المسلمة الظالمة. كما إن اهتمام الحكومات والمنظمات والمؤسسات بالشعوب في أوربا، وحرية تلك الشعوب في تحديد مستقبلها السياسي، وإنفاقهم الأموال الطائلة على الخير العام، وهيمنة العقل والعلم والمنطق والحكمة في تصريف أمورهم، بحيث أصبح الأوربيون في حياتهم ومناهج عملهم كأنهم يطبقون الحكمة القرآنية التي تقول: إن خير من استأجرت القوي الأمين، فينتدبون لأعمالهم أصحاب الكفاءة والخبرة والقوة مع الأمانة والتجرد وأصحاب الصدق والمسؤولية، بعكس الشرق الذي سرت فيه المحسوبية والمنسوبية والرشوة ووسدت الأمور إلى غير أهلها من حيث الخبرة والأمانة، فعم الفساد الإداري في الحياة كلها. وذلك الأمر يذكرنا بخصال الروم منذ القدم والتي وصفها الصحابي عمرو بن العاص في حديث له جاء في صحيح مسلم وهو يذكر الروم: إن فيهم لخصالاً أربعاً، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف... الحديث(٢١٠).

وليس المجال هنا مجال مقارنة سلبيات وإيجابيات الحضارة الغربية، لكنه

---

(٢٠٩) حاضر العالم الإسلامي: ١٣٧/١.

(٢١٠) مختصر صحيح مسلم / ٢٩٦.

مجال التعرف على نظرتهم المعادية للشرق المسلم وإصرارهم على تلك النظرة وذلك المنهج منذ فشل الحروب الصليبية حتى اليوم. ولكننا يمكن أن نأخذ مثلاً آخر من تجربتهم في (الوحدة الأوربية) يدل على جلدهم ومتابعتهم بتعقل وروية، فهؤلاء القوم لا يسقطون سريعاً كما سقطت الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، لأن فيهم خصال تمنع عنهم التدهور السريع الذي يظنه البعض، وان كانت الحضارة الغربية بشكل عام فيها من المفاسد ما يجعلها تتآكل وتتحدر، لاسيما نظامها الرأسمالي الربوي القائم على الاحتكار والاستغلال والاستعمار والسيطرة على مقدرات الشعوب الأخرى. ونظرتهم المادية الصريحة التي اضطرت رجال الكنيسة أن يتراجعوا في كنائسهم وصوامعهم بعيداً عن التأثير الفعلي في المجتمع والدولة للتخفيف من هذا المبدأ المادي الميكافيلي الطاغي على هذه الحضارة العملاقة اليوم.

ونعود للتأمل في تجربتهم للوحدة الأوربية لنرى العقلية الغربية من داخلها، فتجربة الوحدة الأوربية لم تأخذ شكلاً جاهزاً وفورياً ومكتملاً من لحظة الولادة، بل أخذت على العكس شكل (بناء) بكل ما تعنيه هذه الكلمة من امتداد في الزمان، ومن تدرج في إقامة هياكل الوحدة اقتصادياً وسياسياً، فمنذ عصر شارلمان، وتجزؤ إمبراطوريته بين أبنائه الثلاثة، ابتداء من عام ٨٤٣م، ظهر من الكتاب والرواد من اشمأزوا من حالة العنف والحرب الدائمة في أوربا، ومن هؤلاء المفكرين (دانتي) و(مونتاني) و(روسو) و(كانت)، وفي عام ١٨١٤م بشر الكونت الاشتراكي (سان سيمون) بقيام أسرة أوربية متعاونة من خلال برلمان ما فوق قومي (أي فوق القوميات الصغيرة)، وفي مؤتمر السلم الذي عقد في ١٨٤٩م وجه (فكتور هيجو) نداء من أجل قيام الولايات المتحدة الأوربية في القرن العشرين[٢١١].

إنهم يخططون للمستقبل القريب والبعيد، وبعض مشروعاتهم نفذت بعد مئات السنين، كما ذكر مؤلف كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا) وهو وزير روماني اسمه (ت. ج. دجوفارا)، وقد كتبه بالفرنسية، وظهرت طبعته الأولى في باريس سنة (١٩١٤م)، وقد استغرقت هذه المشاريع المائة لتقسيم العالم الإسلامي أكثر من ستة قرون للفترة ما بين (١٢٨١-١٩١٣م) تقدم بها في أوربا المتعصبة والمتعطشة لتفتيت العالم الإسلامي واستعماره والسيطرة على مقدراته، سياسيون ولاهوتيون

---

[٢١١] البناء الأوربي/ سيمون، وانظر كتاب الأمير/ لميكافيلي.

ومفكرون وأطباء يقترحون كيفية تقسيم بلاد الإسلام[٢١٢].

وانكلترا –مثلاً– حققت بعد (٧٠٠) سنة ما أراد (سانوتو) تحقيقه.

إن الخبراء في علم الاجتماع البشري وعلم النفس الفردي والجمعي، هم الذين يكتشفون طرق الغربيين في تفكيرهم السياسي، يقول أحدهم واصفاً سياسة انكلترا: فبريطانيا لا تفتر تحدث فتوحاً في البلاد، فتدخل من أضيقها فتوسعه وترقب أصغر حدث فتجسمه، وتعمل على شق عصا القوم وتقسمهم أحزاباً، وتكون نصير المتباغضين، سنة جرت عليها دولة بريطانيا ورجالها فلا يحيدون عنها... حتى قال عنهم غاندي الهند: لو وجدت سمكتين متخاصمتين في البحر لعلمت أن وراء ذلك بريطانيا..

ويصف الأستاذ محمود شاكر المعركة بين الغرب والعالم الإسلامي، فيقول: لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الغربي وبين العالم الإسلامي معركة في ميدان الثقافة، بل كانت معركة في ميدانين: ميدان الحرب، وميدان الثقافة، ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب لأسباب معروفة، أما ميدان الثقافة فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلاً بعد جيل، بل عاماً بعد عام، وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين وأبعدها أثراً، وأشدهما تقويضاً للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي وكان عدونا يعلم ما لا نعلم، كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه، وكان يعلم من خباياها ما لم نعلم، ويدرك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك، ويعرف من ميادينها ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع[٢١٣].

قال تعالى: **﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا﴾** [٢١٤].

---

[٢١٢] انظر: كتاب حاضر العالم الإسلامي/ شكيب أرسلان..

وكتاب أعمدة الحكمة السبعة/ لورنس العرب.

[٢١٣] أباطيل وأسمار/ ١٠.

[٢١٤] سورة الكهف/ ٢٠.

الفصل الخامس

في رحاب الحج والعمرة

تأملات وخواطر في رحاب الكعبة المشرفة

قال تعالى: **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ومن كفر فان الله غني عن العالمين﴾** [٢١٥]، ما أبهى ظلال الكعبة وما أحلى جوارها، وما أجمل أيام الحج والعمرة وزيارة الديار المقدسة، مهبط الوحي وموطن الرسالة، ذلك الإحساس العجيب والحنين والشوق الذي يشعر به كل حاج أو معتمر خلال الرحلة وما بعدها، مما يجعل المسلم الذي يحج أكثر استعداداً لتكرار الحج -غير ناظر إلى الجهد والمال- من الذين لم يتيسر لهم الحج ولم يتذوقوا طعم الحج أو العمرة من قبل. فما هو السر في هذا الإجماع والشعور العام لدى الحجاج؟ وما السر في هذا الشوق والحنين؟

السر في الكعبة المقدسة نفسها، بيت الله العتيق، الذي وضعه الله للناس هدى ورحمة، السر في الأمن الروحي والنفسي الذي يلمس الحاج والمعتمر في مكة المكرمة وفي جوار الكعبة، وتلك إحدى الآيات في البيت التي أشارت إليها الآية الكريمة أعلاه لبيت الله الحرام، واستجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام بان يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى هذا الوادي المقدس ودرته المقدسة الكعبة المشرفة.

إن الحياة في رحاب الكعبة، نعمة من الله سبحانه، ليس في موسم الحج والعمرة فحسب، وإنما في كل ساعة وكل صلاة حين نستقبل الكعبة المشرفة، وفي كل مكان على هذه الأرض، نعمة ومنة ربانية تمدنا بالأمن من كل طغيان، وتكسبنا قوة بتلك الصلة مع الله عن طريق بيته الكريم، وبالوحدة والأخوة مع أفراد الأمة الواحدة، أمة الإسلام مهما اختلفت البلدان والألسن والأجناس بين المسلمين، وبالعبودية الحقة لله الخالق الذي حدد لنا البيت الأول. والوجهة التي يريدها الله لنا كنقطة استقطاب لقلوب المؤمنين على الأرض ليصلها بالسماء في عليين، تقابلها نقطة أخرى في السماء هي هالة البيت المعمور، ذلك البيت المقدس الذي يطوف حوله الملائكة، كما يطوف الناس في الأرض حول الكعبة، وهكذا يلتقي أهل الأرض وأهل السماء على العبادة والخضوع لمشيئة الله رب العالمين، ويتناغم هذا الطواف وذلك الخضوع مع طواف الكواكب والنجوم في أفلاكها.. قال تعالى: **﴿وكل في فلك**

---

[٢١٥] سورة آل عمران/ ٩٦.

يسبحون﴾.[٢١٦]

تلك التأملات والخواطر جالت بذهني وأنا جالس بجوار الكعبة –الآن– مثلها في موسم الحج قبل حين من الزمان، فقد أبهرتني شعائر الحج –كبقية الحجيج– في ساعة الإحرام ورهبته الدخول فيه، والتلبية والتكبير الذي يتصاعد من الألسن والحناجر بشكل جهوري جماعي، حتى دخول مكة المكرمة والطواف حول الكعبة المشرفة، والإشارة إلى الحجر الأسود وتقبيله –إن رزقت شرف التقبيل– والدعاء عند الركن اليماني في الكعبة الذي هو ثالث الأركان بعد الركن الشامي والركن العراقي في الكعبة، والصلاة بجوار مقام إبراهيم، غير بعيد عن حجر إسماعيل الذي يقع على يمين باب الكعبة بين الركنين الشامي والعراقي، وكذا التقليد المحبب إلى قلوب الحجيج بالشرب من ماء زمزم قرب بئر زمزم المقدس، الذي يعده العلماء من الآيات البينات للبيت الحرام أيضاً، والسعي بين جبل الصفا وجبل المروة، والمناجاة والدعاء في هذه الأماكن الشعائر المأثورة حول الكعبة، وكذلك الوقوف على جبل عرفة يوم عرفة بين الملايين من الحجيج، ورهبة الموقف بين يدي الله سبحانه بهيأة الإحرام والتجرد من مظاهر الدنيا وكل ما يذكرنا بها، في ذلك اليوم المجيد الذي يقول عنه الرحمة المهداة ﷺ: (الحج عرفة) تجسيماً لأهميته وعظم أجره، والصلاة بعدها في مزدلفة عند المشعر الحرام في طريق العودة من جبل عرفات إلى منى، حيث يصلي الحجيج المغرب والعشاء جمعاً وقصراً، بعد أن قضوا نهارهم على أطلال جبل عرفات المقدس وسمعوا خطبة عرفة حول جامع نمرة على إحدى قمم الجبل المترامي المسافات والبقاع، ثم لهجوا بالدعاء والتضرع حتى الغروب ثم –بعد الاستقرار في منى– رمي الجمرات في المكان المحدد في منى تعبيراً عن البراءة من الشيطان ومنهجه وعهد لله على التوبة النصوحة والولاء له وحده ولمنهجه القويم وصراطه المستقيم، قال تعالى: **﴿وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾** [٢١٧].

ثم بعد رمي الجمرات على الشيطان، يأتي ضمن تسلسل شعائر الحج، الحلق أو تقصير شعر الرأس إيذانا بانتهاء شعائر الحج، ثم نقوم بنزع ملابس الإحرام ونحر

---

[٢١٦] سورة يس/ ٤٠.

[٢١٧] سورة الأنعام/ ١٥٣.

الأضاحي.. فداء لنا بنية الغفران والعتق من النار بإذن الله، مستذكرين فداء النبي إسماعيل ﷺ حين فداه الله بكبش عظيم في هذه الأرض المقدسة.

إننا في هذه العجالة نحاول أن نعيش مع الحج وتأملاته وخواطره العطرة ولسنا هنا بصدد أن نذكر ما لهذه الشعائر من معانٍ وأصول فقهية، إن ذلك قد تصدى له أهل العلم الشرعي والاختصاص في علوم الفقه، ولكن تلك الشعائر العظيمة هي للمتأمل الذي زار الديار المباركة شيء عظيم، كما ان تعظيم الشعائر هي إحدى سمات المؤمنين .. قال تعالى:

﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [٢١٨].

أما زيارة المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة، وزيارة قبره المنير، فإنها تكمل ا لصورة بهاء وجلالاً، وتعطي للروح والقلب دفقاً آخر من مشاعر الطمأنينة والفهم العميق لهذا الدين ودوره في الحياة، فتتكامل من خلال زيارة البيت العتيق في مكة المكرمة ومهد الرسالة في المدينة المنورة، مدينة سيد الأنبياء وخاتم المرسلين والصحابة الأكرمين. إنها في الواقع مشاعر لا توصف وأنت تقف بين يدي الرحمة المهداة ﷺ وتسلم عليه وتناجيه وتسأله الشفاعة والصحبة معه في الجنة، ثم تسلم على صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وان تصلي في الروضة المباركة التي يقول عنها النبي ﷺ: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة[٢١٩]. وان تصلي بجوار سواري (أعمدة) الصحابة في المسجد النبوي الشريف: سارية التوبة، وسارية السرير (وهو المكان الذي كان يعتكف فيه النبي الأكرم ﷺ وسارية عائشة رضي الله عنها،.ولكل سارية في المسجد من هذه السواري المباركة، ذكرى وقصة من قصص عهد النبوة الزاهر تتذكر فتفرح وتطير فرحاً، ونحن نبكي شوقاً إلى لقاء الأحبة محمد وصحبه كما كان شوق بلال بعد رحيل النبي ﷺ وهو يردد ذلك القول الذي يقطر شوقاً ووفاء إلى لقاء الأحبة محمد وصحبه، والى ذلك العصر والجيل القرآني الفريد في تاريخ البشرية، ولبقية المشاهد والمساجد، المساجد السبعة في المدينة، ومسجد قباء وهو أول مسجد أسس على التقوى، ومسجد القبلتين، ومشاهد أخرى كأحد والخندق، وفي كل مشهد قصة وعبرة، سواء في مشاهد المدينة المنورة أو مشاهد مكة المعظمة التي شهدت مولد سيد الكائنات بجوار البيت العتيق، وفي

---

[٢١٨] سورة الحج/ ٣٢.

[٢١٩] رواه مسلم.

ضواحيها يقع جبل النور الذي فيه غار حراء، وهو الغار الذي شهد مهبط الوحي على الرسول الكريم ﷺ.

إن هذه الأرض المباركة التي عاش فيها النبي محمد ﷺ وشهدت دعوته ورسالته وجهاده، مليئة بالآثار والذكريات عن جيل النبوة وجهاده وغزواته وبنائه الشامخ لمجد الإسلام، فأحرى بالمسلمين اليوم إن يتذكروا كل تفاصيل تلك الملاحم والأمجاد، وان يتفاعل في نفوسهم أثناء رحلة الحج والعمرة، وذلك ما يحصل تماماً للكثير من الحجيج، فهم يرجعون بعد الرحلة بفهم جديد لدينهم أكثر عمقاً وأثراً في النفس والروح، فيصبح الحاج أكثر قرباً من الله وخشية، ويتحسس لدور الكعبة وأثرها الروحي، فيتجسم أمامه معنى القبلة التي يتوحد حولها المسلمون، في كل صلاة، ويستشعر أسوته وقائده الرحمة المهداة ﷺ بشكل أعمق، فقد زاره وسلم عليه وكلمه.

من هنا تأتي أهمية هذه الفريضة ودورها في بناء المجتمع المسلم وتربيته التربية الروحية والإيمانية كما يريدها الإسلام، لتأتي الطليعة المؤمنة التي أدت هذه الفريضة وتؤدي دورها في التغيير والبناء والتوجيه بروح صادقة وقلب ثابت، استمد القوة والشحنة الروحية من زيارة بيت الله العتيق واستلهم التوجيه من القائد العظيم محمد ﷺ وزيارة قبره المنير ومسجده الشريف، واجتمع بالصحب الكرام من أهل البيت والمهاجرين والأنصار والتابعين من بعدهم في مقبرة المسلمين في البقيع، حيث دفن الكثير من الصحابة وأهل بيت النبوة.

إن هذه الخواطر هي بعض ثمار رحلة الحج والعمرة، وغيض من فيض من بها الله سبحانه علي وأنا جالس في البيت الحرام أمام الكعبة المشرفة، فرب بئر زمزم في إحدى أمسيات رحلة العمرة المباركة قبل سنوات.

وصف عام للمسجد الحرام بقلم شاهد عيان

أجلس الآن ، مستقبلاً الكعبة، أمامي أحد جدرانها الأربعة ذلك الجدار الذي تزين بباب الكعبة الذهبية الظلال، وتحديداً خلف مقام إبراهيم وبئر زمزم وعلى بعد خمسين ذراعاً أو يزيد يغطي الكعبة من جميع جوانبها كسوة سوداء مطرزة بخط مذهب، وتسمى تلك الكسوة السوداء أيضاً أستار الكعبة لا سيما عند المؤرخين الأوائل. هي تضيف للكعبة بهاء وجلالاً، فيصبح النظر إليها من أمتع ما ترى العيون والقلوب، حيث تهبك الكعبة الشريفة من أول نظرة الأمن والسكينة، قال رسول الله ﷺ: النظر إلى الكعبة عبادة[220].

من هذا المكان الطاهر المقدس من بيت الله الحرام، أرى باب الكعبة وقد غطت كسوتها المطرزة معظم الباب ولم يظهر إلا ما أزيحت الأستار منها، والكسوة في جوانب الكعبة الأربعة محلقة من الثلث الأعلى بخط مذهب متصل، أسفله قليلاً خط مذهب متقطع، يحوي بعض الآيات والأذكار..

تبدو لي أبعاد الكعبة تقريباً ١٠ متر × ١٠ متر، بارتفاع يقرب إلى ١٢ متر، ومن المعلوم إن جوف الكعبة فضاء خال، كانت العرب في الجاهلية تضع فيه أصنامها وأوثانها. وقد اختار الله سبحانه هذا المكان ليكون أول بيت لله على الأرض وضع للناس قبلة لهم، إذ تتجه إليه جموع المسلمين أثناء الصلاة في كافة أقطار الأرض، وهو رمز وحدتهم وعزتهم، وذلك بخضوعهم لربهم وطوافهم حوله. ويذكر أن الكعبة تحتوي بداخلها على بعض النفائس والآثار الإسلامية الأصيلة التي تعود إلى عصور الإسلام الأولى، كسيف النبي ﷺ وبردته ومصاحف ومقتنيات بعض الخلفاء العظام.

تقع باب الكعبة على يسار جدارها الأمامي قليلاً، ويقع الحجر الأسود في ركن الكعبة القريب من الباب. وهو أثر إسلامي مقدس، وقد سماه رسول الله ﷺ: يمين الله في الأرض، ويعد لمسه وتقبيله أثناء الطواف حول الكعبة سنة نبوية لمن استطاع ذلك ولم يمنعه الزحام وكثرة الحجيج فقد قبله النبيﷺ أثناء الطواف في حجة الوداع[221].

---

[220] رواه أصحاب السنن.

([221]) سيرة ابن هشام.

أما مقام إبراهيم عليه السلام فيقع أمام باب الكعبة تقريباً والى اليمين قليلاً، على بعد لا يتجاوز ١٠ متر عن باب الكعبة، والمقام هو أثر قدمي سيدنا إبراهيم عليه السلام في المكان الذي وقف فيه، وهو يرفع قواعد الكعبة بعد إندراسها، ويعيد بنائها فوق القواعد القديمة التي وضعت لبناء البيت منذ عهد آدم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام الجد الأعلى للرسول الكريم محمد ﷺ، ويذكر إن مقام إبراهيم كان مما يقدسه العرب قبل الإسلام، وهو آية من آيات الله في البيت الحرام ﴿**فيه آيات بينات مقام إبراهيم**﴾ [٢٢٢]حيث تحجر موطئ قدمي سيدنا إبراهيم بعد بناء الكعبة بإذن الله، وأصبح بهذا الشكل آية للناس تذكرنا بإبراهيم وقصة بناء البيت العتيق.

أرى وفود المعتمرين بمختلف الأجناس والألوان تطوف حول البيت، تلبي وتكبر وتناجي الخالق بالأدعية المأثورة، يفيض البشر والفرح على وجهها، فيدفعني الشوق للالتحام بها والطواف مع الجموع المباركة حيث كان الوقت ضحى والسماء زرقاء صافية، ذلك الجو الرائق الذي يغلب على شتاء مكة، مهد طفولة النبي الكريم وصباه وشبابه ﷺ.

تطوف الجموع باتجاه واحد، الكعبة عن يسارهم في طوافهم الذي لا ينقطع – ليلاً ونهاراً– على مدار السنة، إلا يوم عرفة، يدور الطائفون فيمرون بين مقام إبراهيم والكعبة، حتى يصلوا الجدار الثاني حيث يقع أمامه حجر إسماعيل عليه السلام بين الركن الثاني المسمى بالركن الشامي، والركن الثالث المسمى بالركن العراقي أو ركن أبي حنيفة، حيث كان الإمام أبو حنيفة يقف فيه ويجمع أتباعه من أهل العراق ويعظهم ويدعو فيه عندما يأتي للحج. يبعد حجر إسماعيل حوالي ٢ متر عن الكعبة على شكل قوس قطره حوالي ١١ متر وبعرض ١ متر تقريباً، وفوق سطح الكعبة من جهة حجر إسماعيل يقع المرزاب، ويسمى مرزاب الرحمة، ويروى إن الدعاء تحت مرزاب الكعبة مستجاب، وكذلك عند حجر إسماعيل ومقام إبراهيم، ويعد الحجر جزء من الكعبة لذلك حجز عن الطائفين لكي يطوفوا حول الكعبة بضمنها حجر إسماعيل الذي هو جزء منها. أما مقام إبراهيم فقد حث الله سبحانه الطائفين من الحجيج باتخاذه مصلى، قال تعالى:

﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾. [٢٢٣]

---

[٢٢٢] سورة البقرة/ ١٢٥.

[٢٢٣] سورة البقرة/ ١٢٥.

ثم يمر الطائفون أثناء الطواف قرب الجدار الثالث من الكعبة الذي ينتهي بالركن اليماني، وقد كان رسول الله ﷺ يلمسه بيده الشريفة أثناء الطواف ويدعو فيه كثيرا، وكان يكرر دعاء:

﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [٢٢٤]عند هذا الركن.

ثم يمر الطائف قرب الجدار الرابع الذي ينتهي بركن الحجر الأسود وهو كما ذكرنا. حجر مقدس، قيل انه بقية الأحجار التي هبطت مع آدم من الجنة، وقيل جاء به الملائكة من السماء عند بناء الكعبة، لبناء أول بيت للناس لعبادة الله الواحد الأحد. فوضعه سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا المكان عند رفعه القواعد بعد اندراس الكعبة بعد طوفان نوح عليه السلام، ثم وضعه النبي محمد ﷺ في مكانه الحالي عندما أعيد بناء الكعبة في عصر النبي ﷺ وقبل بعثته الشريفة بسنين.

وهو حجر أسود اللون مدور ومقعر قليلاً، قطره المكسوف بحدود ٣٠ سم، محاط بإ طار من فضة، بيضوي الشكل، اكبر قطريه يكون عمودياً بطول ٦٠ سم تقريباً، أما الأفقي فهو بحدود ٤٠ سم، ويرتفع الحجر الأسود عن مستوى ارض البيت الحرام ١،٥ متر تقريباً، ليتمكن الحجيج من لمسه وتقبيله تأسياً بالرحمة المهداة ﷺ.

أما زمزم فهي –في الأصل– بئر قرب الكعبة وعلى بعد ١٦ متر منها بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم، أما الآن فان فوهتها قد أغلقت وترك في مكانها علامة على الأرض فقط، وأصبح الدخول إليها عن طريق سلمين خلف المقام، أحدهما للرجال والآخر للنساء، ويرى النازل إلى مكان البئر تحت الأرض بناء اسطوانياً يحتوي على مضخة ماء وأنابيب توزيع، وقسم الرجال معزول عن قسم النساء، ضمن مساحة تحت الأرض (سرداب)، تحتوي على أكثر من ٢٠٠ براد لماء زمزم (لكل قسم) يشرب منه الحجيج، ويدعون ويصلون عند البئر تأسياً بقول النبي الكريم ﷺ: ماء زمزم لما شرب له[٢٢٥].، كما اعتاد الحجاج والمعتمرون أن يأخذوا معهم عند عودتهم كمية منه ليشربه الناس في بلاد الإسلام كافة.

إن استمرار تدفق الماء من البئر وبركة مائه من الآيات البينات للكعبة المشرفة أيضاً. وزمزم هو الماء الذي تفجر تحت قدمي سيدنا إسماعيل عليه السلام وهو

---

[٢٢٤] سورة البقرة/ ٢٠١.

[٢٢٥] رواه أحمد.

طفل رضيع حين كانت أمه تسعى بين الصفا والمروة بحثاً له ولها عن ماء يسقي ظمأهما في وادي مكة المقفر عندما تركهم إبراهيم هناك بأمر من الله سبحانه.

أما الصفا والمروة، فهي أيضاً من شعائر الله.

قال تعالى: **﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم﴾** [٢٢٦].

وهما جبلان يقعان في الجهة المقابلة لجدار باب الكعبة –الذي أجلس أمامه– بينهما كما يخيل إلي حوالي ٥٠٠ متر، وموقع جبل الصفا مقابل الحجر الأسود تقريباً وعلى بعد يقرب من ٤٠٠ متر، أما جبل المروة فهو مقابل الركن الشامي أي مقابل بداية حجر إسماعيل، والصفا أقرب إلى الكعبة من المروة، ويسعى الحجيج بينهما سبعة أشواط بعد طوافهم حول الكعبة سبعة أشواط أيضاً في الحج والعمرة. مبتدئين بالصفا وقاصدين المروة، والدعاء عند الجبلين الصغيرين مأثور ومبارك. أما ارتفاعهما فلا يزيد عن عشرة أمتار عن مستوى سطح الكعبة المشرفة، التي تقع في قعر الوادي المقدس بين جبال مكة المحيطة بالكعبة. ويروى إن السيدة هاجر أم إسماعيل عليه السلام قد سعت سبعة أشواط بحثاً عن الماء بين الصفا والمروة، وبعد أن رجعت من سعيها إلى طفلها الرضيع، وجدت ماء زمزم قد فاض تحت قدميه بأذن الله. فسكنت ذلك الوادي وسكن الأعراب من بني جرهم بجوارها، ولما كبر ابنها إسماعيل تزوج من بني جرهم، وفي إحدى زيارات سيدنا إبراهيم لأهله في مكة أمره الله تعالى أن يعيد بناء الكعبة مع ابنه إسماعيل، ثم أمره أن يؤذن في الناس للحج، ويهيأ سقاية الحج وعمارته وبقية الخدمات، والتي قسمتها قريش منذ عهد قصي على بيوتها العشرة المشهورة، وهي: هاشم وأميه ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم، وقد أقرّها الإسلام فيما بعد واعتبرها من الأمانات التي يجب المحافظة عليها فيما لا يصطدم مع تعاليم الإسلام الحنيف. وبعد عصر إسماعيل بفترة من الزمان عطلت بئر زمزم وبقيت معطلة ومندثرة لقرون حتى أعاد حفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد ﷺ وهيأها للحجيج مرة أخرى.

قال تعالى: **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة. أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين.﴾** [٢٢٧].

---

[٢٢٦] سورة البقرة/ ١٥٨.

وصف عام للمسجد الحرام والكعبة المشرفة

يحيط بالكعبة المعظمة فضاء واسع نصف قطره بين ٥٠-١٠٠ متر، حسب بعد الأروقة والبناء من الجهات الأربع عن الكعبة يليه بناء فخم ذو أروقة وقباب تزيد على السبعين، ثم بناء آخر ذو أعمدة كثيرة ومنائر عالية عددها تسعة منائر.

كما يحتوي البناء المحيط بالكعبة الشريفة على طابق ثان مخصص للصلاة والطواف والسعي أيضاً، وكذلك سطح الطابق الثاني من البناء، حيث أن جميع الأرضيات حول الكعبة والطابق الأرضي (الأول) والطابق الثاني والسطح العلوي مبلطة بالمرمر الفاخر الناعم ذي مواد خاصة يتراوح لونه بين الأبيض والرمادي، وكذا أعمدة البناء في الطابقين مغلفة بالمرمر الأبيض أو الرمادي، حيث يصل عدد الأعمدة في الطابق الأرضي إلى ألف عمود تقريبا. كما يضم البناء طابقاً آخر تحت الأرض (سرداباً) معد للصلاة، وقد أعد البناء بطوابقه الثلاثة والسطح الأعلى للصلاة والطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، لكي يسع البيت الحرام جموع الحجيج العظيمة والتي وصلت في السنوات الأخيرة إلى بضع ملايين، دون أن يشكل ذلك العدد الغفير مشكلة حقيقية سواء في الطواف والسعي في البيت الحرام أو على جبل عرفات الفسيح الممتد أو بين تلال منى ورمي الجمرات، علماً بأن أداء شعائر الحج بهذه الجموع الغفيرة يعد أضخم تظاهرة دينية على وجه الأرض على الإطلاق.

يحتوي البيت الحرام على أكثر من سبعين باباً، وقد عددتها (٧١) باب، لدخول وخروج الحجاج والطواف والمعتمرين والمصلين أشهرها باب السلام وباب النبي ﷺ وباب علي وباب العباس وباب بني هاشم وباب الصفا وباب المروة وباب أجياد وباب العمرة وباب عثمان... وهي موزعة على محيط البيت الحرام وعلى مداخل مسار السعي بين الصفا والمروة.

كما يوجد حول المسجد الحرام، العديد من الباحات المكشوفة خارج أبواب الحرم مبلطة بالمرمر أيضاً، أهمها ثلاث باحات رئيسية، الأولى تقع أمام باب السلام، وهي محاطة بسياج حديدي، وأبواب من الجهة اليسرى، أما اليمنى فيحدها

---

[٢٢٧] سورة التوبة/ ١٨-١٩.

ارتفاع جبلي مغلف أيضاً، بغلاف كونكريتي محزز ذو منظر جميل، والباحة الثانية أمام باب العمرة. والثالثة أمام باب أجياد. وتصل خطوط النقل والسيارات تحت الأرض إلى هذه الباحات الثلاث المحيطة بالمسجد الحرام ليصل الحجيج والزوار إلى الحرم بواسطة أحزمة ناقلة وسلالم كهربائية، كما تنتشر في هذه الباحات الحمامات والمرافق العامة، وتنتشر الأسواق والفنادق حول البيت الحرام والكعبة المشرفة على شكل أبراج وعمارات وأسواق كثيفة، كما هو شائع في العالم الإسلامي قرب المقدسات والمساجد العريقة والمأثورة سواء في مصر أو الشام أو العراق وغيرها.

وقد وضعت أقواس سوداء اللون من المرمر على جميع الأرضيات والباحات وا لسطوح، يشكل كل قوس منها جزء من دائرة مركزها الكعبة المشرفة، وتبعد عن بعضها أكثر من متر لترتيب صفوف المصلين حول الكعبة.

ويزدان المسجد الحرام بأنوار كاشفة منصوبة في أعمدة فوق السطح عددها حوالي ثلاثون مجموعة موجهة حول الكعبة والباحة المحيطة بها، كما توجد آلاف الثريات الكبيرة والصغيرة، قدرت عددها بخمسة آلاف ثريا، تضيء بناء الحرم، كذلك الأنوار البهية حول الباحات الخارجية، بحيث ترى الكعبة في الليل قريبا مما تبدو في النهار وضيائه.

وتبدو الكعبة المشرفة والبيت العتيق بعد أن هيأ الله ﷻ جمال الجوهر السماوي والمظهر الأرضي، تبدو درة الوجود على الأرض، وجوهرة السماء المهداة للعالمين بركة وهدى ورحمة، يأتيها الناس من كل فج عميق رجالاً وركباناً. كما وعد الله تعالى في قرآنه العزيز، من أراد الإساءة إليها وهدمها من الطغاة قصمه الله ومن أراد رفعتها أعزه الله، يطوف حولها الناس دون انقطاعٍ والى يومِ الدين متصلة بالبيت المعمور في السماء الذي يطوف حوله الملائكة تسبيحاً وتمجيداً للخالق العظيم.. قال تعالى:

﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [٢٢٨].

وقال: **﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.﴾**[٢٢٩].

---

[٢٢٨] سورة الحج/ ٢٧.

[٢٢٩] سورة البقرة/ ١٢٦-١٢٧

خواطر إيمانية في مهد الإسلام

قالوا لأحد العلماء بعد عودته من الحج: حدثنا عن الحجاز وعهدك به قريب. فقال نعم: إن الحديث عن الحبيب حبيب، فتحدث قائلاً[٢٣٠]:

لا أتذكر ذلك اليوم الذي كان فيه ذكر مكة والمدينة جديداً على أذني. وكان اليوم الأول الذي سمعت فيه عن مولد الرسول ومهد الإسلام. وعن مدينة الرسول ومهاجره عليه الصلاة والسلام. وقد نشأت شأن أولاد المسلمين في بيئة لا ينقطع عنها ذكر الحجاز وبلديه المشرفين. وكان أهل البلاد دائماً يسقطون حرف العطف في كلامهم السريع فيقولون (مكة مدينة) فكيف أتخيل وأنا طفل صغير إنهما بلد واحد، وقلما ذكروا مكة إلا وذكروا المدينة بالعكس، فلم أميز بينهما إلا بعد ما كبرت سني وصرت أعقل، وعرفت إنهما بلدان مستقلان بينهما مسافة لا يستهان بها لقد سمعت في صغري عن الجنة ونعيمها. وسمعت بنفس الحنين وبنفس الإجلال عن الحجاز وبلديه فنشأت على الحنين إلى المجموع نشأت على الحنين إلى الجنة والحجاز، فلما تقدمت في السن عرفت إن الجنة لا سبيل إليها في هذه الحياة فصبرت وتجلدت وعزيت نفسي أما الحجاز فقالوا الوصول إليه ميسور. وقرأت إن قوافل الحجاج غادية رائحة، فلم أجد عنه عزاء ولم أجد لنفسي عذراً في عدم الوصول إليه ثم تقدمت في السن أيضا وقرأت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ الإسلام فتجدد الشوق القديم واشتعل الحنين في الضلوع وحقق الله أمنيتي وتشرفت بالحج والزيارة وقفت في هذا البلد الذي تحيط به جبال جرداء سوداء لا يكسوها عشب ولا خضرة ولا تجوس خلالها الأنهار متجردة عن كل ما يسترعي الاهتمام وعن كل ما يشرح الصدور ويسر النفس عن فتنة المناظر، وجمال الطبيعة ورقة الهواء وعذوبة المياه، فقلت ما أفقر هذا البلد في المظاهر وما اكبر فضله على الإنسانية والعالم المتمدن فلولا هذا البلد الذي لا يتطاول بالمظاهر والمناظر لكان العالم قفصاً ذهبيا يبقى فيه الإنسان طائراً سجيناً فهذا هو البلد الذي أخرج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها وأعاد إلى الإنسانية حريتها وكرامتها. ووضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها.

وما قلت لولا هذا البلد إلا وخطر ببالي أن أزن عواصم العالم ومدنها الكبرى كلها في هذا الميزان العادل وارى ماذا ينقص البشرية وماذا ينقص الحضارة لولا هذه المدن

---

[٢٣٠] انظر كتاب الطريق إلى المدينة/ أبو الحسن الندوي.

وعرضـها أمـامي بلـداً بلـداً، فرأيـت أن هـذه المـدن كانـت تعـيش لنفسـها ولحفنـة مـن البشـر. وإنهـا لـم تضـف إلـى ثـروة الإنسـانية شـيئاً كبيـراً، وقـد جنـت علـى المدينـة والإنسانية فـي مختلف أدوارها، فكم أفقرت فـي سبيلها البلاد وكم شقيت أمم لسعادة أمه وشقيت أمة لسيادة أفراد، فلا على الدنيا ولا علـى البشرية ولا علـى الحضارة إذا لم تكن هذه المدن في خريطة الأرض ولم تزدهر فيها المدينة ولا العمران.

أما لولا مكة لتجردت الإنسانية من أجمل ما عندها من معان وحقائق وأخلاق وعلوم وفضـائل، هنـا وجد العـالم إيمانـه الذي فقده منذ قرون، ووجد العلم الصـحيح الذي ضيعه في غياهب الجهل والظنون ووجد الكرامة التي أهدرها الطغاة والظالمون، وبالأجمال هنا وجدت الإنسانية من جديد ووضـع التاريخ من جديد ولكن مالي أقول لولا مكة ما كانت مكة بجبالها ورمالها بل بيتها وزمزمها هذه القرون الطويلـة التـي تقدمت القرن السادس الميلادي لا تتكر من أمر هذه الإنسانية التائهة شيئاً. ولا تمد إليها يد المساعدة محصورة بين جبالها ورمالها تعيش عزلـة عن العالم كأنها ليست مـن أسرة الإنسانية الشقيقة. ولا رقعـة مـن هذه الأرض الفسيحة؟. بـل أحرى بـي أن أقول: لولا ابن مكة الذي تغير به مجرى التاريخ وانتقل به تيار الحياة واستأنف العالم سيراً جديدا إلى نحو جديد.

وهنا تمثلت لي مناظر مختلفة. إني لأرى سيد قريش يطوف بالبيت وحده وهو موضع سخرية واستهزاء وتمتد إليه يد بالإهانة والإيذاء، وهو مقبل على عملـه خاشـع ثم أراد بعدما ينتهـي من طوافـه يحـاول الـدخول فـي البيـت، فيـأبى عثمـان بـن طلحـة سادن الكعبة وينـال منـه، فيحلم ويقول يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت[٢٣١]، فيقول: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت فقال (بل عمرت وعزت يومئذ) ثم كأني أراه يوم الفتح يطوف بالبيت وحولـه جمع من أصحابه الذين يفدونـه بالأنفس والأرواح ويطلب سادن الكعبة فيقول (هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفـاء[٢٣٢]، لقد شـهد التـاريخ انـه لـم يملك المفتـاح الـذي استطـاع أن يفتح بـه الكعبـة فحسب بل المفتاح الذي فتح به أقفال البشرية المعقدة التي أعيت عقلاء العالم كلهم، ذلك المفتـاح هو القرآن الذي نزل عليه، والرسالة التـي أكرمـه الله بها والـذي لا يزال يقدم مسـاعدته لفض مشـكلات جديـدة وفـتح أقفـال جديـدة وتوجهـت بعد الحـج إلـى

([٢٣١]) سيرة ابن هشام/ فتح مكة.

([٢٣٢]) سيرة ابن هشام / فتح مكة.

المدينة المنورة على جناح الشوق يحدوني حادي الحب والوفاء أتحمل متاعب السفر وأتمثل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نورا وسكينة إلى المدينة المنورة وصليت ركعتين في مسجد الرسول ﷺ وحمدت الله على ذلك ثم وقفت وأنا مثقل بمنن لا أستطيع أن أكافئها ولا أستطيع ان اقضي حقها، وصليت عليه وسلمت عليه ﷺ ، وشهدت أنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين وسلمت على صاحبه الوفيين الأمينين اللذين لم يعرف التاريخ البشري صاحباً أوفى لصاحبه منهما ولا خليفة أقوى على حمل أعباء الخلافة منهما رضي الله عنهما وأرضاهما. ثم توجهت إلى البقيع. تلك القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق والصفاء والخلة والوفاء وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا. وآثروا الغربة والهجرة في سبيل الأيمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة واثروا جوار الرسول عن جوار الأحبة والأقارب. فلم يبغوا عنه حولا. ولم يطلبوا له بدلا: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** [٢٣٣].

وتوجهت إلى أحد، تلك القطعة التي مثلت أروع رواية وأعظمها تأثيرا على تاريخ الإنسانية، رواية الإيمان واليقين رواية البطولة والوفاء، رواية الحب الطاهر والولاء النادر، كأني اسمع من أنس بن النضر (إني لأجد ريح الجنة من دون أحد)[٢٣٤].
ويقول سعد بن معاذ: (ماذا نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ) وقد طار في الناس انه قتل فيقول أنس: (ماذا نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ) وهنا في أحد يترس أبو دجانة على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه. وهنا ترس طلحة بيده حتى شلت، وهنا قتل حمزة ومثل به. وقتل مصعب ابن عمير أنعم فتيان قريشٍ عيشاً، ولم يجدوا ما يكفنونه به إلا الكساء الذي لا يغطيٍ كل جده، يا ليت أحداً أعار العلم شيئا من هذا الحب والولاء، وأ هدى للعالم شيئاً من الإيمان واليقين فتبدلت الأرض غير الأرض والعالم غير العالم. إن الحديث عن الحجاز له لون خاص، انه يدور حول رجله العظيم ويتصل برسالته وتاريخه فانه حديث عن مهد الإسلام وبلد الرسول عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: **﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾** [٢٣٥].

---

[٢٣٣] سورة الأحزاب/ ٢٣.

([٢٣٤]) سيرة ابن هشام.

[٢٣٥] سورة القصص/ ٨٥.

الوقوف على غار حراء وتأمل لحظات نزول الوحي

هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ ونزل عليه الوحي الأول. فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً وحياة جديدة. إن العالم ليستقبل كل يوم صباحاً جديداً، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً لا جدة فيه ولا طرفة، ولا خير فيه ولا سعادة، وما أكثر ما استقبل العالم صباحا استيقظ فيه الإنسان ولم تستيقظ فيه الإنسانية، واستيقظت فيه الأجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم، ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كل شيء واستيقظ فيه الكون وتغبر مجرى التاريخ

لقد كانت الحياة كلها أقفالا معقدة وأبواباً مقفلة كان العقل مقفلاً أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلاً أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والآيات كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين. كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلا أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمشترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال فخابوا وأخفقوا، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه، وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم، فإذا هي لا توافق فجرحوا أيديهم وكسروا آلاتهم. ففي هذا المكان المتواضع المنقطع عن العالم المتمدن، على جبل ليس بمخصب ولا شامخ تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبيرة، ومدارسه الفخمة، ومكتباته الضخمة، هنا من الله على العالم برسالة محمد ﷺ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلا قفلاً، وفتح به هذه الأبواب المقفلة باباً باباً. وضع هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل من العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام، وكان قبل ذلك محامياً مأجورا يدافع عن كل قضية حقاً وباطلاً.

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه وعلى شعوره الميت فانتعش وعاش، وتحولت النفس الإمارة بالسوء إلى نفس لوامة، ثم إلى نفس مطمئنة، لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الآثم حتى يعترف الجاني إمام الرسول بجريمته، ويلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي هي اشد من القتل، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى وكنوزه ويخفيها في لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس، ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه، كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر، ولا ترق ولا تلين فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث، وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم، وتحنو على الضعيف.

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة، فاشتعلت كاللهيب. وتدفقت كالسيل واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعي الإبل راعي الأمم وخليفة يحكم العالم، وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد.

وضع هذا المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون، وسقطت قيمة العلم وهان المعلم، فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة وأنفاق وأصبح كل مسجد من المساجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلماً لنفسه، معلماً لغيره، ووجد اكبر دافع إلى طلب العلم والدين.

وضعه على الحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضياً عادلاً، وكل حاكم مسلم حكماً مقسطاً، وأصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط، وجد الأيمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الآسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده، والأخ وإخوته، والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع، فظهر بين السيد وخادمه، والرئيس والمرؤوس، والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين ، إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الأيمان، وحذرها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي**

تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [٢٣٦]. وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله بطريقة مبدعة شاملة، فقال:

كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[٢٣٧].

وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة، ومجتمعاً عادلاً أوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة، وخوفا شديداً من الآخرة حتى تورع الأمراء وولاة الأمور وتقشفوا، وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم، ان استغنى استعف، وان افتقر أكل بالمعروف. وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة، وأضاف الأموال إلى الله، فقرأ: **﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾** [٢٣٨]، وقرأ **﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾** [٢٣٩]، وحذرهم من الاكتناز وادخار الأموال وعدم الإنفاق في سبيل الله. فقرأ عليهم: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبها وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾** [٢٤٠].

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم.

---

[٢٣٦] سورة النساء/ ١.

[٢٣٧] حديث صحيح رواه البخاري.

[٢٣٨] سورة النساء/ ٧.

[٢٣٩] سورة النور/ ٣٢.

[٢٤٠] سورة التوبة/ ٣٥.

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في دورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا، متغلباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم وحراسة المخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة، مؤثرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها إيمان وعمل صالح، وصدق والخلاص، وجد واجتهاد، وعدل في الأخذ والعطاء وإنصاف مع النفس والغير.

صدى الوحي في غار حراء

وقد ذهلت في حديثي لنفسي وأنا في غار حراء، وتمثلت لي الحياة الإسلامية الأولى بجمالها وتفاصيلها كأني أشاهدها وأتنفس في جوها، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، فقلت إني لأرى أقفالاً جديدة على أبواب الحياة الإنسانية، وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعقدت الحياة، والتوت، وتطورت المسائل وتنوعت وتساءلت هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح. ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدت إن هذا الفرد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوة، ولا يعنى إلا بذاته وشهواته، وانه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء المدينة، فإذا كان تاجراً فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها، ويبرزها عند غلائها، ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيراً فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملا فهو العامل المطفف، الذي يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه. وإذا كان غنياً، فهو الغني الشحيح القاسي

الذي لا رحمة فيه ولا عطف وإذا كان والياً فهو الوالي الغاش الناهب للأموال وإذا كان سيداً فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا يرى إلا فائدته وراحته، وإذا كان خادماً فهو الضعيف الخائن المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وجماعته ولا يعرف غيره، وإذا كان مشترعاً فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفاً اكتشف الغازات المبيدة للشعوب المخربة للبلاد، التي تهلك الحرث والنسل.

وبهؤلاء الأفراد تكّون المجتمع وتأسست الحكومة، فكان مجتمعاً مادياً اجتمع فيه احتكار التاجر، وثورة الفقير، وتطفيف العامل، وشح الغني، وغش الوالي، وإجحاف المشترع، وإسراف المخترع والمكتشف، وقسوة المنفذ وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات عنيفة ومشاكل معقدة، تشكو فيها الإنسانية بثها وحزنها فالسوق السوداء وفشوا الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي وأصبح المفكرون والمشترعون لا يجدون حلاً لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى بل إن حلولهم القاصرة ومعالجاتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة. وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغير ويجهلون أو يتجاهلون في كل ذلك إن الفرد وهو الفاسد المعوج ولو عرفوا ان الفرد هو الأساس وانه فاسد معوج لما استطاعوا إصلاحه وتقومه، لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر –لا يملكون ما يصلحون به الفرد ويقو بها اعوجاجه ويقومون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء، لأنهم أفلسوا في الروح وتخلوا عن الإيمان. وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان ويعيد الصلة بين العبد وربه. وبين هذه الحياة والحياة الأخرى وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق وفي الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي وماديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبيد شعباً بأسره وتخرب قطراً بطوله حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية كما نراه اليوم واضحاً عند دول الغرب الاستعماري والنظام العالمي الجديد الذي يتكلم باسم العلم والحضارة والحداثة ويريد استعباد الأمم والشعوب والدول وامتصاص ثرواتها وإفقارها ومحاصرتها والتحكم بمقدراتها ومستقبلها، ولكن الله من ورائهم محيط..قال تعالى: **﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[٢٤١]

---

[٢٤١] سورة يوسف/ ٢١.

وفود الأمة بين يدي النبي في روضته الشريفة

عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ، إنهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير التاريخي في أقدس مكان وأفضل زمان، إنهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضي.

كنت في الروضة في المسجد النبوي، وحولي جمع حاشد من المصلين والمتعبدين بعضهم في ركوع وبعضهم في سجود، ولتلاوة القرآن دوي كدوي النحل، كل ذلك كان جديراً بأن يشغلني عن التفكير في التاريخ وفي رجال الماضي، ولكن غشيتني سحابة من الذكريات القديمة لم استطع لها دفعاً ولم املك لها قهراً.

رأيت كأن عظماء هذه الأمة عاشوا من جديد. وجاءوا وفوداً يصلون في هذا المسجد العظيم ويسلمون على هذا النبي الكريم، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم، والامتنان والاعتراف بالجميل، يشهدون له على اختلاف طبقاتهم، بأنه هو الذي أخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ويشهدون على أنفسهم بأنهم غرس الإسلام وزرع النبوة، وأنهم لا سمح الله –لو تجردوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النبي ومما أتحفتهم به نبوته، لعادوا أجساد بلا روح: وخطأ بلا وضوح، ولعادوا إلى عهد الظلمات وشريعة الغابات وقانون العصابات وانطمست معالم هذه الحضارة.

حانت مني التفاته فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل..وهو اقرب الأبواب إلى –عليهم السكينة والوقار، يعلوهم نور العلم وسيما التفكير، وقد ملئوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحمة باليمين، منعت كثرتهم عن العدو التشخيص، سألت البواب عنهم، فقال: هؤلاء أعلام الأمة وأئمة العلم وعباقرة الإنسانية ونوابغ الوجود. كل واحد منهم إمام أمة ومؤسس مكتبة، ومبتكر علم ومربي جيل، قد خلدت الأجيال بعد الأجيال، وقد سمى منهم على عجل واحتشام، مالك بن أنس وجعفر بن محمد، وأبا حنيفة النعمان وزيد بن علي بن الحسين ومحمد بن إدريس الشافعي. واحمد ابن حنبل وليث بن سعد المصري، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، ومحمد ابن إسماعيل البخاري، ومسلم بن حجاج القشيري، ومحمد بن محمد الغزالي. وتقي الدين بن تيميه، وموفق الدين بن قدامة، وأبا إسحاق الشاطبي، وكمال بن الهمام وأحمد بن

عبد الرحيم الدهلوي، على تفاوتهم في الزمان والمكان، وأصالة العلم وعلو الشأن.

رايتهم بدءوا بتحية المسجد وصلوا ركعتين في خشوع وقنوت، ثم تقدموا إلى القبر الشريف في أدب وتواضع وسلموا على نبيهم ﷺ في كلمات وجيزة المباني، كثيرة المعاني، عميقة الجذور، سامقة الذرى وكأني أسمعهم يقولون، وفي عيونهم دموع وفي صوتهم خشوع: (لولاك يا رسول الله، ولولا شريعتك السمحة الواسعة الخالدة مع الزمان. ولولا أصولها المفتقة للقرائح. ووضعها الحكيم المعجز، الباعث على التفكير والتفريع. ولولا حاجة الإنسان إليها في كل زمان ومكان لما دون هنا هذا الفقه العظيم، وهذا التشريع الحكيم الذي لا تحمله أمة من الأمم ومجتمع من المجتمعات البشرية، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التي تتضاءل أمامها كل مكتبات العالم الدينية، ولولا جهادك في سبيل نشر العلم والحث على استعمال العقل والتدبر في آيات الله لما عاش العلم وانتشر هذا الانتشار الواسع، ولما أطلق العقل الإنساني من إساره وسار العالم في آثاره).

ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريق آخر يدخل من باب الرحمة، عليهم سيما الصلاح والعبادة، وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة قيل لي: إن فيهم الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري، والجنيد البغدادي والفضيل ابن عياض، وداود الطائي، وابن السماك، وعبد القادر الجيلاني، وابن الجوزي البغدادي وابن رجب الحنبلي وعبد الوهاب المتقي الهندي وإضرابهم، اقتدوا بالأولين، وتقدموا الصلاة ووقفوا أمام المدفن الشريف، يصلون على نبيهم وإمامهم وقدوتهم، ويقولون (لولا المثل العملي الذي ضربته في حياتك ولولا منارك الذي أقمته لمن يأتي بعدك يا رسول الله، ولولا قولك: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة) ووصيتك (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ولولا حياتك التي وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (وطلوع هلال ومرور شهر بعد شهر لا توقد في بيتك نار ولا تنصب لها قدر) لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدنيا وان نكتفي ببلغه من العيش وكفاف من الزاد، ولما كان لنا أن نتمرد على الشهوات ونقاوم إغراء الأموال والمناصب والسلطان في غير تحريم لما أحل الله من الطيبات. ومن غير تحقير لما من الله علينا من النعيم، ووسع لنا في الحياة، ولكن إيمان المؤمن وإيثار للآخرة ونعيمها على الحياة الدنيا وطيباتها وعزوف عن الشهوات، وكراهة للتكالب على حطام الدنيا.

ولم استوف كلماتهم الحكيمة الرقيقة حتى لفت نظري فريق يدخل من باب

النساء في حشمة وتستر، بعيد عن كل ما ينافي الإسلام وآدابه من الزينة الظاهرة والتبرج وتقدم هذا الفريق من المسلمات الصالحات، من شعوب مختلفة وبلاد متنائية، من عجميات وعربيات، وشرقيات وغربيات، وتكلمن في صوت خافت وأدب ظاهر.

(نصلي ونسلم عليك يا رسول الله! تسليم من عظمت عليه منتك، فقد أنقذتنا بإذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية وظلم المجتمع،وجور الرجال)، وحرمت وأد البنات وحذرت من عقوق الأمهات، وقلت: (الجنة تحت إقدام الأمهات) وأشركتنا في الإرث وبينت نصيبنا أماً وأختاً وز وجا، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة يوم عرفة، فقلت: (فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله) إلى غير ذلك مما حثثت به الرجال على الإنصاف للنساء وأداء حقوقهن وحسن عشرتهن، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين).

ولم ينقطع عن أذني هذا الصوت الرخيم حتى سمعت حسيس قوم يدخلون من باب السلام، والتفت إليهم فإذا هم مبتكرون للعلوم ومدونون للفنون، أئمة النحو واللغة والبلاغة، فيهم الأسود الدؤلي، والخليل بن أحمد، وسيبويه، والكسائي، وعبد القاهر الجرجاني، والسكاكي وابن منظور، ومجد الدين الفيروز آبادي، وسيد مرتضى الزبيدي، يريدون أن يبلغوا تحية علومهم ويدفعوا ضريبة ما عاشوا عليه واشتهروا به، وسمت مكانتهم بفضله، وسمعتهم يقولون في بلاغة وأدب:

لولاك يا رسول الله ولولا الكتاب الذي نزل عليك، ولولا حديثك الذي نطقت به، ولولا هذه الشريعة التي دانت بها الأمم، واحتاجت لأجلها إلى تعلم اللغة العربية والتفقه فيها، لما نشأت هذه العلوم التي كتب لنا شرف الزعامة فيها، ولما كان نحو ولا بيان ولا بلاغة، ولما ألفت هذه المعاجم الكبيرة ودقق في مفردات اللغة العربية، ولما جاهدنا في سبيلها هذا الجهاد الطويل، ولما خضع العجم وهم في سعة من لغاتهم وغبطة بلهجاتهم لدراسة اللغة العربية والتعمق فيها. ولما كان منهم هؤلاء الأعلام الذين أقر بفضلهم ونبوغهم أدباء العرب وجهابذة الأدب فأنت الرابطة يا رسول الله! بيننا وبين هذه العلوم الناشئة في الإسلام. النابتة في عهد رسالتك وإمامتك وأنت الرابطة بين العرب والعجم، وأنت الذي ملأ الله بك هذا الفراغ. ووصل البعيد بالقريب والعجمي بالعربي فكم لك من فضل على نبوغنا وعبقريتنا، وكم لك من فضل على ثروة العلم ونتاج العقول ومحصول الأقلام.

ولولا أنت يا رسول الله! لطويت اللغة العربية فيما طوي عن اللغات واندراس من اللهجات، ولولا القرآن العظيم العربي المبين لتناولها المسخ والتحريف كما تناول

اللغات الكثيرة، وابتلعها العجمة واللهجات المحلية وقضى عليها اللحن، ولكنه هو وجودك. وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الإسلامي كله، وغرس حبها وإجلالها في قلب كلِ مسلم، فأنت الذي خلّد الله بك هذه اللغة وضمن بقاءها وانتشارها وسلامتها، فلَك على كل من ينطق بها أو يكتب فيها أو يعيش بها أو ينادي إليها وصل لا يجحد).

ولم انتبه من مقالتهم حتى استرعى انتباهي قوم يدخلون من باب السلام أيضاً، خليط من البشر، ومزيج من الأمم فيهم أعظم سلاطين العالم وأعظم ملوك عرفهم التأريخ، فيهم الوليد بن عبد الملك، وهارون الرشيد ومحمود الغزنوي، وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، ومحمد الفاتح وغيرهم من عظماء التاريخ الإسلامي. وقد نحوا الخدم ورجال الشرطة عنهم وتركوهم وراء الباب يتقدمون في هيبة وتواضع، غضيضة أبصارهم، خافتة أصواتهم واستعرضت أسماؤهم وأدوارهم والدنيا الواسعة التي كانوا يحكمونها والسيطرة التي كانوا يتمتعون بها، فمنهم من كان يحكم دولة لا تقطع في اقل من خمسة أشهر على أسرع جمل (وهو الوليد الأموي) ومنهم من قال مرة لسحابة مرت به (أمطري حيث شئت... فسيأتيني خراجك) (وهو الخليفة هارون الرشيد العباسي) ومنهم من اتسعت مملكته حتى استطاع أن يأمر بأن يدفع إلى أصحاب نهر جيحون أقصى الشرق أجرتهم من مالية إنطاكية في أقصى غرب المملكة ومنهم من كان يرهب في أوربا وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس. إذا دخل المسلمون في بلادهم احتراماً لدينهم وإشفاقاً من سلطانهم (وهو محمد الفاتح) ومنهم ومنهم.

رأيتهم يتقدمون ليصلوا في مسجد الرسول، ويسلموا على صاحبيه يعتبرون ذلك أعظم سعادة لهم واكبر شرف ويتمنون لو رفعت هذه الصلاة ولو قبل هذا التسليم ويسمح لهم بالوقوف في مصلاه، والوقوف إمام مرقد الرسول يقومون بواجب الإجلال والتكريم، والاعتراف بالجميل، رأيتهم يتقدمون إلى الأمام تقصر خطاهم وتتعثر أقدامهم، والمهابة تملأ قلوبهم حتى وصلوا إلى الصفة –وهو مكان فقراء الصحابة– ووقفوا أمامها ينظرون إليها نظر الإكبار والإجلال ونظر الحياء والاحتشام وصلوا بجوارها تحية للمسجد، ثم تقدموا إلى القبر الشريف فسلموا على نبيهم كما شاء حبهم وإجلالهم وكما شاء علمهم وإيمانهم، متأدبين بآداب الشرع، متقيدين بشريعة التوحيد، وسمعتهم يقولون:

(لولاك يا رسول الله! ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت الآفاق وفتحت البلاد

ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف والطموح والمغامرة فأسسوا دولاً واسعة وفتحوا بلادا شاسعة، وجبوا الخراج من الأمم التي كانت تسوقهم بالعصا وترعاهم كالغنم. فلولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ومن الانطواء على النفس والحياة القبلية الضيقة إلى غزو العالم وفتح الأمم لما ارتفعت لنا راية، ولا رويت لنا رواية، ولبقينا في صحارينا القاحلة وفي أوديتنا الضيقة المظلمة، نتصارع ونتناحر، يأكل القوي منا الضعيف ويظلم الكبير منا الصغير، طعامنا أفقر طعام، وعيشنا أخس عيش، لا نفكر في مكان أوسع من هذه القرية الصغيرة التي نعيش فيها ولا في مجموع من البشر أكبر من هذه القبيلة الصغيرة التي نرتبط بها، أسماك بركة وضفادع بئر، نعيش في عالم من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ونغني بمجد آبائنا الجهلاء السفهاء، ولكنك يا رسول الله ألقيت علينا ضوءاً من دينك يفتح به عيوننا وتوسع به خيالنا، فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع، ورابطته الجامعة، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة نحارب الشرك والوثنية والجهالة والظلم، فأسسنا هذه الدول العظيمة ونعمنا ونعم أولادنا وإخواننا في ظلها قروناً، وها نحن أولاء، نقدم إليك تحياتنا ونقدم إليك ضريبة الإجلال والتكريم والحب والتعظيم، وهي ضريبة نقدمها طوعاً واختيارا ونتشرف بتقديمها ونعترف بتقصيرنا في جنب دينك الذي أسعدنا الله به وتطبيق أحكامه وتنفيذ قانونه، ونستغفر الله تعالى انه الغفور الرحيم).

وقد كنت مصروفا إلى هؤلاء الملوك أرى وجوههم الخاشعة وأسمع كلامهم الرقيق الذي لم أسمعه أبدا منهم، إذ تقدم فريق آخر مشى في صفوف الملوك من غير اكتراث واهتمام. ولا يخشى لهم سطوة ولا يراعي لهم حرمة، فقلت شاعر أو ثائر. فإذا هو مجموع من الفريقين.

وقدموا أحدهم ترجماناً لهم يقول (أشكو إليك يا رسول الله! من قوم لا يزالون يعيشون في رفدك، ويأكلون من فتات مائدتك، وينعمون بالحرية والشرف في بلاد أنت حررتها من حكومة الظالمين، وأخرجتها إلى ضوء الشمس. إنهم يحاولون أن ينقضوا الأساس الذي قامت عليه هذه الأمة العظيمة، وهذا الصرح العظيم، ويريدون أن يوزعوا أمتك الواحدة في أمصار عصبيات كثيرة، ويحيوا ما أمته ويبنوا ما هدمته، ويرجعوا بهذه الأمة إلى الجاهلية التي أخرجتها منها للأبد، ويقلدوا في ذلك أوربا التائهة الحائرة المفلسة، ويبدلوا نعمة الله كفراً ويحلوا قومهم دار البوار، إن الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبي لهب قد عاد من جديد وقد انضم إلى معسكر أبى

لهب كثير من الناطقين بلغتك، وعادوا يتغنون بأمجادهم الجاهلية والأصنام التي حطمتها، إنهم المطففون الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، نالوا منك كل بر عاشوا به، وكل قوة اعتزوا بها، ثم إنهم يأخذون بنواصي شعوبهم التي يحكمونها ويريدون أن يلقوها في أحضان أوربا وفلسفاتها الجاهلية من مادية ومصلحية، ها هي الأوثان التي أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد إلى الشعوب المسلمة السليمة البريئة بأسماء جديدة وبثياب جديدة إني أرى في بعض أجزاء العالم العربي الذي يجب أن يكون معسكرك ثورة لا فاروق لها. وردة لا أبا بكر لها. مني ومن جميع أصحابي الذين أتشرف بتمثيلهم والتعبير عما في ضمائرهم إليك أفضل التحيات وأشرف التسليمات، وأؤكد لك وأشهد الله على ما أقول إننا براء من الزعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب وانصرفوا عن قبلة الإسلام وشطره. والذين لا صلة لهم بك ولا شأن لهم بدينك. إننا ندين لك بالولاء والوفاء وسنظل متمسكين بحبل الإسلام حتى يأتي وعد الله ونلقى ربنا)[٢٤٢].

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منائر مسجد الرسول الكريم ﷺ ، الله أكبر، الله أكبر.. وأفقت من غفوتي وما كنت أسبح في من عالم الخيال والتاريخ وإذا بي أمام الواقع رجال في الصلاة ورجال في تلاوة القرآن، وجموع من المسلمين ووفود من العالم الإسلامي تسلم على الرسول ﷺ . وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف تصدر من أرجاء المسجد النبوي الشريف وروضته المباركة.

---

[٢٤٢] الطريق إلى المدينة/ أبو الحسن الندوي، فصل وفود الأمة بتصرف واختصار.

البعثة النبوية ومولد النور

سرح طرفك في عالم القرن السادس الميلادي، ولا يفتتنك الأبنية الشامخة المشيدة، والملابس الفاخرة المزخرفة، وقناطير الذهب والفضة المقنطرة فذلك ما تراه في مجموع الصور القديمة ودار الآثار العتيقة.

ولكن انظر هل ترى للمروءة حياة في ناحية من نواحي الشرق والغرب، احبس نفسك واستمع، هل تحس لها عرقا ينبض وقلبا يخفق آنذاك.

ترى الحياة بحرا يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير والعالم غابة يفترس فيها الأسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخراف، لقد انتصر الشر على الخير والرذيلة على الفضيلة والأهواء على العقل والبطن على الروح. لقد تطاولت الأرض السماء سفاهة ونصبت للفرقدين الحبائل.

أصبحت الدنيا سوق المناداة، بضائعها كل ملك ووزير وغني وفقير يباعون بيع السلع، فهل ترى في هذا الغمار فتى يربأ بنفسه عن أن يباع بيع السلعة وينادي: إن هذا الجو الفسيح لا يسع لطيراني، لقد كانت الحياة لا تقع مني بمكان فخلق الله لي حياة ثانية، فكيف أبيع روحي وجوهر إنسانيتي بكسر من كسور هذا العالم الصغير؟ لقد صارت الشعوب والبلاد، ثم القبائل والعشائر، ثم الأسر والبيوتات دوائر صغيرة، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء إن يسكنوا فيها كالأقزام، لا يضيقون بها ذرعاً، ولا يبغون عنها بدلا، ولا يرون في خارجها حياة، ولا يعرفون بشرية أوسع وعالماً أفسح، لقد أصبحت الحياة تعاطياً في البيع والشراء وتسابقاً في المكيدة والخداع، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولوعة قلب وسمو نفس.

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية، والحشرات السامة، وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق وفي الغابة كل سبع مخيف وكل طائر جارح، وفي المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالإنسان ويمتص دمه، لكن لم يكن في هذا العالم المزدحم بالبشر من لا يستحق ان يسمى بشيراً. أما الرجال فقد لجئوا إلى المغارات والأديار والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم، أو مكثوا في تيار الحياة يتلهون بالفلسفة ويتغنون بالشعر، وليس في المدينة رجل جد يكافح أعداء المدينة وينتصر للبشرية المظلومة.

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عشعشت عليها وباضت وفرخت وهي

تحسب إنها ميتة لا حراك بها. وإذا ببيوت العناكب تتفتت وتتساقط وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج إيوان كسرى وخمود نار المجوس، أما رأيت كيف تتناثر المباني المجصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض، فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم؟.

بعث محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ في مكة قلب العالم المتمدن المعمور، فأرسل صيحة دوت بها الغابات وجاوبتها الجبال، وذلك قوله تعالى (لا اله إلا الله محمد رسول الله) كلام وجيز يحمل في أثنائه عالم المعاني والحقائق، ولقد شهد التاريخ بان أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تتزلزل بشيء مثل ما زلزلت في هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة وان الذهن البشري لم يضرب أبداً قبل هذه ضربة موجعة، فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضباً وجن جنونه وقال **﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾** [٢٤٣] وأعتقد قادة هذه الحياة انه أمر مبين وخطة مدبرة ضد هذه الحياة السائدة، وأنه لابد من مكافحتها: **﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾** [٢٤٤]، لقد كانت ضربة قاسية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها يتأثر بها هيكل الحضارة والسياسة بجميع أركانه.

لقد كانت –ولا تزال– هذه الكلمة تعني إن هذه الحياة ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن، بل هي حديقة منسقة غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها وإصلاحها وان الإنسان ريحانة هذه الحديقة، وروح الربيع وكيف تذبل هذه الريحانة وتدوسها الأقدام. أو تخطفها الطير أو تهوي بها الريح، ولم تؤد مهمتها ولم تحل المحل اللائق بها، فتقتضي فطرته أن يعبد الله وحده، وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بها، فتقضي فطرته أن يعبد الله وحده، وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بغير رضا الله، ويقتضي شرفه وكرامته أن يجاهد في هذا السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب، أو مال ومكاسب، وليس للإنسان أن يتضامن الجسد أو روح أو جبل ونهر أو شجر وحجر، أو ثروة مثر أو جاه وجيه، أو سلطان ملك، انه ليسمو على كل مخلوق

---

[٢٤٣] سورة ص/٥.

[٢٤٤] سورة ص/ ٦.

ويتضاءل أمام خالقه، إن العالم لم يخلق إلا ليخدمه ويطيعه، إن الله ﷻ قد أسجد له الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية، ليعلم الإنسان إن هذا الكون خاضع له متواضع، فيأمره وينهاه، ويستخدمه لمصالحه الطيبة ويسخره لمآربه العادلة وذلك قوله لا إله إلا الله.

ثم إن حياة الإنسان هي السهم الوحيد الذي يملكه فإذا أصاب غرضه فيا له من سهم مصيب، وإذا طاش وأخطأ رميته فيا رزيئة رام ضيع سهمه الوحيد! وان حياته لوسيلة كل سعادة في الدنيا والآخرة وإنها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضنيناً بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها، وان لا يضيعها في تجربة واختبار، وفي مخاطرة وقمار، ومن لا يخبط فيها خبط عشواء ولا يركب متن العمياء، فإنما هي حياته الوحيدة وما أقبح القمار في رأس المال وما أشده خطراً! فينبغي أن يسير مركب الحياة بدلالة خريت حاذق مجرب، فان المفازة موحشة وقطاع الطريق كثير. وان يسير في ضوء النبوة والوحي فان عالم القياس والتخمين ظلام ﴿**ظلمات بعضها فوق بعض**﴾[245] وان النبوة هي النور الوحيد في هذه الظلمات المتراكمة. والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم. والنبي هو المتصل بهذا المنبع، والواسطة بين الحق والخلق في الهداية ﴿**وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى**﴾ [246]وان محمداً ﷺ هو آخر المتصلين بهذا المنبع، وخاتم الأنبياء والمرسلين الذي ينسخ الله به الأديان ونصبه إماماً لكل زمان ومكان وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية، ومعاني الحسن والإحسان، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر وان دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء فلا يتم الإيمان بالله ولا يمكن الوصول إليه إلا بالأيمان بالرسل عامة وبمحمد ﷺ خاصة، وذلك قوله (محمد رسول الله) وان الإنسان ليحمل في رأسه طموحاً لا يشبع، وهمة في قلبه لا تقف، وروحاً في جسمه لا تني، وقلباً في جنبه لا يطمئن، فلا يروي غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق، المتثاقل، وان طاعته وعصيانه لأوسع من أن يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود، فتلزم له حياة خالدة، وعالم لا يعرف الثغور والأطراف، ليست هذه الحياة إلا قطرة من يم إذا قورنت بالحياة الآخرة، وليس هذا العالم إلا شبحاً إذا

[245] سورة النور/ ٤٠.

[246] سورة النجم/ ٣-٤.

قوبل بالعالم الآتي وذلك هو الإيمان بالبعث والحياة الآخرة الذي هو تمام الإيمان، وثالث الأركان في الأديان.

مولد النور ببعثة المصطفى

لقد بلغ الذهن الإنساني في القرن السادس الميلادي من الشلل الفكري وبلادة الحس غاية عجز معها عن إن يتخطى الماديات والمحسوسات وما يتصل بالجسم والبطن وان يعتقد الإنسان اختصاصاً بالنبوة والوحي، لقد كانت لهم مقاييس ورثوها عن آبائهم. فإذا رأوا بدعاً من البشر أو مثالاً جديداً للإنسانية قاسوه بمقاييسهم، قد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى في العظمة الإنسانية، فإذا نبغ فيهم عبقري وظهر فيهم رسول قاسوه بهم لقد افرغوا جهدهم، ونثروا كنانة فكرهم، فلم يروا إلا إن محمداً ﷺ أما طالب ثراء ورخاء، أو رائد سيادة وملك، أو منتجع ترف ولهو، وإذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا انه لم يبعد النجعة، فإنه لم يجرب طموحاً فوق طموح الملوك، وتطاولاً أكثر من تطاول الأمراء والوزراء، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة، فكلم محمداً ﷺ ، وكان ما قاله تمثيلاً صحيحاً لذهن ذلك العصر وتعبيراً صادقاً عن عواطفه ونفسيته قال : (يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالا، وان كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وان كنت إنما تريد ملكاً ملكناك علينا[٢٤٧].

وما أجاب به رسول الله ﷺ كان تمثيلاً صحيحاً للنبوة، وعرضاً صادقاً لموقف الأمة الوليدة فأثبت انه لا يطمح إلى ثراء ورخاء أو شرف وترف. ان نفسه عالية تسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الأرض، انه لاتهمه راحته الذاتية ورقيه الشخصي، إنما يقلقه مستقبل البشر، انه لا يصنع لنفسه جنة شداد بل يريد ان يعيد الإنسان المنفي إلى الجنة الخالدة التي أعدت له، انه لا يسعى ليسود قبيلة او أمة، بل يريد أن يخرج الإنسان من حكم الإنسان، كائناً من كان، ويدخله في رحمة سيده الذي هو رب السماوات والأرض.

على هذا الأساس نهضت هذه الأمة، وبهذه الرسالة انتشرت في العالم، وان ما أجاب به رسل المسلمين في مجالس رستم، ويزدجرد، يمثل تمثيلاً صادقاً لروحها ونزعتها، قال ربعي بن عامر ﷺ (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل

---

(٢٤٧) البداية والنهاية/ لابن كثير.

الإسلام. ولما أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفذوا فعلا ما كانوا يدعون إليه غيرهم. فخرج الإنسان من حكم الإنسان إلى حكم الله وعدله لم يكن الحكم لقوم أو عشيرة، بل كان الأمر والنهي لله. يقول الخليفة الأول ﷺ أطيعوني ما أطعت الله فيكم. فان عصيته فلا طاعة لي عليكم، وقال عمر ﷺ لعمرو بن العاص وقد ضرب ابنه رجلاً من أهل مصر: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا). وكان نائبهم على دولة كبيرة كفارس يعيش في عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الأمة حتى يتوهم الغريب انه فقير أو أجير. فيضع الحمل على رأسه ويحمله إلى بيته.وكان أكبر غني منهم يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، يستهين بملذات هذه الحياة الفانية، ويدخر طيباته للحياة الخالدة.

كان وجود هذه الأمة في كل ناحية من نواحي العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية والذات الجسدية وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم وليداً وميتاً، إن وراء القوى المادية قوة سماوية، ووراء الحياة الفانية حياة خالدة. فإذا ولد وليد صرخ في إذنه بهذه الحقيقة وإذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة، إذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت، وغاص الناس في بحر الحياة إلى آذانهم، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية، إذا بصوت يدوي حي على الصلاة حي على الفلاح، فينكسر طلسم العالم المادي، وتتجلى الحقيقة الروحية، ويجري الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم، وإذا ضرب الليل رواقه، ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحي الصاخب فإذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب، وإذا بمعين الحياة ينصب في وادي الموت، وينبلج الصبح الصادق في الليل الغاسق وتتلقى الإنسانية الناعسة من مؤذن الفجر درساً في الحياة والنشاط والكدح والكفاح، والشكر والعبا دة، وإذا اغتر أحد بقوته وسلطانه وزها بكثرة ملئه وأعوانه وقال بلسان المقال أو بلسان الحال (أنا ربكم الأعلى) أو (ما لكم من إله غيري) قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه ونادى (الله اكبر الله اكبر) فينادي بحكم الله في مملكته، ويرغم أنف الإله الكاذب في سلطانه المالي أو الاجتماعي، وينبهه من رقدة الغافلين وغرور المتجبرين. قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** [٢٤٨].

---

[٢٤٨] سورة الأنبياء/ ١٠٧.

ولكي نتأمل مولد النور ومبعث المصطفى ﷺ والمشاهد العظيمة التي شهدها النبي وصحبه، كعيون بدر وجبل أحد ووادي الخندق والبقيع والمسجد النبوي وقباء والقبلتين وحراء وجبل النور.. والكعبة المشرفة قبلة العالمين وبئر زمزم ومقام إبراهيم ومنى والعقبة وعرفات، وغيرها من المشاهد الكريمة. لابد لنا لكي نعيش مع المصطفى في سيرته العطرة، من أن نسلك طريق الهدى والإيمان، ونشد الرحال للذهاب إلى حيث النور والوحي والرسالة في الأرض المباركة، في الطريق إلى مكة والمدينة[٢٤٩]. واعلم أن ثمرة الإعجاز القرآني واليقين الرباني والسير في مدارج السالكين، هي أن نعيش مع سيد المرسلين في موطنه الذي عاش فيه، نتأمل خطاه وأنفاسه، التي أوصلت لنا الرسالة الخاتمة كما أرادها الله سبحانه، ولابد من زيارة مولد النور وبزوغ فجر الإسلام لكي تتم النعمة ونشعر بعظمة الإسلام وكتابه المعجز العزيز. لابد من شد الرحال إلى البقعة المباركة في أرض الأنبياء والمرسلين، تلك الأرض التي باركها الله في عليائه، في مكة والمدينة والقدس الشريف. وهناك ستشهد بروحك وقلبك غاية الإعجاز الرباني والمدد الإلهي الذي حبانا وانعم علينا بهذا الدين العظيم وهذا الكتاب المعجز المنير .. القرآن الكريم..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[٢٤٩] انظر حول مولد النور كتاب: الطريق إلى المدينة/ أبو الحسن الندوي.

المؤلف في سطور

باحث عراقي ولد في ديالى/ بلدروز، سنة ١٩٥٤م..

أكمل دراسته الجامعية في كلية الهندسة/ جامعة بغداد سنة ١٩٧٦، وعمل مهندساً ثم مديراً لدائرة الصيانة والخدمات في شركة ديالى العامة حتى سنة ١٩٩٢م، والآن يعمل مهندس استشاري في وزارة الصناعة والمعادن.

تفرغ للبحوث والدراسات التاريخية والقرآنية لمدة ٢٥ سنة.

ويتمحور فكر المؤلف ومشروعه الحضاري في ثلاثة محاور قرآنية تجديدية رئيسية هي:

١- محور الإعجاز العلمي وقد طبع له فيه أكثر من عشرة مؤلفات خلال السنين ١٩٨٦ – ١٩٩٦م.

٢- محور الوحدة والتقريب الإسلامي وعلاج الطائفية، وقد طبع له فيه أكثر من عشرين كتاباً في بغداد وعمان والقاهرة والدوحة ودمشق، بين ١٩٩٤– ٢٠٠٦م.

٣- محور الهوية والانتماء الحضاري للأمة، وأبحاث في لغة القرآن والتأكيد على فهمه فهماً عصرياً بلسان عربي مبين، والتأكيد على وحدة الأصل البشري والحضاري، لغةً وعقيدةً وجنساً. وقد طبع له في هذا المجال عدة كتب في بغداد وعمان ودمشق، منها:

– كتاب في آفاق عولمة اللغة والتاريخ.. لغة آدم ولغة القرآن وأثرها في لغات العالم، طبع عمان/ عالم الكتب الحديث ٢٠٠٨م.

– كتاب الانتماء الحضاري والهوية الثقافية في ضوء عروبة القرآن.. أو الإسلام العربي، طبع دمشق/ دار يعرب ٢٠٠٨م.

– لافتات مضيئة في عصر العولمة، طبع بغداد/ دار الرقيم ٢٠١١م

٤- إضافة إلى كتب وبحوث عديدة في مجال التراث والتاريخ وعلوم القرآن وبعض الكتب الهندسية (مجال تخصصه الوظيفي). وكتب المدرس عشرات المقالات التراثية والإسلامية في الصحف والمجلات العراقية والعربية والمواقع العربية والإسلامية، منها مجلة المفكر الإسلامي ومجلة الكوثر جريدة الزمان، وجريدة القبس ومجلة الوعي الاسلامي الكويتية، وموقع هدي الإسلام وموقع الإسلام أون لاين وغيرها.. وطبع له أكثر من خمسين كتاباً في بغداد وعمان والدوحة والقاهرة ودمشق وبيروت، أهمها:

١- الظاهرة القرآنية والعقل ط. بغداد سنة ١٩٨٦م.

٢- النبوءة والإعجاز في القرآن والسنة ط.بغداد سنة ١٩٨٨م.

٣- الوصايا الخالدة في القرآن الكريم ط.بغداد سنة ١٩٩٢م.

٤- النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة ط.بغداد وعمان والدوحة والقاهرة خلال السنين ١٩٩٨ - ٢٠٠٦م.

٥- ثقافة الوسط ط. بغداد وعمان سنة ٢٠٠٤- ٢٠٠٦م.

٦- الدر المنثور من تراث أهل البيت والصحابة ط.بغداد وعمان ١٩٩٩-٢٠٠٥.

٧- أقباس من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ط. بغداد ٢٠٠١م.

٨- أقباس من أثر القرآن في التاريخ والحضارة والتراث ط. بغداد ٢٠٠١م.

٩- تراث الأنبياء بين العلم والقرآن والتوراة ط. بغداد سنة ٢٠٠٠م.

١٠- تحت رماد الحرب العاصفة ط. بغداد وعمان وبيروت ودمشق سنة الطبع ٢٠٠٣م/ ٢٠٠٤م.

العضوية في النقابات والجمعيات:

١. عضو نقابة المهندسين العراقية رقم ١٢٥٣٥ سنة ١٩٧٦.
٢. عضو اتحاد المؤرخين العرب منذ سنة ١٩٩٨م.
٣. عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق منذ سنة ١٩٩٩م.
٤. عضو جمعية الناشرين العراقيين منذ سنة ٢٠٠١م.
٥. عضو جمعية الصحفيين العراقية منذ سنة ٢٠٠٣م.
٦. عضو جمعيتا الآداب والتربية الإسلامية/ بغداد.
٧. عضو جماعة الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية/ العراق.
٨. عضو جماعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ بغداد.
٩. عضو التجمع الدستوري العراقي/ بغداد.
١٠. عضو في المنتدى العالمي للوسطية/ عمان.

المصادر

1. الطب النبوي/ ابن القيم الجوزية.
2. الطب محراب الإيمان/ د. خالص كنجو.
3. العلوم الطبيعية في القرآن/ يوسف مروة.
4. الصراع الفكري/ مالك بن نبي.
5. نبوة محمد ﷺ/ د. فاضل صالح السامرائي.
6. التعبير القرآني/ د. فاضل صالح السامرائي.
7. الظاهرة القرآنية/ مالك بن نبي/ بيروت – لبنان.
8. تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة/ عبد المجيد الزنداني.
9. علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة/ عبد المجيد الزنداني.
10. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن/ لابن الزملكاني.
11. ليس في الإسلام تقديس للأرقام/ إدريس الكلاك.
12. الطب الوقائي في الإسلام/ د. عمر محمود عبد الله.
13. خلق الإنسان بين الطب والقرآن/ د. محمد علي البار.
14. التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن/ حنفي أحمد.
15. شمس العرب تسطع على الغرب/ د. زغريد فاغليري.
16. دراسة الكتب المقدسة/ د. موريس بوكاي.
17. المائة الأوائل/ د. مايكل هارث.
18. موقف القرآن من العلم/ د. عماد الدين خليل.
19. الإعجاز العددي للقرآن الكريم/ د. عبد الرزاق نوفل.
20. السنة والعلم الحديث/ د. عبد الرزاق نوفل.
21. الرسول ﷺ/ الشيخ سعيد حوى – عمان.
22. النبوة في ضوء العلم والعقل/ محمد رشدي عبيد.
23. منهجية التربية الدعوية/ محمد أحمد الراشد، ط٣. بغداد ٢٠٠٣م.
24. الرسول في كتابات المستشرقين/ نذير حمدان/ دار المنارة–جدة.

٢٥. محمد في التوراة والإنجيل والقرآن/ إبراهيم خليل أحمد (فيليب سابقاً).
٢٦. الظاهرة القرآنية والعقل/ علاء الدين المدرس.
٢٧. النبوءة والإعجاز في القرآن والسنة/ علاء الدين المدرس.
٢٨. الموضوعات الطبية في القرآن الكريم/ د. محمد جميل الحبال.
٢٩. ألواح سومر/ صموئيل كريمر.
٣٠. الإنجيل والصليب/ داود عبد الأحد.
٣١. الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد).
٣٢. تاريخ العرب في الجاهلية/ رشيد الجميلي.
٣٣. تجديد الفكر الإسلامي/ د. محسن عبد الحميد.
٣٤. إسرائيليات معاصرة/ د. صلاح الدين الخالدي.
٣٥. الفلسفة القرآنية/ عباس محمود العقاد.
٣٦. النبوات/ ابن تيمية – القاهرة.
٣٧. القول الصحيح لمن بدل دين المسيح/ ابن تيمية.
٣٨. دلائل النبوة/ للإمام البيهقي/ مكتبة النهضة/ بغداد.
٣٩. دلائل النبوة/ للإمام السيوطي/ مكتبة النهضة/ بغداد.
٤٠. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى/ للإمام ابن القيم الجوزية.
٤١. حياة الصحابة/ محمد يوسف الكاندهلوي/ دار النصر/ القاهرة.
٤٢. قصص الأنبياء/ عبد الوهاب النجار/ مؤسسة الحلبي/ القاهرة/ ١٩٦٦م.
٤٣. قصة الإيمان/ للشيخ نديم الجسر/ بيروت – لبنان.
٤٤. محمد ﷺ/ د. مصطفى محمود/ بيروت – لبنان.
٤٥. فقه السيرة/ د. محمد سعيد رمضان البوطي/ مكتبة الشرق/ بغداد.
٤٦. التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي/ الأمير شكيب أرسلان.
٤٧. التبشير والاستعمار/ الخالدي وعمر فروخ.
٤٨. تاريخ البشرية/ أرنولد توينبي (جزءان).
٤٩. تاريخ الشعوب الإسلامية/ كارل بروكلمان.
٥٠. صلاح الدين والصليبيون/ عبد الله سعيد الغامدي.

٥١. أباطيل وأسمار/ محمود شاكر.
٥٢. الوحي المحمدي/ الشيخ محمد رشيد رضا.
٥٣. الأعمال الكاملة للأفغاني/ تحقيق د. محمد عمارة.
٥٤. الأمير/ ميكافيلي.
٥٥. نهاية التاريخ/ فرنسيس فوكوياما.
٥٦. صدام الحضارات/ صموئيل هنتكتون.
٥٧. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس/د.ماجد عرسان الكيلاني.
٥٨. الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها/ د. ماجد عرسان الكيلاني.
٥٩. قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام.. أبيدو أهله/ جلال العظم.
٦٠. حقائق عن الغزو الفكري للإسلام/ أنور الجندي.
٦١. صراع الأفكار/ د. محسن عبد الحميد.
٦٢. أعمدة الحكمة السبعة/ لورنس العرب.
٦٣. تاريخ عمارة المسجد الحرام/ تحقيق عمر عبد الجبار.
٦٤. فضائل بيت المقدس/ الدكتور محمود إبراهيم.
٦٥. عمدة الأخبار في مدينة المختار/ الشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي.
٦٦. الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت/ الشيخ جمال الدين القرشي.
٦٧. تأملات وخواطر في رحاب الكعبة المشرفة/ علاء الدين المدرس.
٦٨. الطريق إلى مكة/ محمد أسد (ليوبولد فايس).
٦٩. الطريق إلى المدينة/ أبو الحسن الندوي.
٧٠. أم القرى مكة المكرمة/ فؤاد علي رضا.

المحتويات